© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١٧» صيف ٢٠١٧

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / + ٩٧٠٢ – ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **هبة القدس قوّة دافعة للوحدة**

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

١٣ **الصهيونية وطمس الوجود الفلسطيني**

فيصل دراج

٢٧ **سؤال الشباب في الشرط الفلسطيني**

جميل هلال

٣٧ **آفي غباي: هل جلب الفرج لإسرائيل من حكم اليمين المتطرف**

نظير مجلي

٤٥ **«متحف روكفلر» حلقة من حلقات إختراع الأرض المقدسة**

شذى يحيى

٥٩ **خمسون عامًا على النّكسة**

عزيز العصا

٦٩ **معهد السياسات والاستراتيجية المركز المتنوع «هيرتسليا» المؤتمر السابع عشر – ٢٠١٧**

عليان الهندي

أوراق عربية

٩٧ **الدولة بوصفها جهازا للقمع**

محمود الورداني

١٠٥ **رام الله / فلسطين: أشواق الزيارة الثالثة**

أحمد المديني

أوراق ثقافية

١٢١ **الروائي المصري يوسف القعيد: "الربيع العربي لم يعطنا الواقع الذي حلمنا به"**

بديعة زيدان

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٣٣ **إبراهيم عبد الستار: توثيق مبكّر للشعر الفلسطيني في ثورته القومية**

جهاد أحمد صالح

١٦٥ **إسماعيل شموط (ندوة) التأريخ البصري السردي للنكبة الفلسطينية وما تلاها**

يوسف الشايب

مراجعات وتقارير

١٧٧ **رواية الإسرائيلية دوريت رابنيان: من لعبة التخييل إلى مأزق الإيديولوجيا**

أحمد المديني

١٨٣ **مدن بطعم البارود.. بين إيقاع الذات الساردة، وإيقاع الحرب**

محمد عطية محمود

١٩٣ **«انتفاضة الحجارة» في السينما الفلسطينية .. استعادة مميزة حديثاً ولا أفلام روائية**

يوسف الشايب

أوراق المؤسسة (ندوة)

٢٠٦ **ندوة: "الإدارة الأميركية الجديدة .. التحديات عربياً وفلسطينياً"**

هبة القدس قوّة دافعة للوحدة الوطنية

تمثل القدس للفلسطينيين رمزا من رموز الهوية الوطنية الفلسطينية وسماتها المادية والروحية، وتمثل أيضا أبرز سمة من سمات السيادة، ومظهرا من مظاهر العزة الوطنية والقومية.

وهي بمقدساتها وتراثها الحضاري والإنساني امتداد لتاريخ الشعب الفلسطيني منذ أن عاش في وطنه فلسطين، وتكلل هذا الوطن بألق الحضارات على امتداد القرون، وكان ومازال وسيبقى هو المالك لتاريخها وعمائرها وآثارها وكل طبقاتها الحضارية.

لا دولة فلسطينية بدون القدس، ولا سلام بدونها، ولا مستقبل للوطنية الفلسطينية دون أن تكون تحت سيادتها.

وتمثّل القدس للأمة العربية رمزا لكرامتها وتاريخها وعزّتها وحاضرها ومستقبلها، فهي تحتضن أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وتمثّل أيضا بمساجدها وكنائسها مهبط الأديان السماوية، ومولد عيسى عليه السلام، وأرض المعراج للنبي محمد (ﷺ).

وخاضت الأمة العربية حروبا طاحنة دفاعا عن قدسيتها وعروبتها ومقدساتها، وتراثها الحضاري والإنساني، وخصوصا في حروبها ضد الصليبين والمغول والتتر.

كذلك تمثّل القدس للعالم أجمع وللإنسانية جمعاء، مدينة السلام وزهرة المدائن، ومكانا لتعايش الحضارات والأديان والتنوع الثقافي والإنساني.

وفي القانون الدولي تعتبر أرضا محتلة من قبل الكيان الصهيوني، وأكّدت قرارات الشرعية الدولية في الأمم المتحدة (قرارات الجمعية العامة، ومجلس الأمن) على وضعها القانوني كجزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام٦٧، وكجزء من أرضي الدولة الفلسطينية التي اعترفت بها الأمم

المتحدة كدولة مراقبة في الأمم المتحدة، تتمتع بحقوق ويرفع علمها مع أعلام الدول الأعضاء.

كما أنّ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) أصدرت عديد القرارات التي تؤكد على عروبتها وشملت تراثها برعايتها ووضعته على لائحة التراث العالمي.

القدس وهي في موقع عبقرية المكان ليست تراثا فحسب، وانما هي الإنسان الذي عمرها وعاش وأبدع فوق ترابها وانتمى اليها وطوّر مجتمعه فيها، وكان جزءً من ألقها وجمالها، وأضاءها بإبداعه وثقافته ومعماره وفنونه، ونور قلبه وروحه.

والقدس لا تكون منيرة ومتألقة الاّ بأهلها من مقدسيين وفلسطينيين تتعلق بها قلوبهم، يشدون الرحال اليها للصلاة، والتمتع بمشهدها وأسوارها وأسواقها ومعمارها الفريد، وظلال حضارتها.

القدس، بيت المقدس وأحوازها، تزهو بإنسانها، ولأنها شجرة نور وعلم ومعرفة يتفيأون ظلالها، وتتعلق بها قلوبهم، ينتمون اليها، ويصمدون ويتصدون لمحاولات تهويدها، ومحاولات طردهم وترحيلهم منها، بسحب هوياتهم، وهدم بيوتهم، واعتقال شبابهم وتمكين المستوطنين من الاستيلاء على بيوتهم وعقاراتهم، وإجراء حفريات لتغيير طابع المدينة وتراثها، ونصب الحواجز في طرقهم وأحيائهم، وفرض الضرائب الباهظة عليهم، ومنع الزائرين والمصلين من الوصول الى البلدة القديمة حيث الحرم القدسي وكنيسة القيامة والأسواق مما يمنع حقوقهم وحرياتهم ويخنق الحركة التجارية والاقتصادية لمدينتهم.

المكابدات اليومية للمقدسيين لا تحتمل، وعلى الرغم من ذلك فإنهم صامدون، والعالم وخصوصا العالم العربي يتفرج وينشغل بقضاياه الداخلية وقد أصابه الوهن، وسلّم أمره لتحالفات مريبة.

***

تستغل دولة الاحتلال هذا الوضع العربي والدولي البائس، لرفع وتيرة التهويد وتنفيذ خططها لتغيير الوضع الجغرافي والديموغرافي في مدينة القدس، وخصوصا المس بمقدساتها، ومحاولة وضع اليد على الحرم القدسي الشريف والمسجد الأقصى من خلال تنفيذ أمر واقع بالتقسيم الزماني والمكاني للمسجد بحيث تقسمه بين المسلمين واليهود في البداية، تمهيدا للاستيلاء عليه بالكامل، وإقامة هيكلها المزعوم مكانه.

وتمثّلت خطة وضع اليد بإقامة ترتيبات مريبة تتحكم في الدخول اليه، بهدف فرض السيادة

الإسرائيلية، وإلغاء ولاية الأوقاف الفلسطينية الأردنية، التي ما زالت تتحمل المسؤولية والسيادة على الحرم، وقد تمثّل هذا الإجراء بنصب بوابات الكترونية، وتثبيت كاميرات، تستطيع من خلالها أن تمارس سلطتها في منع من تشاء من دخوله.. أي تمنع حرية العبادة التي هي حق لكل مقدسي ولكل فلسطيني ولكل مسلم.

ولأنه الأقصى الذي انطلقت شرارة الانتفاضة الثانية عام٢٠٠٠ من رحابه عندما اقتحمه السفّاح شارون مع مستوطنيه في ذلك الوقت، لأنه الأقصى رمزهم الروحي والوطني هبّ المقدسيون هبة رجل واحد في ثورة شعبية شجاعة وباسلة، هبّوا شبابا وشيبة ونساء ورجالا، وأشعلوا ثورة على المحتل، وقاوموا بصدورهم وقبضاتهم

وبسلاح الإرادة والوطنية، قاوموا جيشا مدججا بالأسلحة، واجترحوا أسلوبا جديدا في المقاومة، وشكّلوا قبضة تاريخية عز نظيرها، توحّدوا، واتحدوا ورفضوا الإجراءات الاسرائيلية، وملأوا الساحات والطرق، واشتبكوا مع عدوهم، وقدموا التضحيات والشهداء، وواجهوا عمليات الضرب والتنكيل بصلابة.

هبّة القدس هذه وجدت الدعم من عموم أبناء الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع وداخل الخط الأخضر، وفي مواقع الشتات كافة. كما أنّ القيادة السياسية للسلطة الوطنية وفي المقدمة السيد الرئيس عملت على مدار الساعة سياسيا ودبلوماسيا من أجل دعمهم وشد أزرهم.

هبة القدس أذهلت العالم، وهزّت الأرض تحت أقدام الغزاة المحتلين، وأدخلت الإحباط الى قلب المستوى السياسي والعسكري في إسرائيل، وأفشلت الخطط التي كانوا على وشك تنفيذها، وهزّت مكانة نتنياهو الذي تلاحقه قضايا الفساد، وتنذر بالإطاحة به.

بمقاومتهم السلمية نجح المقدسيون في إفشال محاولات إسرائيل وخططها في تهويد القدس، ولأنّ صراعهم كان مع العدو الأساس الذي يمثل تناقضهم الرئيس، فإنهم أعطوا درسا بليغا للنضال الفلسطيني، يمكن تلخيصه بكلمات قليلة: نصرنا يتحقق بوحدتنا.

***

الوحدة الوطنية اذا هي التي كانت الدرس البليغ ..

الوحدة الوطنية صرخة في وجه الانقسام.

ولعلّ هذه الصرخة تصل الى كل من يمتلك الوطنية والحكمة وبعد النظر.

بالوحدة الوطنية ننتصر، وبالوحدة الوطنية نهب كشعب يعشق الحرية هبّة رجل واحد.

بالوحدة الوطنية نتحوّل الى قبضة تاريخية.

لذلك فإن من واجب كل مثقف وسياسي وشخصية اجتماعية أن يقوم بدوره من أجل إعلاء صوت العقل والحكمة والوطنية لتحقيق الوحدة وإنهاء الانقسام.

وحدة وطنية من أجل الحرية والاستقلال لفلسطين.

وحدة وطنية من أجل الحرية للقدس ومقدساتها وتراثها الحضاري والإنساني.

وحدة وطنية من أجل صمود المقدسيين، وشد أزرهم فهم رأس الرمح والقوة الشعبية الشجاعة من أجل حماية عروبة المدينة المقدسة، وإبقائهم كقوة عظيمة تمثّل ما يمتلك شعبنا من إرادة، فمعركة القدس لم تنته، وانما هي جولة من جولات سبقتها وستليها.

وحدة وطنية من اجل وحدة الوطن بجناحيه في الضفة وغزة.

وحدة وطنية تكرس ديموقراطية صندوق الاقتراع وتداول السلطة، وانتخابات رئاسية وتشريعية ومجلس وطني.

ويتعيّن علينا كمثقفين ومفكرين وكقوى وفصائل وأحزاب في منظمة التحرير أن نعطي النموذج والأمثولة لتجربة ديموقراطية يستحقها شعبنا، وأن تكون ديموقراطيتنا مقترنة بالتجديد والتخطيط ورسم الأساسات للحاضر والمستقبل ونحن نواجه تحديات وجودية ومصيرية.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

الصهيونية وطمس الوجود الفلسطيني

فيصل دراج*

منذ أن اعتنق المشروع الصهيوني مبدأ «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، توسّل أنصاره وسائل نظرية ـ عملية لتحقيق ما ينشدون، مؤكدين أنهم قادرون على إحياء «وطنهم التاريخي»، وأن لهم الحق، كل الحق، في العودة إلى «أرض الميعاد». شكّلت إرادة العودة إلى الوطن المفترض البُعد الجوهري في «مشروعهم القومي» وغدا طمس الحق الفلسطيني بُعداً ملازماً، يستلزمه البعد الأول ولا يقوم إلا به.

خطب ديفيد بن غوريون في المؤتمر الأول لفلسطين العمالية في برلين عام ١٩٣٠، فقال: «أتوجد في فلسطين مشكلة عربية أم مشكلة يهودية؟ نحن أقلية في فلسطين، لا نشكّل غير نسبة ٢٠٪ من السكان. فمن أين جاءتنا إذن هذه الجرأة للتحدث في مشكلة عربية؟ في الوقت الحالي ـ وفي مستقبل قريب، لا توجد في فلسطين سوى «مشكلة يهودية»، مشكلة أقلية يهودية ضعيفة،...، نحن الآن، ولفترة قادمة أيضاً، أقلية.. هذا هو السبب في أننا نجد أنفسنا بإزاء مشكلة يهودية. وإذا واصلنا، بالرغم من كل شيء، التحدّث عن «مشكلة عربية»، فما ذلك إلا لأن لنا في بلد إسرائيل أفقاً تاريخياً.»(١)

جعل بن غوريون من مفهوم «الأقلية الضعيفة» مرجعاً للحديث عن «المشكلة اليهودية»، التي تعوّق تصرف اليهود في فلسطين، بسبب وجود «أغلبية عربية» قادرة على المقاومة. وما حديثه عن «الأفق التاريخي» إلا حديث عن شرط قادم، يحقق إبدال الصيغة القائمة، وينتهي إلى «أغلبية يهودية قوية»، بالمعنى المادي أو الرمزي أو بكليهما، وإلى «أقلية عربية ضعيفة» موازية، .. ولهذا بدا تهجير الفلسطينيين مدخلاً لحل «المشكلة اليهودية». كان في هذا المنظور ما يملي مشكلة، ويستولد أخرى، بقدر ما كان فيه مزج بين البصيرة والعماء، ذلك أن طمس الحقوق الفلسطينية بالتهجير

* ناقد وباحث من فلسطين

والتزوير، لم يحل المشكلة اليهودية، وانفتح على مشكلة لا تنطفئ هي: المشكلة الفلسطينية.

الوجود الفلسطيني بين الغياب والسلب المطلق:

جمع منظور بن غوريون، الصهيوني المقاتل والسياسي الاحترافي، بين إرادة الانتصار ومبدأ ميزان القوى، دون أن يتكئ على المقدمة الأيديولوجية الصهيونية القائلة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». ذلك أنه اعترف بأقلية يهودية وأغلبية عربية، واعترف أكثر بأن الوضعين سائرين إلى زوال، بالعمل الدؤوب. همّش الدعوى الأيديولوجية، وعهد إلى الفكر التطبيقي أن يلتقي بالأيديولوجيا المتصهينة، التي أفرغت فلسطين من سكانها، قبل خطاب بن غوريون بمدة طويلة، اعتماداً على نزعة صليبية متقادمة، وكتابات دينية أقرب إلى الحكايات. دعم بعض الرحالة الغربيون، الذين زاروا فلسطين في القرنين الثامن والتاسع عشر، المشروع الصهيوني قبل ولادته، في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في ٢٩ آب ١٨٩٧. اخترع هؤلاء الرحالة صورة فلسطين الخالية من السكان، واخترعوا معها صورة سكان «متخلّفين»، إن كان لهم وجود. قاموا، في الحالين، بطمس حقيقة الوجود الفلسطيني وتشويهه معاً.

كتب الرحالة الصهيوني الفكتوري، لورانس أوليفانت، حين زار بلدة صفد الفلسطينية، في نهايات القرن التاسع عشر: «المدينة ذات الرائحة الأسوأ والتي فيها أكبر انتشار للقوارض من بين المدن التي قدّر لي أن أنزل بها. ولو ألقيت السمع وأنت تسير في الطرقات هناك، فلن تسمع من العربية شيئاً، بل تسمع «اللغة الرطينة»، وهو الذي الذي يطلق على لهجة اليهود في أوروبا الشرقية» (٢). الطريف أن الرحالة الذي كان له كبير الأثر في نشر فكرة أن فلسطين هي أرض اليهود في المجتمع البريطاني، يستكمل ما قاله فيتحدّث عن «أطراف أخرى من المدينة حيث يوجد قرابة ستة إلى سبعة آلاف مسلم»، في مقابل «خمسة آلاف يهودي أو ستة.....». اعترف بالوجود الفلسطيني حين أساء إليه، ولم يعترف به حين جعل مدينة صفد تتحدّث «اللغة الرطينة»، لغة يهود شرقيّ أوروبا.

يطمس الرحالة الوجود الفلسطيني ويشوّهه إذ اعترف به، يطمسه حين يعتبر سماع اللغة العربية، أمراً نادراً، ذلك أن غياب اللغة من غياب البشر، ويشوّهه حين يرى في المدينة مرتعاً للقوارض. وهو في الحالين يمارس الاعتراف والإنكار، معبّراً عما يدعى «بالمكبوت»، الذي يساوي بين الوجود الفلسطيني واللاّوجود، وبين وجودهم وغيابهم و«الرائحة الأسوأ». وبداهة، فإن في تسفيه صورة الفلسطينيين ما ينزع عنهم بعدهم الإنساني، وما يسوّغ أشكال الاضطهاد «الجديرين» به، فلا تطبق المعايير الإنسانية، وهي غربية في المنظور العنصري، إلا على بشر يأخذون بالمعايير الإنسانية.

ولن يكون الأمر مختلفاً في كتاب الإنجليزية ماري روجرز «الحياة في بيوت فلسطين»، الذي رصدت

فيه ما رأته في فلسطين خلال رحلاتها (١٨٥٥-١٨٨٥)، اعتماداً على منظور يساوي بين البؤس وأهل البلاد. فهي حين تمرعلى قرية «كفر قرع»، تصف بيوتاً طينية «ينام فيها البشر والحيوانات» (٣)، وأناساً أذلاّء يشاكلون العبيد تطلق عليهم، براحة كبرى، صفة مسلمين، محاذرة أن تستعمل كلمة عربي أو فلسطيني أو أهل البلاد، موحية بأن هؤلاء المسلمين امتداد «للبيوت الطينية» التي تختلط فيها الحيوانات والبشر.

قدّمت روجرز صورة تفصيلية عن جغرافيا فلسطين وأنواع نباتاتها وطرائق حياة البشر الذين تمر بهم، وأسهمت في «المسح الجغرافي لفلسطين»، الذي عُني به الإنجليز عناية كبيرة، كتمهيد «معلوماتي» لاحتلال فلسطين، لاحقاً، و«تسليمها» لليهود، الذين لا ينامون في بيوت طينية ويأخذون بمعايير الحضارة. والأرجح أن روجرز لم تكتب عن مجتمع، ولا عن فلسطينيين لهم وطن، بل عن «أرض» فيها مسلمون، لا ينتمون إلى الأرض بل إلى دينهم، ما يجعل من انتزاع أرضهم أمراً محدود الضرر. وبسبب تحيّزها العنصري، الذي له شكل البداهة، تكتب عن أهل نابلس: «إن سكان نابلس من المسلمين يمتازون بعنفهم وتعصّبهم»، بينما تمر على الطائفة السامرية بتعاطف شديد «فقد اضطهدهم المسلمون وحاولوا إجبارهم على اعتناق الإسلام»، كما تقول. وقد اهتم الرحالة الإنجليز في القرن التاسع عشر، بمدينة نابلس لكونها آخر موطن للسامريين، الذين يعتقد أنهم ينحدرون من شعب مملكة إسرائيل الشمالية» (٤). قرأ الرحّالة فلسطين من وجه نظر عنصرية، توحّد بين الفلسطينيين والتخلّف، وترى في الأرض المقدسة حقاً لسكانهم القدماء من اليهود.

أسّس الرحالة الغربيين اهتمامهم بفلسطين على بعدين: تسويغ الحق اليهودي في فلسطين، قبل تبلور المشروع الصهيوني، كما لو كانوا يحضون اليهود الغربيين على «العودة إلى أرض أجدادهم»، وهو ما فعله نابليون إبان الثورة الفرنسية، واختصار الفلسطيني في صورة كاملة السلبية. فالكاتب والرحالة الأمريكي مارك توين، قرّر في كتابه «الأبرياء المسافرون» أنه «لم يرَ منزلاً واحداً في مرج بني عامر»، ولم تقع عينه إلا على «العزلة التي توحش فيها النفس، والقفار المهجورة وتلك الهضاب القاحلة، التي تتراءى فيها شدة لا تلين» (٥). يفصح الوصف عن عنصرية جوهرية، تغدو أكثر عُرياً حين يعرف القارئ أن السيد توين لم يمر بمرج بن عامر، ولم يكن قادراً على تحديد موقعه، كما أظهر كارل صباغ في كتابه "فلسطين تاريخ شخصي". وتتجلى عنصريته العارية في ما كتبه عن سكان فلسطين، حيث نعتهم بالعبارات التالية: "العرب القذرين، رائحتهم كرائحة الجمال، يعيشون في جهل ووحشية الأوباش، وجوههم قبيحة"...

يحوّل الاختراع العنصري فلسطين إلى أرض مهجورة، لا أهل لها، وإلى مساحات مقفرة، فأهلها لا يعملون فيها حتى لو وجدوا بحدود دنيا. فهم يأتلفون مع الصحراء والجمال، بعيدون عن

الاستقرار والزراعة، ما يجعل من «عودة اليهود» نعمة سماوية، فلدى اليهود، الذين يشبهون الغربيين ، قدرة على استثمار الأرض و»أنسنتها». والمضمر أو الصريح، في أرواح العرب، إن كانت لهم أرواح، صورة عن «الهندي الأحمر»، الذي هو جزء من الطبيعة الصماء.

طمس الفلسطينيين في المنهج الصهيوني:

انطوى نظر الرحالة الأوروبيين، وغيرهم، على تصوّر: «المراتب البشرية»، الذي يقول بالأعلى والأدنى، حيث إنسان المرتبة الأخيرة، أي الفلسطيني، له حاجات أدنى، أوليس له حاجات إنسانية على الإطلاق. لا غرابة أن يقرّر ونستون تشرشل، وزير المستعمرات في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين «أن الفلسطينيين لن يعرفوا الكهرباء بعد ألفي عام»، ففي حاجاتهم ما لا يستدعي ذلك، وأن يقول موسى شارتوك في عام النكبة: «خرجت هذه الضباع ولن يذكرها أحد بعد عشر سنوات». والضباع تعيش في المغاور وليس لها وطن.

وواقع الأمر، أن العنصرية الأدبية، التي جاءت مع الحروب الصليبية، و»أَبلَسَت الرسول العربي عليه السلام»، جسّدها مباشرة المشروع الصهيوني، مدفوعاً بإيديولوجيته وبأسطورة «شعب الله المختار»، التي تضع اليهود في قمة السلّم البشري، وتحشر الفلسطينيين مع قطعان الضباع. فلم يترك هذا المشروع مناسبة إلا واستدعى كلمة الحضارة، التي تفصل فصلاً باتراً بين الفلسطيني «الأقرب إلى التوحش»، وذلك القريب من «تعاليم الثورة الفرنسية»، وكلمة أخرى هي: الثقافة، التي رأت مفاهيم الدولة والشعب والسيادة مرتبطة بالشعوب، وإليها ينتسب الشعب اليهودي.

جاء في التقرير الصهيوني، الذي أعقب افتتاح الجامعة العبرية في القدس في نيسان من عام ١٩٢٥ ما يلي: «أعرب جميع الخطباء بالطبع عن أمانيهم أن يجلس العرب إلى جانب اليهود على مقاعد الدراسة في الجامعة، وبما أن التدريب لا يجري تقديمه إلا بالعبرية، فإن هذه الأماني ليست لها غير طابع المجاملة. والحال، أن مجموعة من البدو ذوي الشعور الطويلة تحت الغطرة والعقال، التي زاد الكحل من سوادها، كانوا حاضرين، احتل هؤلاء البدو صورة الممثلين لأبناء الصحراء الذين جذبتهم الصهيونية إلى حب الكيمياء العضوية» (٦).

لا يحتاج التقرير إلى تعليق طويل: فهو يبدأ بالسخرية، حين يساوي بين العبرية ولغة التعليم الجامعي، ويصل إلى سخرية صريحة، في حديثه عن سواد البشرة والعقال وتكحيل العينين، ويبلغ ذروته في إشارته إلى البدو والكيمياء العضوية، التي كان فيها للقائد الصهيوني وايزمان باع طويل. لليهود الكيمياء العضوية، التي حوّلها الكيميائي وايزمان إلى سلاح سياسي، سارع في توليد وعد

بلفور، و»للبدو» الكحل والشعر الطويل والخناجر التي تزنّر وسطهم، وكل ما يحوّلهم إلى مادة سينمائية من استوديوهات لوس أنجيلوس، كما جاء في التقرير....

يحكم التفاوت بين البشر خياراتهم في الإقامة، لا مكان لبدوي في أرض خصبة أو في جامعة «متحضرة» ولا ما يدفع عالماً في الكيمياء إلى سكن الصحراء. والأفضل إقامة «جدار عازل» بين الطرفين، أو طرد الطرف الأدنى بعيداً. وهو ما فعله الصهاينة عام ١٩٤٨، لا بأدوات «أكاديمية»، بل بوسائل التدمير والقتل والمجازر المتكررة في دير ياسين واللد والطنطورة»....

في الحوار الذي دار بين الصهاينة بين عاميّ ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧، المتعلق بشكل العلاقات مع «السكان العرب» تحدّث اتجاه عن دور الصهاينة في «ثراء السكان الأهليون ومساعدتهم في مجالات كثيرة»، عارضه بقوة اتجاه آخر، صاغ أفكاره المؤرخ الفرنسي هنري لورانس، وهو ليس صهيونياً، بالشكل التالي: «عاش اليهود على مدار ألفي عام بين الشعوب الأكثر تحضراً في الأرض، ولا يحق لهم أن يرتدوا إلى مستوى الأهالي، اشباه المتوحشين، ما يجعل من الانفصال بين الطرفين أمراً بديهياً، وبما أن اليهود يتمتعون بتفوق ثقافي، وسيتمكنون من فرض سيطرتهم سيكون اليهود منفصلين ونسيجاً ثقافياً متحداً....» (٧)

يطمس الخطاب الصهيوني الوجود الفلسطيني بأشكال مختلفة: يتحدث عن إنزواء السكان الأهليين، كما لو كانوا شعباً يعاني من العسر والفاقة، علماً أن الفلاح الفلسطيني كان يزرع كل شبر متاح، كما جاء في أكثر من تقرير، وكانت نابلس عاصمة سوريا الجنوبية في منتصف القرن التاسع عشر، وتميّز عيشها بيسر كبير، مثلما جاء في كتاب الألماني الكزندر شولتس «تحوّلات جذرية في فلسطين ـ ١٨٥٦ ـ ١٨٨٢» الصادر عام ١٩٨٦. أما الحديث عن أشباه المتوحشين، وهو ما اقتنع به بعض الرحالة، فهو مرآة للخطاب الاستعماري، المتداول والقديم، ذلك أن تجارة الفلسطينيين مع أوربا، وفرنسا بخاصة، كانت مزدهرة في القرن التاسع عشر. فما الذي يستورده المتوحش من بلدان متمدنة؟ وإذا كان اليهود قد راضوا أنفسهم على العيش بين الشعوب الأكثر تحضراً (ما معنى الحضارة على أية حال؟)، فهل من الممكن اعتبار «المجازر» ممارسة حضارية، وما هي القيم التي أخذوا بها، إن كان التاريخ تقدماً في القيم، على لسان المغربي الأستاذ عبد الله العروي؟

لا موقع للحديث عن حضور القيم التاريخية، أو غيابها، في خطاب صهيوني قوامه التزوير والأكاذيب العارية. جاء في رسالة كتبها بن غوريون، بعد مجيئه إلى فلسطين عام ١٩٠٦، اشتكى فيها من عمله الإجباري في «ظروف مهينة»: «كان مئات العرب يغزون الحقول ومزارع العنب، أما نحن، اليهود الشبان، فكنا نتجمع قرب الكنيس، على أمل أن يمر بنا أحد المزارعين...». لا يخلو الكلام من المفارقة

السمجة: فعوضاً عن أن يقول أن العرب يعملون في حقولهم، الموروثة عن أهلهم، يستعمل فعل «يغزون»، كما لو كانوا قوة عاملة وافدة، ناسياً أنه الوافد الغريب إلى أرض غريبة عنه، يتوعد أهلها «بأفق صهيوني تاريخي»، اعتماداً على السلاح ومؤازرة استعمارية.

يطمس بن جوريون الوجود الفلسطيني مرتين: مرة أولى وهو يتعامل مع العامل الفلسطيني بفعل «يغزو»، كما لو كان الأخير «وافداً عربياً إلى أرض الميعاد»،لا من أهل فلسطين وليس له بها علاقة، وهي «كذبة» روّجها بعض الصهاينة، حال جون بيترز في كتابه «منذ زمن سحيق»، الصادر عام ١٩٨٤، الذي اعتبر أن الفلسطينيين عرب جاؤوا من البلدان العربية المجاورة، ليعملوا في «المزارع اليهودية المزدهرة». ومع أن بن غوريون، لم يعش إلى زمن كتاب بيترز، فإنه يتفق مع ما جاء فيه، طامساً الوجود الفلسطيني مرة ثانية، وهو يتحدث عن «ارض يهودية نظيفة» جاء بها «الأفق التاريخي». لا مكان للتاريخ الفلسطيني عند بيترز، ولا مكان للفلسطينيين في الأفق التاريخي الصهيوني. يحضر، في الحالين، الدبلوماسي الأمريكي هنري كيسنجر الذي قال، وهو يطلق المدافع على الحقيقة: «يحق للإنسان القوي أن يكذب، ذلك أن صدقه يأتي من قوته».

وواقع الأمر، وكما يؤكد كارل عيسى الصبّاغ: «أن هناك ما يثبت وجود مئات المدن والقرى العربية التي لها تاريخ يدل على عدم خلوها من أهلها إلى القرن الثامن عشر ،على الأقل، وهناك من المدن ما يظهر وجود السكان منذ مئات السنوات قبل ذلك...» (٨). ولعل هذا التاريخ الحقيقي الطويل هو ما يدفع بالصهاينة، الذي سطوا على التاريخ الفلسطيني، أن يلوذوا "بتاريخ سحيق" غائم الملامح، وغير قابل للتحديد.

بين طمس الشعب الفلسطيني واختراع الشعب اليهودي:

لا يطمس الشيء إلا إذا كان موجوداً ويجب طمسه، أي اختراعه بشكل يبرهن عن غيابه. الطريف أن المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند، الذي كان أستاذاً في الجامعة العبرية، وآثر مغادرة إسرائيل، نشر كتاباً بعنوان: اختراع الشعب اليهودي. والاختراع بسيط وميسور، يستدعي الأساطير ولا ينصاع إلى منطق العلم، ويرتاح قبل كل شيء إلى أسطورة شعب الله المختار والاستعمالات المختلفة للكتاب المقدس، والقوة العسكرية التي تقنع اليهود باختلافهم عن غيرهم.

قامت الثقافة الغربية، بأشكال غير متكافئة، على الكتاب المقدس، الذي ترك آثاراً جلية في الرسم والكتابات الأدبية، حتى أن الكثير من العبارات والاستعارات المستخدمة في الإنجليزية، مثلاً، مشتقة من العهدين القديم والجديد. وإذا كانت تلك الثقافة قد اطمأنت إلى الكتاب المقدس، فإن الكتّاب

الصهاينة أسبغوا على الاطمئنان بُعداً مقدساً، على اعتبار أن الله ضامن للحقيقة اليهودية، وأن هذا الضمان يستمر في ما استجد، وفي ما تقادم وتحوّل إلى أطلال. ولهذا يفترض الصهاينة، بلا ارتباك، أن الرب منح أرض فلسطين لليهود قبل ثلاثة آلاف سنة، بل أن هذا الافتراض، هو ما جعل أرئيل شارون يتوجّه، ذات مرة، إلى مجموعة مسيحية ويقول: «هذه الأرض لنا والرب أعطانا صكوك الملكية (٩). إن الصك الإلهي الممنوح لحماية دينية أرضية هو شكل من الفولكلور، والحكايات الشعبية التي تسخّر المتخيّل لأغراض مختلفة، بل أنه "صك متخيل"، منح لشعب متخيّل، طالما أنه من المستحيل تصور إله، يعهد إلى نفسه تأمين ملكية "قانونية" لشعب معين.

في الصك المتخيّل، كما في الإله الذي لا يساوي بين الشعوب، يكمن الاختراع: فلا أحد يستطيع أن يعاين المشيئة الإلهية ويصدر، بداهة، طمس وجود الشعب الفلسطيني. وهذان البُعدان معاً يحيلان على لا معقول مزدوج: ينطوي التعامل المباشر، وواسطته صكوك الملكية، على تهويد الإله وتأليه اليهود، ما يجعل معارضة الإرادة اليهودية كفراً، لكنه يفترض، وهنا البعد الثاني، أن الإله الذي يتعامل مع اليهود ظالم وعنصري، لأنه يبارك طرد الفلسطينيين وتقتيلهم وسرقة أراضيهم.

في الخطاب الصهيوني ما يخترع الإله واليهود معاً، وما يخترع الفلسطينيين ويسلبهم الوجود. بيد أن هذا الخطاب، الذي لا يكتفي بالحكايات الفولكلورية، يعطي ذاته «بُعداً علمياً» أيضاً، لن يكون أقل فولكلورية لأنه يتحدّث عن اليهود كشعب مختار وعرق أيضاً، موسعاً تعاليم اللاهوت بمواد من البيولوجيا، أو من بيولوجيا خاصة، تقيم بين الشعوب المختلفة جدراناً سميكة، وتحفظ اليهود في «حيز إلهي» يتسع، «لعرق إلهي»، لا علاقة له بمبادئ البيولوجيا.

التاريخ وخارجه بين رينان وشلومو ساند:

المحصلة الصادرة عن وحدة اللاهوت والبيولوجيا، لا مفاجأة فيها، ذلك أن بين اللاهوت والبيولوجيا تناقضاً لا حل له، فالأول لا يقبل بالبرهان ولا بمبدأ التطوّر والحقيقة التي يقول بها كاملة، بينما البيولوجياعلم يقوم على البرهان ويتقدم مع أحكام نسبية ـ ففي كتاب «دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها»، الذي أشرف عليه الفرنسي جورج كانغيليم، الشهير في فلسفة العلوم، نقرأ: «إن الفكر العقلاني، الفكر الذي يرى أن العلم هو أولاً نظرية وبرهنة، يحذّر مما يبدو نادراً أو غريباً..» (١٠). ولهذا فإن الشعب الذي ينتسب إلى الله ويركن إلى قواعد البيولوجيا، نادر وغريب، اخترع ذاته وآمن بما اخترع، وهو ما أملى على المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند، الذي غادر إسرائيل أن يوجه إلى الأيديولوجيا الصهيونية نقداً نافذاً لا مساومة فيه، فهي أيديولوجيا تلفيقية اختصرت الله والتاريخ

في الطموحات السياسية، وعملت على نشر الأساطير والأوهام من أجل اقتلاع شعبه من أرضه. وعلى الرغم من أنها تدعي "الفرادة"، وما هو فريد يميل إلى التوحش كما يقول علم البيولوجيا، فإنها في فرادتها المخترعة (شعب الله المختار) صورة أخرى عن الأيديولوجيات الشعبوية الفاشية، التي تلغي العقل وتطلق الانفعالات، وتخترع صورة نادرة للأجداد.

الجدير بالذكر أن شلومو ساند، الرافض لمفهوم الشعب اليهودي، ألف كتاباً عنوانه: «عن الأمة والشعب اليهودي عند رينان». وضعت كلمتي «الشعب اليهودي» على الغلاف بين قوسين صغيرين، إعلاناً عن رفض التعبير وتحفظاً عليه، وأفرد دراسة نيرة عن المؤرخ الفرنسي الشهير الذي عاش في القرن التاسع عشر، وكما يؤكد مؤلف الكتاب، فإن الباعث عليه ليست شهرة المؤرخ، بل موقفه الذي لا يقبل بالمصطلح المشار إليه، أي الشعب اليهودي، علماً أن رينان كان رافضاً الرفض كله لكل أشكال «اللاساميّة». فقد خلص في محاضرة عنوانها «اليهودية كعرق ودين»، ألقاها في كانون الثاني عام ١٨٨٣، إلى نتيجة تغاير مبادئ الفكر الصهيوني. فهو يرى أن السكان الذين عاشوا، قديماً، في «يهودا» وتلقوا فيها الدين التوحيدي اليهودي، أي الدين السماوي، توقفوا عن أن يكونوا إثنية مغلقة أي عرقاً متميزاً مكتفياً بذاته، بل تطوروا وتوسع مجالهم بعد أن التحقت بهم أقوام أخرى مغايرة.

يقول ساند: «إذا كانت إسرائيل، أي الشعب اليهودي، قد مثّلت في البدء جماعة موحّدة «الأرومة»، فإن الوقائع التي مرّت بها أحدثت تغييراً جعل الدين اليهودي دينامياً، قادراً على استقطاب قبائل وشعوب...» (١١). بل أن أنبياء إسرائيل، ومنذ وقت مبكر، كانت لديهم رغبة كونية في توسيع الجماعة الدينية والمريدين لها. وما قال به ساند يشكّل استكمالاً لما قال به إرنست رينان الذي لاحظ «بنباهة كبرى» أن أصل يهود فرنسا لا يختلف عن اصل الكاثوليك أو البروتستنت، وأن اليهودي الفرنسي هو فرنسي اعتنق الديانة اليهودية. وهو ما ينكر أسطورة العرق اليهودي المميز بيولوجياً، كما ادعى الصهاينة.

أكّد رينان أن اليهودي لا يوجد في صيغة المفرد المتماثل، فما يوجد هو نماذج مختلفة من اليهود أملتها السيرورة التاريخية، أما التشابه في ملامح اليهود فلا علاقة له بوحدة العرق، أو ما يدعى بذلك، فهي محصلة للظروف الاجتماعية التي أجبروا على العيش فيها (الجيتو) ومنع الزواج المختلط. رأى رينان، بكل بساطة، أن اليهودية دين وأن من الحماقة أن تعتبر»عرقاً»، وأن اليهود في فرنسا يشكلون ثقافياً وسياسياً جزءاً من الشعب الفرنسي.

لا غرابة أن ينظر الصهاينة إلى رينان سلباً لأكثر من سبب: أخذ، وهو الذي ينتمي إلى عصر التنوير،

بمفهوم الكوني والكونية، الرافض لأساطير الشعوب المغلقة والرافض، تالياً، لأسطورة شعب الله المختار. أكثر من ذلك أنه يجعل من مفهوم «السيرورة التاريخية «عنصراً في كل تحليل علمي، مستنكراً الثبات والمعطيات النهائية، أكانت تلك التي تمس فرادة اليهود المزعومة أم حقهم «الإلهي» في فلسطين. وهناك ثالثاً مفهوم الاصل، الذي لا يتفق مع التصوّر التنويري ـ الحداثي للعالم، المنكر لما يدعى بالأصل، دينياً كان أو دنيوياً، لأن البدء والثابت بعيد البعد كله عن مفهوم التاريخ الحديث.

يدور السؤال، مهما تكن وجوهه، حول علاقة الأسطورة بالتاريخ، مع فرق حاسم بين موقف المؤرخ الذي يعتمد «الوثيقة التي تمكن البرهنة عنها»، وموقف النظراللاهوتي ـ العنصري، الذي يختصر الأزمنة في لحظة مقدسة لا يمكن مغادرتها. فإذا كان رينان وساند، هما مؤرخان يفسران الأسطورة بالتاريخ، فإن النظر اللاهوتي، والذي تقف وراءه دائماً أهداف سياسية، يفسّر التاريخ بالأسطورة. ولأن الأسطورة لا ترمم النظر وتسعفه على الوقوف، لجأ الصهاينة إلى ثنائية: الاختراع والطمس، فاخترعوا تاريخهم وتاريخ الفلسطينيين معاً، بما يتيح للطرف الأقوى أن يختلس حقوق الأضعف، وطمسوا حقائق الطرفين أيضاً، ما يعطي اليهود الجدارة الثقافية والحضارة وحق التصرّف في صورة الآخر، وما يصيّر الفلسطينيين إلى كمّ نافل كنقيض للحضارة.

من المحقق أن الفكر الصهيوني، حال كل فكر أيديولوجي آخر، لا يميل إلى التاريخ ولا يقبل به، لأنه ينفي مسلمتين صهيونيتين اساسيتين هما: شعب الله المختار وأرض الميعاد. ووفقاً لما جاء في كتاب عالم المصريات الألماني بأن أسمان «موسى المصري». نقرأ: «والدليل التاريخي لمكوث الكنعانيين الساميين في مصرهم الهيكسوس الذين حكموا كملوك في مصر، ثم طردوا من قبل حكّام مدينة طيبة للأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة (وجاؤوا إلى فلسطين بالدين اليهودي). وتحوّلت هذه الأحداث في خضم ذلك التغيير القصصي نفسه إلى قصة العبيد الذي حررهم الإله من العبودية واصطفاهم إلى فلسطين في منطق التغيير القصصي، الذي أفضى إلى «شعب الله المختار» وجعل فلسطين حقاً إلهياً لليهود.(١٢)

اعتمد ياسمان في ما وصل إليه، على فرويد، الذي كان يهودياً دون أن يكون معادياً للصهيونية، وواصل الاعتماد عليه، ولو جزئياً، هو يقرأ مسار النبي موسى وأطواره. فقد رأى فرويد، كما علماء آخرون، بأن: موسى كان مصرياً، وأنه قد جاء إلى اليهود بدين مصري، وبأن هذا الدين كان دين آتو ن عند أخناتون وتمكّن فرويد من أن يغزو السمات، التي كانت قبلاً قواماً للدين الحقيقي الذي جاء به موسى، إلى أخناتون الحاكم المصري الذي قال بالتوحيد، وانتهى نهاية مؤلمة. وبداهة فإن ما وصل إليه فرويد، الذي يشاطره أسمان الكثير من أفكاره، لا يسرّ الصهاينة أبداً. لأن هذه الافكار تعني الانحلال اللاهوتي لأساطير يهودية كثيرة، أي نزع «الضمان الإلهي»

عن المزاعم الصهيونية.

فقد اعتاش اليهود، نظرياً، على الضمان الإلهي الذي وهبهم ما يريدون ولعن، ضمنياً، الذين يشككون بحقوقهم الإلهية، كما لو كان الإله يشارك الصهاينة، جهودهم المتوالدة لطمس الحق الفلسطيني. نقرأ في مقالة عنوانها: «بنو إسرائيل في أرض إسرائيل» لكاتبها ر. ج. زفي فيربلوفسكي: «الصلة بين الشعب اليهودي والشريط الساحلي المتوسطي الذي يعرف باسم فلسطين، أمر مشكل، حتى أن أصحاب الذهن المطبوع، شيئاً ما، على اللاهوت، يفضّلون أن يطلقوا عليها كلمة «سرّ»،.....، تلك الصلة والوقائع المرتبطة بها هي جزء من تاريخ الشعب اليهودي. لذا يجب فهمها لفهم ذلك التاريخ، أكان فهم اليهودي لماضيه، أو فهم «الأجانب» لهذه الظاهرة التاريخية الغريبة الفريدة والتي تبدو، بسبب ذلك، مزعجة إلى حد ما...» (١٣).

يطلب الكاتب الصهيوني بفهم الظاهرة اليهودية الغريبة، التي لا يمكن فهمها على أية حال، لأنها «سرّ»، وفهم «السر» يعني الإفصاح عن مكنونه، وهو أمر لا يجوز، ناهيك أن هذا السر لا يستطيع الأجانب، فهمه، لأنه خاص باليهود وحدهم.

يتحوّل الضمان الإلهي، الذي يعطي لليهود ما ليس لهم، إلى :»سر مغلق»، سر إلهي، لا يجوز التشكيك فيه، يعترف باليهود وحدهم، ولا يعترف بغيرهم، ويجعل من طمس الوجود الفلسطيني «بداهة إلهية». وما لا يعترف الإله به لا وجود له، وسلبه حقوقه لا يعارض الإرادة الإلهية في شيء.

الاجتهاد الصهيوني في طمس الهوية الفلسطينية

ربما يكون في كتاب «منذ أزمنة سحيقة» لجون بيترز، وهو صهيوني الهوى بامتياز، ما يعطي «طمس الهوية الفلسطينية» أبعاده المتكاملة. فوفقاً لهذا الكتاب، الذي علّق عليه إدوارد سعيد بعمق وغضب معاً (لم يعثر على مجلة أمريكية ترضى بنشر تعليقه)، فإن الفلسطينيين لم يعيشوا يوماً في فلسطين، وجد بعض البدو الذين جاؤوا من الصحراء، ولم يعملوا على أرضها ويتعهدونها بالرعاية والعناية، فالعمل الزراعي في فلسطين أنجزه عمال عرب من البلدان المجاورة، وما بدا مورقاً ومثمراً نتيجة لكدح «الرواد اليهود». والخطاب في شكله الأخير واسع الوضوح: إذا كان اليهود سكنوا فلسطين منذ أزمنة سحيقة، فإن غياب الأثر الفلسطيني عنها يعود إلى زمن سحيق، أي غير قابل للتحديد.

يحيل الفكر الصهيوني، وهو يتحدّث عن زمن سحيق، أي زمن لا بداية له، على الأسطورة، التي تتعامل مع أصل مقدس لا يمكن تعيين بدايته، يحجب الأسئلة جميعاً، مطمئناً إلى المقدس المفترض الذي يلازمه. بيد أن الأسطورة، وكما يذهب المختصون في هذا المجال، تظل لصيقة بالعماء، والوهم أو الفنتازيا، مستنكرة «الوقائع المشخصة» والمحاكمة العقلانية. ذلك أن أسطورة «الصك الإلهي»، تسبغ على المشروع الصهيوني شرعية يحتاج إليها، وتجعل من الفلسطينيين شعباً غير مرئي، واللامرئي لا حقوق له، وطمس وجوده متحرر من الأسئلة المشروعة.

٦. الطمس المستحيل والوجود الفلسطيني الثابت:

استولد الفكر الصهيوني الأساطير، وأجبرها أن يقول ما يريد. وهو ما أوضحه بن غوريون حين تحدث عن ضرورة تخليق أغلبية يهودية واقلية عربية في فلسطين. ولهذا تحولت سياسة طمس الوجود الفلسطيني إلى سياسة عملية ـ مسلحة، لا تزال مستمرة حتى اليوم. تلت سياسة الإرهاب المسلح، التي أجبرت الفلسطينيين على الهجرة، ممارسات مختلفة، اختلطت فيها الغارات على المخيمات، و»صيد العصافير بالمدافع»، كما قال ناحوم تشومسكي، والسجون وتخريب الثقافة العربية في فلسطين المحتلة، ونهب الذاكرة، وتدمير «الاقتراحات السياسية العادلة»، وسياسة اغتيالات النخب الوطنية الفلسطينية... حولت هذه الممارسات أسطورة «الفلسطيني اللامرئي» إلى مهزلة دامية، وصيّرت «الطمس» عملية تقتيل مستمرة. وإذا كان الفلسطيني الميت خيراً من الفلسطيني الحي، قبل النكبة، وبعدها، فإن ديمومة المقاومة الفلسطينية أنجبت شتاتاً فلسطينياً مقاتلاً تجسّد في «الكتل الفلسطينية» في المخيمات، التي بدت لإسرائيل ، ولأطراف عربية معينة، خطراً يجب التحرر منه، وهو ما أطلق في لبنان ما دعي «حرب المخيمات». «اللامرئي» لا يقاتل، والمرئي المقاتل، الذي له جذوره البعيدة، يواجه نهج الطمس الذي يفضي إلى لا شيء. ذلك أن الفلسطينيين واجهوا «الأصل المقدس الصهيوني» بمعطيات أرضية، برهنت أن حقوقهم مقدسة.

يؤدي الاحتلال إلى المقاومة، ويؤدي احتلال الأرض وطمس شعبها إلى «الشهيد الطوعي»، الذي يترجم الحق في المقاومة، ويؤكد دفاع الفلسطينيين فعلاً أخلاقياً كونياً، عرفته الشعوب وتحدّثت عنه الفلسفات السياسية. ومع أن مصطلح «حقوق الإنسان»،الذي ازدهر في سبعينات القرن الماضي لاعتبارات مخادعة، فإن الشعب الفلسطيني، من حيث هو شعب مرئي، أعطى للدفاع عن حقوق الإنسان شكله النظري والعملي معاً.

انطوى هذا الدفاع، وهو فعل كوني،على مفهوم: الشرعية، فمن لا يدافع عن وجوده لا حق له في

الوجود، ومفهوم: العلنية، فعلى الحق «أن يرى»، وإن كان ثمن انتقاله من المخيمات الضيقة إلى الإعلام العالمي باهظاً.

عبّر الفلسطينيون عمّا دعاه حقوقيون حديثون: «حق الضرورة»، الذي عارضه الفيلسوف الألماني كانت لاعتبارات متعددة. وواقع الأمر أن الظلم الفادح الذي وقع على الفلسطينيين، وتجاهل العالم له عدة عقود، يستلزم اجتهاداً حقوقياً خاصاً به، فهو ظلم تأسّس على العنف الصهيوني، ورد عليه الفلسطينيون بكفاح من أجل الحرية. والمحصلة أن عدم احترام المعطيات التاريخية يزيّف الاجتهادات الحقوقية المرتبطة بحقوق الإنسان والحق في المقاومة. ولعل هذا التزييف الذي يسترشد بقاعدة كيسنجر عن حق القوي في الكذب، هو ما جعل الصهيونية تساوي بين المقاومة الفلسطينية والإرهاب، وترى في كل فلسطين إرهابياً محتملاً، وفي كل مطلب عادل دعماً للإرهاب، يندرج في «عمومية ظالمة»، تكره التاريخ وتحاذر التحديد.

يقول الفيلسوف كانت: «ليست السعادة غاية القانون، فلا أحد يجبرني أن أكون سعيداً»، إنما غايته إقامة القوانين التي تؤمّن لكل فرد حريته» (١٤) هذه الحرية التي تكفّلت إسرائيل بإعدامها، منذ «المجازر الأولى» إلى تشييد الجدار العازل، إلى إجهاض كل ما له علاقة «بسلام أوسلو». والمحصلة: إذا كانت إسرائيل صادرت حق الفلسطيني في حريته، حتى لو كان محدودا، فإن للفلسطيني حرية القتال المفتوحة لتأمين حريته الوطنية، أي تأمين إنسانيّته. فالإنسان الذي يرضى بفقدان حريته ناقص الإنسانية. وبهذا المعنى، يكون القتال الفلسيطيني من أجل الحرية، ومهما كان شكله، فعلاً إنسانياً علمانياً لا يواجه ديناً بدين آخر، ولا قومية مفترضة بقومية أخرى، فهو فعل إنساني بحت ومبرّر: يتضمن أخلاق المقاومة، من ناحية، والدفاع عمّا اعترفت به الأعراف الإنسانية من ناحية أخرى. أو كما قال الفيلسوف كانت: «يتمثّل واجب الإنسان الأساسي إزاء ذاته في احترام الكرامة الإنسانية واحترام كرامته الخاصة به». وهو ما دأب الفلسطينيون على القيام به، منذ ثورتهم الكبرى عام ١٩٣٦ إلى اليوم، وأكّدوا الدفاع عن الكرامة فعلاً يمس الفلسطينيين والإنسانية جمعاء.

لا أحد يطمس الحقيقة إلا إذا اطمأن إلى الكذب المسلح، وهو لا يعيش إلى الأبد، ولا أحد يستطيع طمس حقيقة الحقوق الفلسطينية في الأرض والدولة والكرامة. ولو كان ذلك الطمس ممكناً، وبعد سنوات من القهر طويلة، لما احتاج الإسرائيليون إلى «سياسة قمعية استثنائية»، متوالدة الأشكال. فهم لم يستطيعوا برغم اللاهوت المسلح والرسالة «الحضارية الأمريكية» أن يقنعوا الفلسطينيين «بأن عليهم العيش مثل الكلاب إلى أن تجد إسرائيل حلاً يتطابق مع حاجاتها»، كما قال موشي ديان ذات مرة (١٥). عرف الفلسطينيون حاجاتهم، لأنهم شعب لا تطمس حقيقته، ولا يعرف الإسرائيليون حاجاتهم لأنهم أدمنوا على طمس الحقيقة، وإذا كانت الحاجة الفلسطينية ستقنعهم،

ولو بعد حين، بأن التراب الفلسطيني جزء من الهوية الفلسطينية.

في مقابل «زمن سحيق»، كتاب جون بيترز الذي ينكر الفلسطينيين وتاريخهم، كتب يوسف سامي اليوسف، الذي نقله العثار الفلسطيني من مخيم اليرموك إلى مخيم عين الحلوة ومات هناك، كتاباً صغيراً عنوانه: «فلسطين في التاريخ القديم (١٦)، مع فرق بين دلالة الكتابين: أحدهما قام على الوهم الذي تنصره القوة والثاني على حقيقة التجربة، حيث العذاب الفلسطيني المدافع عن الحرية حقيقي، ولا أوهام فيه.

إشارات

1. Ben Gourion. Du r êve á la realiet é, stock: paris, 1986, pp: 6065-.

٢. كارل عيسى صبّاغ: فلسطين تاريخ شخصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣ ص: ٦٥.

٣. رحلة ماري روجرز سنة ١٨٥٦ ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣

٤. كارل صبّاغ، ص، ٧٢.

٥. المرجع السابق، ص: ٨٧

٦. هنري لورانس: مسألة فلسطين، المجلد الثاني ١٩٢٢ ـ ١٩٤٧ الكتاب الثالث ١٩٢٢ ـ ١٩٣١ ، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ٢٠٠٧، ص: ٩٠.

7. Yousef Gorny: zionism and Arabs, 188321948-, oxford, 1987, pp:4166-.

٨. كارل صبّاغ، مرجع سبق، ص: ٨٩.

9. Shlomo Sand: de la nation et du “people jufir’ chez Renan, paris, L.L.L. 2009 pp: 38, 40.

١٠. ج. كانفيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص: ٣١٥ ـ .....

١١. ساند، ص : ٤٤

١٢. يان أسمان، موسى المصري، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، ٢٠٠٩، ص ص : ٣٨١، ٣٨٣.

١٣. من الفكر الصهيوني المعاصر، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٨، ص: ٩.

14. A. Tosel. Kant. Puf, 1992, p. 79.

١٥. تشومسكي: عن أمل للضحايا، ترجمة فخري صالح، دار أزمنة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤، ص : ٤.

١٦. يوسف سامي اليوسف؛ فلسطين في التاريخ القديم، أزمنة، عمّان ، ١٩٩٨.

سؤال الشباب في الشرط الفلسطيني

جميل هلال*

برز في السنوات الأخيرة اهتمام متميز بموضوعة الشباب الفلسطيني في أبحاث ودراسات أو في استطلاعات رأي ومؤتمرات. وهذا أمر يطرح، في رأيي، جملة من الأسئلة: الأول، ما هو سر الاهتمام بالشباب في فلسطين، وفي العالم العربي؟ الثاني، كيف يجري التعامل مع «الشباب» وفهم مشكلاتهم وتطلعاتهم؛ والثالث، ما هي السمات الفارقة التي تميّز بين الشباب والفئات العمرية الأخرى؟

هذه الورقة هي تكثيف لأبرز نتائج الأبحاث في السنوات الأخيرة التي وضعت الشباب الفلسطيني في محور اهتمامها، وبخاصة تلك التي شاركت فيها سواء في المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية-مسارات، أو مركز الأرض للأبحاث والسياسات، أو مركز دراسات التنمية في جامعة بيرزيت، ونشرت هذه المراكز نتائج أبحاثها.

لا بد أولا من الإشارة إلى غياب تعريف إجرائي لسن الشباب على الصعيد المحلي أو الدولي: فالجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني يحدد سن الشباب ما بين ١٥ إلى ٢٩ عاما، ومركز دراسات التنمية في جامعة بيرزيت من سن ١٨ وحتى ٢٩ عاما، ومعهد دراسات المرأة يحدده من سن ١٨ إلى سن ٣٥ عاما، ومركز العالم العربي للبحوث والتنمية (أوراد) يحدده من سن ١٨إلى ٢٥ عاما، ومركز القدس للإعلام والاتصال يحدده من ١٥ إلى ٢٩ عاما (كما هو محدد من قبل مركز الإحصاء الفلسطيني) في حين حددها منتدى شارك الشبابي (رام الله) ما بين سن ١٨ و٣٤ عاما. عدد من أدبيات المؤسسات الدولية تصنف فئة الشباب من هم بين سن الثامنة عشر وسن الأربعين. لكن اختزال مفهوم الشباب بفئة عمرية يعكس فهما أحادي الأبعاد كما سأبين لاحقا.

* باحث من فلسطين

ولا بد ثانيا من الإشارة إلى أن الفئة العمرية ما بين سن ١٥ و سن ٢٩ حسب بيانات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني شكلت ٣٠٪ من إجمالي السكان (٣٧٪ منهم ما بين سن ١٥ إلى ١٩، ومن تبقى (٦٣٪) ما بين سن ٢٠-٢٩). وبلغت نسبة السكان في الفئة العمرية ١٤ سنة فما دون ٣٩٪ من مجمل سكان الضفة وقطاع غزة،، وبلغت نسبة السكان من الفئة العمرية ٣٠ سنة فما فوق ٣١٪ من مجمل السكان في الضفة الغربية وقطاع غزة. أما نسبة السكان من الفئة العمرية ٦٠ عاما فأكثر فبلغت ٤,٥٪ من مجمل السكان، وهذه الفئة العمرية (وتحديدا من الذكور) هي التي تضم النسبة الأعلى من النخب السياسية والاقتصادية والاجتماعية. بتعبير آخر الشباب، وفق المحددات الدارجة، ليسوا، في المجتمع الفلسطيني أقلية بل يشكلون نصف المجتمع البالغ، لكن الفئة العمرية العليا (أقل من ٥٪ من السكان) هي التي تحتل المواقع المقررة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

أولا، حول حيثيات الاحتفال بالشباب في السنوات الأخيرة

تتطلب الإجابة وضع السؤال في سياق المحددات الدولية و الإقليمية والمحلية الوطنية. على الصعيد الدولي طغى التوجه الأمني في صياغة استراتيجيات التعاطي مع ظاهرة الإسلام الجهادي والتكفيري على الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية. وكان من المتوقع أن يلاحظ أن القاعدة البشرية الأوسع المؤيدة والمناصرة للجهادية التكفيرية هي من الشباب. وعلى الجانب الآخر كان الحدث الأبرز في العالم العربي خلال النصف الأول من العقد الحالي تفجر انتفاضات شعبية كبرى في عدد من بلدانه كان الشباب محركها الأنشط والفاعل الأبرز فيها. هذه الانتفاضات استفزت، بشعاراتها المطالبة بالحرية والخبز والعدالة والكرامة الوطنية، القوى الرجعية واليمينية في المنطقة وبمساندة قوى دولية ذات مصالح وتوافق مع هذه القوى، ونجحت عبر وسائط عدة في منع تحولات ديمقراطية جذرية في هذه الدول وتمكنت من إعادة السيطرة للطبقة السياسية السابقة، وإن بوجوه جديدة.

بروز دور الشباب في تنظيمات الإسلام السلفي الجهادي وفي تفجر وتغذية الانتفاضات العربية جلب اهتماما ملفتا للفئات الشبابية، وحفز نحو توفير التمويل الضروري لإجراء استطلاعات الرأي والمسوح والأبحاث الخاصة بالشباب، وشجع عليه في الحالة الفلسطينية أكثر من اعتبار. أولها توفر كم واسع من المسوح واستطلاعات الرأي والأبحاث وفرص عقد مؤتمرات عن الشباب الفلسطيني، يعود لوجود جهاز إحصائي فلسطيني كفؤ ونشط. وثاني هذه الاعتبارات وجود عدد غير قليل من المراكز تعنى بتنفيذ استطلاعات رأي ومسوح منتظمة وتقوم بنشر نتائج استطلاعاتها، ومعظمها مموّل خارجيا وينسجم، بشكل أو بآخر، مع اهتمامات المولين. والاعتبار الثالث يخص تقبل

مكونات الشعب الفلسطيني، وتحديدا في فلسطين التاريخية، ولبنان، للمسوح واستطلاعات الرأي والدراسات الاجتماعية، وهو ما لا تتوفر شروطه في معظم المجتمعات العربية التي لا تسمح نخبها الحاكمة (الأمنية بشكل خاص) بحرية الاستفسار عن آراء الناس ونشرها.

كما يأتي الاهتمام بالشباب في سياق سيطرة مفاهيم وسياسات الرأسمالية بصيغتها الليبرالية الجديدة التي باتت تهيمن عالميا وإقليميا وفي برامج الأحزاب الحاكمة و الأحزاب المعارضة الرئيسة (بما فيها الإسلامية). كان من نتائج تغلغل الرأسمالية النيوليبرالية توليد معدلات بطالة عالية، وبخاصة بين الفئات الشابة، وهو أمر ساهم في تسهيل تجنيد أعداد غير قليلة منها من قبل حركات سلفية تكفيرية وأصولية جهادية. كما يتوجب ملاحظة سيادة خطاب دولي وإقليمي يستثني الدول ومؤسساتها من ممارسة «الإرهاب» (بمفهوم استهداف قتل وترويع مواطنين مسالمين) ويخصه لحركات سياسية أو اجتماعية غير حاكمة، ويقصر الإصلاح على قضايا ملتبسة المضمون والمتطلبات، مثل؛ «الحوكمة» و«الدمقرطة» و«مكافحة الفساد» (في القطاع العام مستثنيا القطاع الخاص ومنظمات المجتمع المدني)، و «التمكين» و«المبادرة» وقصرهما على توسيع قدرة الفرد على المنافسة ضمن مؤسسات النظام الرأسمالي القائمة على انعدام الفرص المتكافئة وعلى عدم المساواة.

الاهتمام بالشباب من النخب والمؤسسات المتنفذة في عالمنا العربي، رغم تسويغه في الكثير من الأحيان بالحرص على مصالح الشباب ومستقبلهم، تحركه رؤية أمنية، محورها في المرحلة الراهنة احتواء الشباب وتحييدهم عن تأثير التطرف الديني السياسي، في حين نجد أن معظم الأنظمة القائمة بما تمارسه من استبداد وفساد وما تنتجه من عدم مساواة بنيوية وقمع في مجتمعاتها وما تولّده التدخلات الخارجية من المراكز الدولية والإقليمية هي التي تتحمل مسؤولية إنتاج وتغذية التطرف الديني من نمط تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) وحزب البيت اليهودي في إسرائيل وغيرهما.

ويأتي في سياق الاهتمام بالشباب المواجهات التي تفجرت في خريف العام ٢٠١٥ التي كان الفاعل فيها الشباب. هذه المواجهات استمرت وإن بوتائر متباعدة لأشهر عديدة، لكن دون أن تنجح في التحول إلى انتفاضة شعبية لأسباب ليس مجال مناقشتها هنا.

وفي الوضع الفلسطيني الراهن قد يكون وراء الاهتمام بالشباب كقوة تغيير وإعادة إحياء الحركة السياسية الفلسطينية حالة الإحباط من فشل النخب السياسية في إنجاز المشروع الوطني، وحالة الانقسام السياسي القائمة منذ العام ٢٠٠٧، وانغلاق الأفق السياسي أمام السياسة اليمينية الاستيطانية العنصرية الإسرائيلية. الرهان على الشباب هو اقرار ضمني بفشل سياسة النخب السياسية التي قادت الحركة الوطنية الفلسطينية في العقود الأخيرة.

ثانيا، حول التعاطي مع دلالات مفهوم الشباب

مفهوم الشباب كمفاهيم أخرى عديدة مفهوم مشيّد اجتماعيا، وإن أشار لمرحلة عمرية للأفراد تنطوي على نيل حقوق وتحمل واجبات في الحيزيّن العام والخاص كالتصويت والترشيح في الانتخابات العامة، الزواج، وبناء أسرة، توقيع عقود ملكية وعمل، وغير ذلك. ولذا يتباين الاهتمام بهذه الفئة العمرية (كما بالفئات العمرية الأخرى)، وفق الجهة؛ فالأحزاب السياسية تقيم منظمات شبابية تابعة كأداة لتوسيع حضورها السياسي وتأثيرها الأيديولوجي وإطارها التنظيمي؛ ومؤسسات القطاع الخاص (الإنتاجي والخدماتي) تهتم بالشباب بما هم قوة عمل لها ومستهلكين لخدماتها وسلعها؛ والدولة تهتم بالشباب لحاجتها إلى تجديد دائم لأجهزتها ومؤسساتها الأمنية والمدنية والعسكرية. الجامعات والمعاهد معنية بالشباب كطلاب لا تكتمل مؤسساتها بدون حضورهم. وللشباب والطلبة تنظيماتهم ونواديهم كفئات اجتماعية أخرى. ولأن الشباب مرحلة عمرية انتقالية (كما هي مرحلة الطفولة)، ينبغي الحذر من منحهم هوية متجانسة تغطي على التباين الواسع في انتماءاتهم السياسية والأيديولوجية والاجتماعية والنوع اجتماعية (الجندرية) وتكوينهم المهني وتوزعهم الديني والطائفي والأثني والقومي ووفق طبيعة مكان السكن (قرية، مخيم، مدينة). هذا بالإضافة إلى الفوارق في تجاربهم الخاصة وفق العمر والنوع اجتماعي.

اهتمت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية الرئيسة وتنظيماتها القطاعية والمهنية بالشباب وبخاصة في عقدي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي. وبقي الشباب الفلسطيني حاضرا بقوة في مجرى النضال الوطني الفلسطيني منذ نشوء فصائل المقاومة الفلسطينية وهيمنتها على مؤسسات منظمة التحرير. وأظهر التنافس على التمثيل في هيئات الاتحاد العام لطلبة فلسطين هذا الاهتمام. وبقي الشباب حاضرا في مكونات الحركة الوطنية الفلسطينية حتى تحولها البنيوي من حركة تحرر إلى مؤسسات بناء سلطة حكم ذاتي في ظل استمرار الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، بعد أن أنهى اتفاق أوسلو الانتفاضة الأولى حيث شارك الشباب بقية شرائح المجتمع الفلسطيني في الضفة والقطاع في مواجهات منظمة للاحتلال الإسرائيلي. بقي الشباب حاضرا بقوة كلما احتدم الصراع مع المحتل المستعمر، كما في الانتفاضة الثانية (كتائب عز الدين القسام، وسرايا القدس، وشهداء الأقصى، وغيرهم)، وفي المواجهات الشبابية الأخيرة ضد الجنود والمستوطنين الإسرائيليين.

من الشائع التعامل مع «الشباب» ككتلة اجتماعية متجانسة التكوين والمصالح والاهتمامات والتوجهات، في حين أن الشباب، كما هو حال فئات عمرية أخرى، يتباينون في موقعهم الاجتماعي-الطبقي والمهني والتعليمي والثقافي والسياسي وفي نوعية موقعهم السكني (مدينة، مخيم، قرية)، والتجمع الذي يقيمون فيه (غزة، ضفة غربية، قدس، أراضي فلسطينية محتلة عام ١٩٤٨، الشتات)،

كما في النوع الاجتماعي (الجندر). كما يختلف الشباب والشابات في مواقفهم السياسية والاجتماعية، وفي انتماءاتهم التنظيمية، وهم يتباينون في فرص الحياة المتاحة التي تحددها عوامل موضوعية خارج إرادة الأفراد وخارج تحكم التجمعات التي يقيمون فيها.

ومن السائد أيضا تشييء الشباب والتعامل معهم إما كملحق متخارج عن المجتمع وليس كمكون دائم ومتغير في الوقت ذاته من مكوناته، يشكلون في الضفة الغربية وقطاع غزة، كما أشرت سابقا نحو ثلث السكان. هذه الرؤية تدفع باتجاه إما منح الشباب قدرات خارقة «خلاصية» لتلقي عليهم مسؤولية إنقاذ الشعب الفلسطيني من مأزقه المركب الراهن، أو إلى اعتبار الشباب فئة تحتاج إلى رعاية ووصاية من «نخب» المجتمع السياسية والاجتماعية والدينية. نحن نعرف، كأفراد مررنا بمرحلة الشباب أو ما زلنا فيها، أن الشباب ليسوا حائزين لقدرات خارقة قادرة - بدون تنظيمات سياسية وحركات اجتماعية واتحادات ونقابات ومجموعات ضغط. وغير ذلك – قادرة بمعزل عن قوى مجتمعاتهم على إخراج الحال الفلسطيني من واقعه الراهن المأزوم، ولا هم بحاجة إلى رعاية ووصاية من نخب مختلفة فشلت في قيادة الشعب الفلسطيني إلى مراده الوطني والاجتماعي.

خلاصات من أبحاث الشباب الفلسطيني

يسهل توضيح خلاصات الأبحاث والدراسات التي تناولت الشباب الفلسطيني إبراز الفرق بين مفهوم الحقل السياسي بما هو مجال فعل وتفاهم وتصارع لقوى سياسية في إطار دولة وطنية أو حركة تحرر وطني، وبين مفهوم الحقل الثقافي (ما ينتج ويتداول بين أفراد شعب ما من أدب وفن وفكر وحكايات وأساطير وتاريخ). الحقل الثقافي، هو المعني بالأساس، بإنتاج وإعادة إنتاج ليس فقط هوية وتاريخ مشتركين لشعب ما (روايته أو سرديته التاريخية)، بل، وهذا لا يقل أهمية، القيم الموجهة للمجتمع ورؤيته لذاته وللعالم.

يتبنى كاتب هذا المقال فرضية أن الحقل الثقافي يعمل باستقلالية نسبية عالية عن الحقل السياسي، وأن تفكك الحقل السياسي الفلسطيني، كحقل وطني جامع، إلى حقول سياسية محلية أو شبه محلية (موزعة بين الضفة والقدس الشرقية وقطاع غزة والأرض المحتلة عام ١٩٤٨، والأردن والشتاتات) لم يترافق معه تفكك في الحقل الثقافي الفلسطيني الذي واصل دوره في صيانة وإثراء الرواية التاريخية الفلسطينية وحافظ بالتالي على جذوة الوطنية الفلسطينية.

لعل ما يلفت الانتباه في الأبحاث التي تناولت الشباب الفلسطيني تأكيدها حقيقة أن تفكك الحقل السياسي الوطني الفلسطيني كما مثلته منظمة التحرير الفلسطينية منذ نهايات عقد الستينات

وحتى اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، لم توثر على حيوية وقوة حضور الوطنية الفلسطينية. هذا رغم تهميش المؤسسات الوطنية، واشتداد الصراع بين حركتي «حماس» و «فتح» وتوحش الاستعمار الاستيطاني في الضفة الغربية والقدس والحصار التجويعي لقطاع غزة، ورغم القيود المفروضة على حرية ووتيرة التواصل بين التجمعات الفلسطينية. وسبب رئيسي في هذا يعود إلى تحرر الحقل الثقافي من دكتاتورية الجغرافيا السياسية ومن سطوة موازين القوة (العسكرية والاقتصادية والسياسية)، وامتلاكه، بمضمونه الثقافي الديموقراطي التحرري، تفوقاً قيميا وأخلاقيا.

تفكك الحقل السياسي الفلسطيني كحقل وطني إلى مكوناته الجغرافية المحلية أفقد الشعب الفلسطيني حركة تحرره الوطني التي مثلته حتى تشكيل السلطة الفلسطينية، وهو لم يجد دولته المستقلة على أرضه بعد فشل تحول السلطة الفلسطينية إلى دولة ذات سيادة. لقد حدث أن انشطرت السلطة إلى سلطتين متنافستين على إقليمين مفصولين جغرافيا مع وجود دولة استعمارية استيطانية تسيطر على الحدود والموارد والأجواء والحركة داخل الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ وبين أجزاء هذه الأراضي. تهميش المؤسسات الوطنية الجامعة هو ما يفسر وفق مسح مركز دراسات التنمية في جامعة بيرزيت واستطلاعات رأي مختلفة لماذا اعتبرت أقلية صغيرة فقط من الفلسطينيين في تجمعاتهم المختلفة كلاً من منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية والحركات الإسلامية ممثلا لها. وهذا ينطبق على الشباب (ذكورا وإناثا) وعلى الفئات الأكبر عمرا.

لكن الافتقاد لمؤسسات وطنية تمثيلية جامعة لا يعني غياب الهوية الوطنية. فهذه تحضر في سياق هوياتي تعددي يغذي الوطنية الفلسطينية، ويبقي حقوقها التاريخية والوطنية حاضرة. تشديد فلسطينيي الأرض المحتلة عام ٤٨ (شبابا وأجيالاً أكبر سنا) على هويتهم القومية (العربية)، بالترافق مع هويتهم الوطنية (الفلسطينية) يأتي في سياق مواجهتهم الدولة العنصرية والأيديولوجية الصهيونية ولحماية الرواية التاريخية الفلسطينية. وإبراز فلسطينيي لبنان (شبابا وأجيالاً أكبر عمرا) لهويتهم الفلسطينية، هو تأكيد على حقوقهم التاريخية (وبخاصة حق العودة) وتعبير عن رفض ما يتعرضون له من تمييز صارخ على يد مؤسسات الدولة اللبنانية. ويبرز في الأبحاث حول الشباب التي أشرت إليها سابقا مؤشرات مختلفة عن تمسك الشباب بالهوية الفلسطينية ليس بمفهوم جوهراني أحادي الجانب، بل بمفهوم تعددي ثقافي وسياسي، دون أن يكون معزولا عن هويات أخرى، بما فيها العائلي والمحلي، مما يشير أن العلاقة بين الهويات ليست، بالضرورة، علاقة تراتبية، بل تحددها مقتضيات اللحظة والعلاقة مع الآخر الذي يقف في المواجهة.

أظهر الشباب في الابحاث الثلاثة امتلاكهم ثقافة سياسية وطنية تتمثل في ظواهر عدة، منها؛ توافق واسع لدى الغالبية العظمى في التجمعات الأربعة في تعريف جغرافيا فلسطين بحدودها التاريخية،

وتعريف الشعب الفلسطيني وفق ما ورد في الميثاق الوطني الفلسطيني، وفي تشخيص الواقع السياسي الفلسطيني الراهن، وفي رؤية شروط الخروج من المأزق الوطني الراهن. بعض الفروق المحدودة في تعريف وتحديد جغرافيا وديموغرافيا فلسطين تعود لتأثيرات الواقع الذي يعيشه كل تجمع، وبخاصة لواقع اتفاق أوسلو الذي استثنى مصير تجمعات فلسطينية خارج الضفة الغربية وقطاع غزة من اهتماماته المباشرة.

في التجمعات الفلسطينية، وبغض النظر عن الفئة العمرية والنوع الاجتماعي، برز توافق بنسب عالية على أن حالة الشرذمة والانقسام في الوضع الفلسطيني تعود إلى ضعف منظمة التحرير الفلسطينية، وإلى تأثير اتفاق أوسلو، ولتنامي ظاهرة التديّن السياسي وانتشار الواسطة والمحسوبية، ولتداعيات سياسات الممولين الدوليين. كما برز توافق ملحوظ، بغض النظر عن التجمع والفئة العمرية والنوع الاجتماعي، على اعتبار الصراع بين الفصائل الفلسطينية، والاستقطاب الحاصل في الوضع العربي، من العوامل التي ساهمت في شرذمة الفلسطينيين. ما أود قوله هنا هو أن التوافق العالي في الآراء بين مكونات مختلفة للشعب الفلسطيني مرده الحيوية والتماسك اللذان تتمتع بهما الثقافة السياسية الفلسطينية. وهي ثقافة حصيلة عقود طويلة من النضال ضد التهجير والاستلاب والتمييز والظلم التاريخي المتواصل.

الحوارات التي أجريت مع الشباب (بحث مسارات ومركز الأرض ومركز دراسات التنمية) حول تصدي الشباب لجنود الاحتلال في خريف العام ٢٠١٥، شخّصته كمظهر من مظاهر المقاومة لإسرائيل وسياساتها العدائية والعنصرية تجاه الشعب الفلسطيني وحقوقه. وأظهر مسح جامعة بير زيت أن نسبة عالية جدا من الشباب والفئات العمرية الأكبر في التجمعات الفلسطينية الأربعة، وبين الإناث والذكور اعتبرت المواجهات الدامية بين الشباب والجنود الإسرائيليين تعبيرا «عن رفض ومقاومة للاحتلال من مصادرة أراضٍ وقتل وتشريد للفلسطينيين». وهذا مؤشر آخر على تماسك وحيوية الثقافة السياسية الفلسطينية رغم تفكك الحقل السياسي الوطني. ويسري هذا على رفض غالبية في هذه التجمعات الفلسطينية لما آل إليه الوضع الفلسطيني و تعبيرها عن الإحساس بالغربة عن قيادات المؤسسات السياسية والمدنية واعتبارها مسؤولة عن هذا الوضع وعن حالة الانقسام المزمن، وعن الفشل في تشييد الاستقلال. هذا الاغتراب يترافق مع انشداد نسبة عالية من الشباب لحالة نضالية وطنية.

وبانت حيوية الثقافة الوطنية في تصدُّر اعتبار «الأرض والوطن» هو ما يجمع الشعب الفلسطيني في التجمعات الأربعة، كون الصراع مع الحركة الصهيونية ومع إسرائيل كان وما زال صراعا على استعادة أرض الوطن والاستقلال فيه.

عدة متغيرات تدخل في تفسير توجهات الأفراد الاجتماعية، منها الفئة العمرية والنوع الاجتماعي والموقع السكني، وموقع تجمع الشعب الفلسطيني. مثال على هذا ارتفاع نسبة الذين قالوا أنهم يفكرون بالهجرة للخارج (في شباط ٢٠١٦) مع الفئة العمرية؛ فهي (وفق مسح جامعة بير زيت) بلغت، كمتوسط للتجمعات الأربعة، ٤٠٪ بين الشباب (١٨-٢٩)، وانخفضت إلى٢٧ ٪ لدى الفئة العمرية الوسطى (٣٠-٤٤)، وإلى ١٨,٥٪ لدى الفئة العمرية الأعلى (٤٥-٥٥). والنسبة الأعلى من البطالة كانت بين فئة الشباب. لكن التباين الأوسع برز بين التجمعات الأربعة؛ فلسطينيو لبنان هم أصحاب النسبة الأعلى (٦٩٪) في التفكير بالهجرة، ولا يخفى أن سبب ذلك هو سوء الأوضاع المعيشية للفلسطينيين في البلد، ولما تتعرض له المخيمات من قيود ومضايقات ومن تمييز. ويلي فلسطينيي لبنان سكان قطاع غزة حيث سجل ٤١٪ منهم رغبته في الهجرة للخارج، وواضح أن حالة الحصار الخانق المفروضة على القطاع هي وراء ارتفاع هذه النسبة، كما هي سلسلة الحروب التدميرية التي تعرضوا لها، بالإضافة إلى ما يفرضه الانقسام من إحباط. وبلغت النسبة بين فلسطينيي الضفة الغربية ٢٨٪ في حين كانت النسبة الأدنى بين فلسطينيي الأراضي المحتلة عام ٤٨ إذ بلغت ١٤٪، كما أظهر الذكور، كمتوسط عام، نسبة أعلى في الرغبة في الهجرة من الإناث (٣٧,٥٪ للذكور مقابل ٢٥,٥٪ للإناث)، فالقيود على حركة الذكور أقل من الإناث، رغم أن نسبة التفكير بالهجرة بين الإناث ليست بالمتدنية.

وكمثال آخر نجد أن الفئة الشابة نفسها بنسبة أعلى من الفئات العمرية الأكبر سنا بأنها غير متدّينة، والأدنى في تصنيف نفسها بالمتدينة. وتصنف الإناث أنفسهن بالأكثر تديّنا من الذكور (٤٨٪ مقارنة بـ ٣٧٪ للذكور)، وأدنى في وصف الذات بغير متدين (١٣٪ للذكور و ٧٪ للإناث). ووافقت نسبة أعلى من الإناث على المقولة القائلة بأن "الديمقراطية والحرية مرتبطة بدرجة تحرر المرأة». وانطبق هذا على تأييد وصول النساء للمناصب السياسية إذ كانت نسبة التأييد بين الإناث أعلى من الذكور.

ما يمكن ملاحظته من مسح جامعة بيرزيت أن تمايز الشباب، كفئة عمرية، النسبي في المواقف الاجتماعية لم يرافقه تمايز مماثل في المواقف السياسية. فنسبة الشباب الذين حددوا فلسطين بحدودها التاريخية (الانتدابية) كانت مماثلة للفئة العمرية الأكبر سنا (٣٠-٤٤) وأدنى قليلا من الفئة الأعلى عمرا (٧٨٪ للفئة مقابل ٨١٪). ولم يظهر تباين بين فئة الشباب والفئات العمرية الأخرى في تحديد جغرافيا فلسطين. كما لم تتمايز فئة الشباب عن الفئات الأخرى في تعريفها للشعب الفلسطيني.

نسبة أعلى من فئة الشباب اعتبرت بأن لا أحد يمثلها، ونسبة أقل (وإن بنسبة ضئيلة جدا) من

الفئات الأخرى اعتبرت أن منظمة التحرير تمثلها (١٥٪، مقابل ١٦,٥٪ للفئة العمرية الوسطية (من سن ٣٠ وحتى ٤٤)، و ١٦٪ للفئة الأعلى (من سن ٤٥ حتى سن ٥٥))، ولم يبرز تمايز يذكر بين الفئات العمرية في من اعتبرت أن السلطة الفلسطينية تمثلها (٢١,٥٪، ٢٣٪، و ٢٢٪ للفئات العمرية الثلاثة). كما لم يظهر تمايز لفئة الشباب عن الفئات العمرية الأخرى، فيما يخص الاستراتيجية المناسبة لتحرير فلسطين سوى بتميزها بنسبة ضئيلة جدا (لا دلالة إحصائية لها) عن الفئات الأخرى في تأييد المقاومة المسلحة (الفرق بين ٢٪ إلى ٣٪) من جانب، و بتأييد أقل (أيضا بنسبة صغيرة جدا لم تتجاوز ٢٪) للمفاوضات من الفئتين الأخريين. كما كان التقارب الشديد في الآراء بين الفئات العمرية الثلاثة السمة الطاغية في تحديد العوامل الأكثر فعالية في تصويب المسار السياسي.

ما يمكن استخلاصه من الأبحاث الجادة التي أجريت في السنوات الأخيرة عن الشباب الفلسطيني، هو التالي:

أولا، من الحكمة التعامل مع مشكلات الشباب باعتبارها من مشكلات مجتمعاتهم وشعبهم، فمعطيات الأبحاث الرئيسة الثلاثة تشير بوضوح بأن لا حالة انقطاع بين مواقف ورؤى الشباب والفئات العمرية الأكبر، بل مواقف وآراء الشباب لا تختلف في معظم الأحيان عن الفئات العمرية الأخرى، وإن وُجدت تباينات، وهو أمر متوقع وقد أشرت إلى بعضها، فهي تباينات نسبية وليست فاصلة. ليس هناك من أدلة على وجود صراع بين الأجيال، كما يطرح البعض. هناك حالة اغتراب بين الشباب والطبقة السياسية الفلسطينية المتنفذة، لكنها حالة اغتراب تشمل فئات واسعة من الشعب ولا تخص الشباب فقط.

ثانيا، ما زالت القضية الوطنية وهي القضية التي تشغل، بشكل رئيسي، الشباب كما الفئات العمرية الأخرى. ويمكن القول أن الشباب هم الأكثر تأثرا من السياسات الاستعمارية الاستيطانية الإسرائيلية، ليس فقط لأنهم هم الفئة الأكثر تعرضا للقمع والاستهداف، بما في ذلك الاعتقال الاداري والقتل المتعمد، بل لأنهم الأكثر عرضة للبطالة والاستثناء من فرص الوصول للمناصب القيادية في الأحزاب ومؤسسات السلطة الفلسطينية ومؤسسات المجتمع المدني على اختلافها، كما في مؤسسات وبنى القطاع الخاص.

ثالثا، يتمتع الحقل الثقافي لفلسطيني (بأجناسه المختلفة الأدبية والفنية والأدائية والسينمائية والفكرية) بحيوية متجددة، تبرز في تماسك الرواية الفلسطينية التاريخية وفي وجود توافق على مكونات ثقافة سياسية موحدة. هذا لا يعني غياب التباينات في الآراء والمواقف والتوجهات السياسية بين التجمعات الفلسطينية ووفق المتغيرات الأخرى (بما فيها الفئة العمرية)، فهذه

التباينات لا تخرج عن سياق تعددية الآراء السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية إن أخذنا بعين الاعتبار التباينات في البيئات (السياسية والاقتصادية والقانونية والثقافية) التي تعيش فيها التجمعات الفلسطينية، والتجارب التي تعرضت لها في العقود الأخيرة. بتعبير آخر وجود ثقافة سياسية جامعة لا يلغي خصوصية كل تجمع على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية، كما لا يتعارض مع وجود توافق حول القضايا ذات الطابع الوجودي والرؤيوي؛ في التوافق على وجود علاقة بين حالة الشرذمة الفلسطينية والصراع بين الفصائل السياسية، على سبيل المثال، وفي منح الأولوية لخيار «الأرض والوطن» كمحددات جامعة بين مكونات الشعب الفلسطيني.

آفي غباي
هل جلب الفرج لإسرائيل من حكم اليمين المتطرف

اليمين في إسرائيل ما زال يشكل القوة الرئيسية في الحلبة السياسية. ومهمة غباي للوصول الى الحكم ستكون صعبة للغاية. وحسب نتائج الاستطلاعات، فإن المهمة الواقعية لرئيس حزب العمل، هي ان يحقق مكاسب في تعزيز إنجازات الحزب وحلفائه ليشكل معارضة قوية. ففي إسرائيل اليوم لا توجد معارضة جدية ومؤثرة على الجمهور أو على الحكومة. وهذا ما تحتاجه وفي الوقت نفسه يعتبر واقعيا.

نظير مجلي*

المفترض، أن كل شيء بات جاهزا لإسقاط حكم اليمين المتطرف بقيادة بنيامين نتنياهو. فالشرطة تحقق في أربعة ملفات فساد كبيرة ضده أو ضد مجموعة من أقرب المقربين له، واستطلاعات الرأي تشير الى ان ٥١٪ لا يصدقون رواية نتنياهو بأنه بريء من شبهات الفساد وقال ٦٦٪ من الإسرائيليين إنهم يريدون منه أن يستقيل من رئاسة الحكومة في حال تقديم لائحة اتهام ضده (١).

وقبل قضايا الفساد، كان الجمهور قد أعرب عن غضبه من نتنياهو وسياسته في شتى المجالات. وأشار أحد الاستطلاعات الى أن نسبة رضى الجمهور عن نتنياهو ٣٢,١٪ ووزير ماليته موشيه كحلون ٣٧٪ وباستثناء وزير الصحة يعقوب ليتسمان، الذي حظي بعلامة ٥٦٪، كانت علامات جميع الوزراء تحت الـ ٥٠٪ (٢).

* باحث في الشأن الإسرائيلي

وحسب تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي للدول المتقدمة (oecd)، تقبع إسرائيل في المرتبة ٢٦ من مجموع ٣٠ دولة، من حيث سهولة إقامة مشاريع صناعية. والنمو الاقتصادي يتباطأ، بسبب انخفاض الاستثمار في التعليم وفي الاقتصاد الصناعي وبسبب البيروقراطية. وعلى الرغم من ان دخل الفرد يصل الى ٣٦ الف دولار، ونسبة البطالة في إسرائيل من أكثر النسب انخفاضا في العالم المتقدم (٤,٦٪)، فإن نسبة الفقر أعلى من ٢٨ دولة متقدمة ، ولا تقف وراءها سوى اليونان والمكسيك(٣). فهنالك ٤٦٠ ألف عائلة يعيش فيها ١,٧ مليون مواطن، يعانون من الفقر بضمنهم ٧٦٤ الف طفل (٤).

ويعاني المواطن الإسرائيلي من الارتفاع الهائل في أسعار السكن، ويحتاج الى ٧,٧ سنة عمل ليستطيع شراء بيت، بينما يحتاج المواطن في دول المنتدى الى ٤,٦ سنة عمل لشراء بيت. إسرائيل هي ثاني أكثر دولة تعاني من تلوث الجو (فقط كورية الجنوبية تسبقها). الإسرائيلي يعمل حوالي ٤١ ساعة في الأسبوع (المعدل في الدول المتقدمة ٣٨,٤ ساعة) ويربح أقل من تلك الدول (٥).

والفوارق في المداخيل لدى الإسرائيليين هائلة، وتجعلها قريبة من العالم الثالث في هذا المجال. ففي حين يبلغ معدل دخل العائلة ٥٨ ألف شيكل في الشهر في العشر الأول من شرائح المجتمع، لا يزيد دخل العائلة في العشر الأخير عن ٤٦٤٤ شيكل. وهناك تمييز عنصري واضح في سياسة الأجور. فالعربي يحصل على ثلثي معدل الأجور في البلاد، والاثيوبي يحصل على نصف معدل الأجور واليهودي الروسي يحصل على زيادة ١٪ من معدل الأجور، بينما يحصل اليهودي الشرقي على ١٤٪ زيادة عن المعدل واليهودي الاشكنازي يحصل على ٣١٪ زيادة عن المعدل (٦).

والمشكلة التي يعانيها الإسرائيليون انهم رغم هذه النتائج السلبية لسياسة نتنياهو، ورغم تذمرهم منه وعدم رضاهم عن سياسته، لا يجدون بديلا عنه. فعندما يُسألون عن أفضل شخصية سياسية يرونها مناسبة لرئاسة الحكومة، كان نتنياهو يتربع على رأس القائمة. في بعض الأحيان يحصل على ٥٦٪ وفي أحيان أخرى يهبط إلى ٢٦٪، لكن أيا من المرشحين الآخرين في المعارضة لا ينافسه. بل إن رئيس المعارضة السابق، يتسحاق هيرتسوغ، المفترض لأن يكون أقوى المنافسين له، كان يحتل دائما المرتبات الأخيرة (٧).

وعليه، كان الاستنتاج الطبيعي هو أن يتم البحث عن رئيس جديد للمعارضة، قبل أن يبحثوا عن رئيس حكومة بديل.

الانقلاب

وبالفعل، حصل انقلاب مفاجئ في حزب العمل، حزب المعارضة الرئيسي. وجاء معه الأمل المنشود. ففي أواسط تموز ٢٠١٧، فاز آفي غباي برئاسة حزب العمل، بعد أن جاء من حزب آخر وهزم ثمانية مرشحين غيره من قادة هذا الحزب.

وكان خطاب غباي الأول بعد فوزه، بشرى للكثيرين. فقال: «أنا نتاج الهبة الشعبية في إسرائيل، التي

أعقبت أحداث الربيع العربي في تونس ومصر». وأضاف: «المعركة لإسقاط النظام بقيادة بنيامين نتنياهو، قد انطلقت». وقد قصد كلمة «إسقاط النظام» بكل معانيها، لأن نتنياهو – من وجهة نظره – لم يكن مجرد «رئيس حكومة آخر» في إسرائيل، بل صاحب أجندة لإحداث تغيير جذري في نظام الحكم: «نتنياهو يعتمد سياسة تعزز مكانته كرئيس حكومة من دون أي جهد لحل مشاكل المواطنين والدولة. يعتمد على الشعارات. يخاف من المتطرفين في حزبه وفي حزب «البيت اليهودي»، حليفه اللدود. يرضخ لإملاءات مجموعة ضيقة من المتطرفين ويمس بالقيم الليبرالية والديمقراطية بلا حساب. يضعف سلطة القانون ومحكمة العدل العليا. يسن قوانين لا ديمقراطية. يعجز عن تقديم مبادرات لتسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني والإسرائيلي العربي. يضيع فرصة إقامة سلام إقليمي. يدير الدولة وسط أساليب فساد، فالمقربون يتولون الوظائف الكبرى والمصيرية وليس أصحاب القدرات المهنية. ومع ان نتنياهو معروف كرجل اقتصاد ناجح، فإنه يدير سياسة اقتصادية سيئة، تنطوي على تراجع عن إنجازات الدولة في شتى المجالات وتؤدي الى زيادة الفوارق بين الأغنياء والفقراء. إسرائيل تحت حكم نتنياهو، هي ليست إسرائيل التي حلم بها هرتسل وقادها بن غوريون ودفع شعبنا ثمنا باهظا حتى رأيناها تقوم وتتطور. وهذه ليست إسرائيل التي يريدها الجيل الجديد. نتنياهو يجب ان يذهب الى البيت».

بهذا الخطاب وصل آفي غباي إلى ألوف البيوت الإسرائيلية في طول البلاد وعرضها، داعيا الى انتخابه دون غيره رئيسا لحزب العمل، «حتى نعيد تراث هذا الحزب، الذي يقف اليوم في المعارضة، بينما كان قد قاد الحركة الصهيونية منذ قيامها وحتى سنة ١٩٧٧». وبنجاح غباي بعث الأمل من جديد لدى أوساط واسعة من الإسرائيليين الذين ملوا قيادتهم السياسية ويرون فيه بداية عهد جديد.

من هو غباي

عشرات المحيطين برئيس حزب العمل الجديد يؤمنون بأنه ليس سياسيا تقليديا، ويؤكدون ان قصة حياته الشخصية تبشر بإمكانية نجاحه في إسقاط نتنياهو أو أي قائد آخر لليمين يحل محله في حال اضطراره للاستقالة.

غباي ابن لعائلة فقيرة، وصلت من المغرب في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي. والده عامل فني في شركة الاتصالات الحكومية «بيزك»، ووالدته ربة بيت. ولد في القدس في سنة ١٩٦٧، في بيت بائس داخل حي من البراكيات. الحي كان يشبه مخيمات اللاجئين. سميت في حينه «معبراة»، وتعني «محطة انتقال»، تم وضع اليهود الشرقيين فيها والكثيرون منهم بقوا فيها عشرات السنين، قبل ان يتاح لهم الانتقال الى بيوت ثابتة. وكانت عائلة غابي كثيرة الأولاد، هو الثامن بين سبعة اخوة وأخوات.

تعلم في القدس الغربية حتى الثانوية، ثم تجند للجيش ليخدم في شعبة الاستخبارات العسكرية. وارتقى فيها الى درجة ضابط، كونه يعرف بعض الكلمات العربية. وتعلم اللغة العربية على اصولها في الوحدة

٨٢٠٠، التابعة لشعبة الاستخبارات العسكرية، وباتت اكبر جهاز مخابرات في إسرائيل وأضخم وحدة عسكرية في الجيش الاسرائيلي. مهمتها متابعة ما يجري في أراضي العدو ولدى قوات العدو في أي مكان في العالم، تتنصت وتغرس أجهزة ومجسات في الدول العربية وإدارة حرب السيبر وغيرها. وحسب قوله ان عمله في هذه الوحدة لم يجعله يكره العرب، بل بالعكس فهو يعتز بانتمائه وحتى عندما ترك الجيش حافظ على علاقات مع اللغة والثقافة العربية. وهو يتابع الفن والموسيقى أيضا ويستمع الى اغاني محمد عبد الوهاب وام كلثوم وفر يد الاطرش ومعجب بشكل خاص بنانسي عجرم.

بعد الجيش التحق بالجامعة العبرية في القدس، وتخرج من كلية الاقتصاد في اللقب الأول وإدارة الأعمال في اللقب الثاني. بعد تخرجه، في العام ١٩٩٥ استوعب في وزارة المالية في دائرة الاتصالات في قسم الميزانيات. في العام ١٩٩٩، انتقل الى العمل مساعدا لمدير عام شركة «بيزك» للاتصالات، التي يعمل فيها والده. ثم عين مديرا لإحدى الشركات الفرعية فيها، وبعد سنتين، عين المدير العام للشركة. وهنا أثبت قدرات عالية في إدارة الأعمال، ونقل الشركة من خسارات دائمة الى أرباح كبيرة. وطيلة سبع سنوات فيها، تمكن من تجميع رواتب وأرباح بقيمة ٥٠ مليون شيكل، (ما يعادل ١٤ مليون دولار).

وهنا قرر تقديم استقالته وهو في عز النجاحات، معلنا أنه سيتفرغ الآن الى العمل التطوعي لتغيير الأوضاع في الدولة. ووجد له حليفا في الرؤيا، موشيه كحلون، وهو وزير الاتصالات في ذلك الوقت، الذي أحدث ثورة في المجال ولكنه لم يحتمل قيادة بنيامين نتنياهو، فاستقال من الحكومة ومن حزب الليكود وراح يفتش عن طريق جديد (٨).

في تشرين الثاني ٢٠١١، شهد غباي وكحلون معا، الهبة الشعبية التي انفجرت في إسرائيل بتأثير من الهبات الشعبية في مصر وتونس. فقد خرج الى الشوارع حوالي ٤٠٠ ألف إسرائيلي يهتفون: «الشعب يريد تغيير النظام». وشاهدا كيف قام نتنياهو بتنفيس هذه الهبة، عن طريق تشكيل لجنة لتغيير الأوضاع الاقتصادية من جهة وتفجير حرب على قطاع غزة من جهة أخرى. فقررا معا إقامة حزب جديد. وأسمياه «كولانو» (كلنا). وخاض الحزب الانتخابات الأخيرة وفاز بعشرة مقاعد (من مجموع ١٢٠)، أي ثلث المقاعد التي حصل عليها الليكود بقيادة نتنياهو. ولأن كحلون يميني بدأ حياته السياسية في الليكود، انضم حزبهما الى الائتلاف الحاكم، وتم تعيين كحلون وزيرا للمالية وآفي غباي وزيرا للبيئة.

ويقول غباي انه كان يشعر بانه نبتة غريبة في الحكومة. ومع انه حقق نجاحات غير قليلة، وتعامل مع موضوع البيئة بأسلوب جديد، إلا أنه وجد نفسه سريعا خارج الحكومة. وقد حصل ذلك عندما أقدم نتنياهو على دفع وزير دفاعه موشيه يعلون الى الاستقالة وتنصيب افيغدور ليبرمان زعيم حزب «يسرائيل بيتنا»، بدلا منه. فقرر غباي انه لا يحتمل هذه الطريقة من العمل وانه يفقد تماما الآمال

التي عقدها على هذه الحكومة لتحسين أوضاع الناس. وأدت هذه الخطوة الى تعزيز رصيده الجماهيري كقائد ذي قيم ومبادئ، وهذه صفات بعيدة عن السياسيين التقليديين في إسرائيل.

في نهاية السنة الماضية، انضم غباي الى حزب العمل الإسرائيلي، وكانت هذه مفاجأة أخرى. فهذا الحزب الذي يعتبر في إسرائيل «يساريا قديما»، بدا أنه في أفول والاستطلاعات تنبأت له بالانهيار في الانتخابات القادمة (من ٢٤ الى ٨ مقاعد فقط). وراح غباي يمتدح هذا الحزب على أنه «حزب عريق له جذور قوية في تاريخ الحركة الصهيونية» و«لا يوجد حزب غيره قادر على استبدال حكم اليمين المتطرف». ثم أعلن نيته المنافسة على زعامة الحزب، بعدما اضطر رئيس الحزب يتسحاق هيرتسوغ إلى تبكير موعد الانتخابات الداخلية. ولما كان هناك ثمانية متنافسين غيره على رئاسة الحزب، بات ترشيحه يثير السخرية. ووقف ضده الجهاز التنظيمي للحزب، واتحاد النقابات، وقادة الكيبوتسات (التعاونيات) ومعظم أعضاء الكنيست من رفاقه في الحزب.

لكن غباي لم يتأثر. بل حظي بدعم شبيبة الحزب، التي وفرت له مجموعات شبابية ترافقه الى كل مكان. وساعده في ذلك كونه أصغر المرشحين عمرا (٥٠ عاما). وراح ينتقل من بيت الى بيت ومن بلدة الى أخرى، فالتقى حوالي عشرة الاف من أعضاء الحزب. استمع اليهم بصبر واصغاء. تحدث معهم عن الأمل. وضع أمامهم تحديات جديدة. وأقنعهم انه قادر على هزم نتنياهو. وبدا ان وسائل الاعلام الإسرائيلية تهتم به بشكل خاص ولا تخفي اعجابها بطروحاته، وساعده هذا كثيرا على الظهور الإعلامي، دونما حاجة للدعاية الانتخابية. وما ان وصل يوم الانتخابات، حتى صار أقوى المنافسين. وانسحب أحد منافسيه، الجنرال عاموس لفين، وانضم اليه. وفي الدورة الأولى سقط رئيس الحزب، هيرتسوغ، وفاز غباي بثاني أكبر عدد من الأصوات، بحيث تقدم عليه عمير بيرتس، وزير الدفاع الأسبق الذي يعتبر أقدم أعضاء الكنيست أيضا (٣٥ عاما)، ويسمى بثعلب السياسة الاسرائيلية.

بيد ان غباي الحمل تغلب على الثعلب، إذ حصل على ٥٢,٤٪ من أصوات الناخبين، وأصبح رئيسا بلا منازع. واعتبر فوزه انقلابا جوهريا. وشبهه الكثيرون بشاب آخر عديم التجربة السياسية، هو عمانوئيل مكرون، الذي أصبح في وقت قصير رئيسا لفرنسا. ولم يتردد غباي في قبول المقارنة مع ماكرون، أعلن حال فوزه أنه ينوي قيادة حزب العمل نحو انجاز في الانتخابات القادمة يتمثل بـ ٣٠ مقعدا، حتى يتغلب على نتنياهو ويضع حدا لحكمه الطويل. وهو يؤكد ان هذا الهدف ممكن التحقيق. وقال إنه ينوي التوجه في الأساس الى مصوتي حزب الليكود، وهو على اقتناع بأنه يتواجد هناك مستودع الداعمين الكبير الذي يمكن ان ينتقل من دعم حزب السلطة الى دعم حزب العمل برئاسته. ويضيف: "انا استعد منذ اليوم للتجوال في كل البلاد، والوصول الى اناس لم نتحدث معهم، ولا يعرفوننا بعد، وعرض مخططاتنا ونوايانا عليهم – وانا اؤمن انهم عندما سيسمعوننا فانهم سيصوتون لنا، لأن لدينا الكثير مما نعرضه".

وسئل غباي، في لقاء مع صحيفة «هآرتس» (٩): ما هي برامجك التي ستقنع فيها مصوتي الليكود

اليمينيين؟ فأجاب: - "المشكلة الرئيسية هي ان الناس يخافون اليوم من بدء مسيرة التقدم في الحياة. يخافون من غلاء المعيشة وغلاء المساكن. الحكومة لا توفر ردا صحيحا في هذه القضايا. في جهاز الرفاه ينهار كل شيء وتتم خصخصته. المخصصات ليست مهمة للغالبية، ومع ذلك فإننا ننوي معالجتها. ومن اجل ذلك يجب زيادة النمو. عندما نزيد النمو سنحصل على ضرائب أكثر، ويمكن الاهتمام بالمواطنين".

- زيادة النمو يبدو وكأنه رمز لسياسة رأسمالية، لكنك تعرف نفسك بأنك اشتراكي ديموقراطي.

- «لست رأسماليا وقلت تماما ما انا وما هي نواياي خلال الحملة الانتخابية. لا توجد علاقة بين ما كنت وحقيقة انني كنت مديرا لشركة كبيرة. هذان امران مختلفان. انا انوي تعيين أفضل الأشخاص في اسرائيل. التعيينات السياسية تدمر الدولة. كما أنني اطرح حوارا يختلف تماما، بين العلمانيين والمتدينين، بين العرب واليهود، وغير ذلك. لدي اتصالات مع الجميع واعرف كيف اتدبر معهم وارتبط بهم».

- ما هي برامجك في الموضوع السياسي؟

- سأفحص ان كان ابو مازن مستعدا لأن يكون لي شريكا. آمل ان يكون كذلك، وفي هذه الأثناء هو الشخص الوحيد الذي يمكن الجلوس معه حول الطاولة. على كل حال، سأستثمر جهودا كبيرة لتحريك العملية السياسية من اجل دفع حل الدولتين».

- اذا كنت ترغب بأخذ مصوتين من الليكود، ستكون ملزما على الغمز يمينا.

- «التجربة التي سأقودها في المسار السياسي هي اخذ مصوتين من الليكود، هناك يوجد أكبر مستودع للنواب، وانا اقصد هذا ولا اقصد غمز اليمين. الكثير من المصوتين لليكود يؤمنون بمواقف حزب العمل».

أمل أم خيبة أمل

ما من شك في ان غباي يأتي برياح جديدة الى الساحة الحزبية الإسرائيلية. ومع ان حزبه يعتبر حزبا باهتا، خيب آمال الجمهور، إلا أن قدوم غباي أعاد الأمل للكثيرين. وليس صدفة انه وبعد يوم واحد فقط من فوزه برئاسة حزب العمل، نشرت نتائج استطلاعي رأي دلت على أن قوة الحزب ستتعزز كثيرا فيما لو جرت الانتخابات اليوم، وستتجاوز قوة حزب "يوجد مستقبل" المعارض، بقيادة يئير لبيد. وسيخسر حزب الليكود بالمقابل ما بين ١ – ٦ مقاعد، مما يشير الى بداية جيدة ومبشرة بوجود منافس جدي يهدد حكم بنيامين نتنياهو وربما يسقطه(١٠).

ولكن النسبة للشخص الملائم لرئاسة الحكومة، منح المشاركون في استطلاع القناة الثانية نسبة ٣٤٪ لبنيامين نتنياهو، و١٣٪ لغباي، و١٢٪ للبيد، و٦٪ لنفتالي بينت. اما في القناة العاشرة، فحصل نتنياهو على تأييد ٣٧٪، وغباي على ١٤٪، ولبيد على ١٢٪(١١).

وعقد غباي، صباح اليوم التالي مؤتمرا صحفيا في مقره في تل ابيب، قال خلاله ان "الحملة لتغيير نتنياهو قد بدأت. دولة اسرائيل اعلنت الانتخابات. نحن سنستبدل نتنياهو ونحصل على ٣٠ مقعدا. استطلاعات الرأي المنشورة تدل على اتجاه نحو هذا الهدف" (١٢).

وبعد أسبوع قال غباي انه «منذ اعلان فوزه توجه الكثير من الناس الى الحزب طالبين الانضمام". ودعا الى مضاعفة عدد المنتسبين الى الحزب والوصول الى ١٠٠ الف عضو. وقال: "موقع الانترنت انهار، البدالة الهاتفية انهارت، الناس يريدون الانضمام لأنهم يفهمون انهم هكذا يدعموننا. كل شخص ينضم يدعمنا، ويدعم الامل بالتغيير. انا ادعو الجمهور: انتم تثقون بي، تعالوا وانضموا الى العمل"(١٣).

بيد ان هذه الصورة لم تدم طويلا. فبعد شهر من هذه الأجواء، عاد حزب العمل الى الانطواء وبدا ان غباي يواجه مصاعب جدية داخل الحزب. فمع انه أعلن عن «انتهاء حرب المعسكرات الداخلية»، كشف عن نشاطات لمنافسه عمير بيرتس لبلورة معسكر، يطالب بتقاسم الصلاحيات. وعندما نزل غباي الى الشارع، وشارك في مظاهرة تطالب المستشار القضائي للحكومة، أبيحاي مندلبليت، بالإسراع في التحقيق مع نتنياهو وتوجيه لائحة اتهام ضده (١٤)، صدرت أصوات من داخل حزبه تعتبر هذا التصرف «غير مسؤول» و»غير ملائم لمرشح لرئاسة الحكومة» (١٥).

وطرح غباي خطة لتوسيع تحالفات الحزب، معللا بأنه «لا يمكن لحزب العمل وحده ان يفوز بالحكم وعليه ان يقيم تحالفات مع أحزاب وشخصيات أخرى». وكشف انه على اتصال مع ايهود باراك لتشكيل «مجلس جنرالات» بقيادة باراك يظهر «القوة الأمنية للمعسكر الجديد». فثارت ثائرة الحزب ضده، لأنهم يرون في باراك لعنة على الحزب.

وقد أثرت هذه الصراعات على غباي وحزبه في استطلاعات الرأي، فهبط من ٢٠ الى ١٦ مقعدا(١٦). ودل الاستطلاع على ان الجمهور الإسرائيلي يفضل تحالف اليمين القائم حاليا في الحكم، حتى لو اضطر نتنياهو للاستقالة، بل منح الليكود أصواتا أعلى من الأصوات التي يحصلها نتنياهو اليوم. وتبين من الاستطلاع انه في حال خوض الليكود للانتخابات بقيادة نتنياهو، فانه سيحصل على ٢٧ مقعدا، بينما إذا قاد الحزب شخص اخر، مثل يسرائيل كاتس، غلعاد اردان او غدعون ساعر فانه يتوقع حصوله على ٣١ مقعدا. وفي سؤال حول من هو الزعيم الذي يصلح لقيادة اليمين باستثناء نتنياهو، فاز غدعون ساعر بتأييد ٢٣٪، يليه نفتالي بينت ثم افيغدور ليبرمان. اما بين المصوتين لليمين، فقد حصل بينت وساعر على نسبة تأييد مشابهة – ١٨٪. وحصل غباي هنا على ٩٪ من الأصوات(١٧).

وخلاصة الأمر، هي ان اليمين في إسرائيل ما زال يشكل القوة الرئيسية في الحلبة السياسية. ومهمة غباي للوصول الى الحكم ستكون صعبة للغاية. وحسب نتائج الاستطلاعات، فإن المهمة الواقعية لرئيس حزب

العمل، هي ان يحقق مكاسب في تعزيز إنجازات الحزب وحلفائه ليشكل معارضة قوية. ففي إسرائيل اليوم لا توجد معارضة جدية ومؤثرة على الجمهور أو على الحكومة. وهذا ما تحتاجه وفي الوقت نفسه يعتبر واقعيا.

إن وجود معارضة قوية، نشطة وفعالة وذات حضور يومي في الشارع وفي الاعلام وفي الحلبة السياسية، يمكن ان يكون مؤثرا على الحكومة وسياستها أكثر.

هوامش

١. استطلاع اجراه قسم الاخبار في القناة العاشرة للتلفزيون الإسرائيلي – ٦ آب ٢٠١٧.

٢. استطلاع القناة الثانية للتلفزيون الإسرائيلي - ٩ كانون الثاني ٢٠١٧

٣. تصريح من جلعاد بارنياع، الباحث في مركز «طاؤب» للبحوث الاجتماعية في تل أبيب – القناة العاشرة للتلفزيون الإسرائيلي – ١ كانون الثاني ٢٠١٧).

٤. تقرير مؤسسة التأمين الوطني عن سنة ٢٠١٥

٥. تقرير من صحيفة «ذي ماركر» الاقتصادية الصادرة عن صحيفة «هآرتس» – ١ كانون الثاني ٢٠١٦

٦. المصدر نفسه

٧. في استطلاع رأي بهذا الشأن بثت نتائجه «القناة الأولى» للتلفزيون، جاءت النتائج التالية: نتنياهو ٢٦٪، يليه زعيم حزب «يوجد مستقبل» المعارض، يائير لبيد ١٥٪ ثم موشيه يعلون، وزير الأمن السابق، ٩٪، ثم جدعون ساعر، وزير التعليم السابق ٦٪ ، ثم جابي اشكنازي، رئيس اركان الجيش الأسبق ٥٪ وبعده بقليل يتسحاق هيرتسوغ حوالي ٥٪ وأخيرا ايهود باراك، رئيس الوزراء الأسبق ٤٪.

٨. تلخيص لسيرة حياته نشرته في صحيفة في «الشرق الأوسط» – ١٥ تموز ٢٠١٧

٩. صحيفة «هآرتس» – ١٣ تموز ٢٠١٧

١٠. حسب استطلاع القناة الثانية للتلفزيون، فانه لو جرت الانتخابات اليوم، لكان حزب "الليكود" سيهبط بخمسة مقاعد (يوجد له الآن ٣٠ مقعدا) ويحصل على ٢٥ مقعدا، مقابل ٢٠ لحزب "العمل" (يوجد له الآن ٢٤ مقعدا لكن الاستطلاعات تنبأت طيلة عدة شهور بسقوطه الى ٨ مقاعد قبل ان ينتخب غباي)، و١٨ لـ"يوجد مستقبل"، و١٣ لكل من "البيت اليهودي" و"القائمة المشتركة"، و٨ لحزب "كلنا" و٧ لـ "يهدوت هتوراه"، و٦ لـ "يسرائيل بيتينو"، و٥ لكل من "شاس" و"ميرتس". اما حسب استطلاع القناة العاشرة، فان "الليكود" سيحصل على ٢٩ مقعدا، مقابل ٢٤ "للعمل"، و١٦ "يوجد مستقبل"، و١٤ "البيت اليهودي"، و٨ "القائمة المشتركة"، و٧ "يسرائيل بيتنا"، و٦ لكل من "كلنا" و"يهدوت هتوراه"، و٥ لكل من "ميرتس" و"شاس".

١١. المصدر نفسه

١٢. «يديعوت أحرونوت» ١٩ تموز ٢٠١٧

١٣. «يديعوت احرونوت» ٢٦ تموز ٢٠١٧

١٤. منذ بداية السنة تقام هذه المظاهرات ليلة كل يوم سبت في بيتح تكفا، على مقربة من بيت مندلبليت. وبلغ عدد المشاركين فيها ٣٠٠٠ شخص.

١٥. «معريب» – ٦ آب ٢٠١٧

١٦. استطلاع «معريب» في ١١ آب ٢٠١٧

١٧. المصدر نفسه

«متحف روكفلر» حلقة من حلقات إختراع الأرض المقدسة

شذى يحيى*

بعد أقل من أسبوعين على تبني لجنة التراث العالمي التابعة لليونسكو في دورتها الحادية والأربعين إعادة إعتماد»١٢» قرارا سابقا للمجلس التنفيذي لليونسكو وسبعة قرارات سابقة لها تنص جميعها على تعريف الوضع التاريخي القائم في المدينة على: «أنه ما كان عليه تراثها قبل الاحتلال الإسرائيلي في العام ١٩٦٧م، وكان من أهم البنود التي أعادت اللجنة التأكيد عليها عدم شرعية أي تغيير أحدثه الاحتلال الإسرائيلي في القدس القديمة ومحيطها بعد أن احتلتها، مع التشديد على بطلان الانتهاكات والنصوص القانونية التي بني عليها ما يسمى بالقانون الأساس الذي أقره الكنيست عام١٩٨٠م وينص على «وحدة القدس كعاصمة أبدية لدولة إسرائيل» والاثار المترتبة عليه، حيث تقدمت عضوة الكنيست الإسرائيلي «شولي موعاليم» عن حزب البيت اليهودي المتطرف بمشروع قانون ينص على أن «القدس هي العاصمة البدية للشعب اليهودي ودولة إسرائيل ولا يمكن لأي كان التخلى عن القدس كعاصمة لإسرائيل إلا بأغلبية ٨٠ عضواً بالكنيست من أصل ١٢٠»، وكتبت موعاليم في مقترح القانون في إشارة واضحة لقرار لجنة التراث «عندما تطفو على السطح إشارات تتعدى السيادة اليهودية على القدس علينا العمل على لجم هذه المحاولات من خلال قوننة مكانة القدس كعاصمة أبدية لإسرائيل ومنع أية إمكانية للتنازل عنها «، وذكرت موعاليم ايضاً «أن إسرائيل لن تسمح بإقامة دولة فلسطينية، وان القدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل ولا يوجد شعب آخر له علاقة بالقدس مثل الشعب اليهودي»، أكذوبة رسختها الثقافة الإمبريالية في الذهن الغربي على مدى قرون لتحقيق مصالحها ومطامعها الخاصة في الشرق، سواء كان السبب لنهب ثرواته أو لحماية قناة السويس أو حتى الحفاظ على البترول فيما بعد، ولهذا أنشأ ما يعرف بعلم التاريخ الإنجيلي وأركيولوجيا الكتاب المقدس واخترعت اكذوبة الأرض المقدسة، هذه الأكذوبة التي عمل على ترسيخها في ذهن الغربيين لتحقيق

* باحثة من مصر

مصالح دولهم عن طريق إختراع الأدلة الأثرية على حدوث الحكايات التوراتية والإنجيلية على أرض الواقع وتقديمها على انها تاريخ حدث على هذا الحيز الجغرافي من العالم، ولذلك لم يكن غريباً أن يصف الأثري البريطاني الشهير السير «مورتمر ويل» في العام١٩٥٦م فلسطين بأنها «المكان الذي ارتكبت فيه خطايا باسم علم الآثار أكثر من أي بلد أخرى على وجه المعمورة «.

لم يكن إختراع الأرض المقدسة إختراعاً يهودياً بل كان إختراعاً إمبريالياً ذا صبغة بروتستانتية هدفه منذ البداية وضع موطئ قدم للكنيسة البروتستانتية في فلسطين مهد الديانة، ومواجهة نفوذ ما كان البروتستانت يسمونه بالكنائس المتحللة أحياناً والعتيقة في أحيان أخرى والتي كانت ذات نفوذ كبير في القدس، وقد أرسى هذا المبدأ كحجر أساس للسياسات البريطانية في الشرق وفي فلسطين والقدس اللتان كانتا تابعتان للدولة العثمانية وذلك على إعتبار أن نشر المبادئ البروتستانتية، والتي هي أساس للنهضة الصناعية والتقدم العلمي، هي الدعامة الأساسية للاستراتيجية التوسعية البريطانية وظلت كذلك فيما يختص بفلسطين منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى نهاية فترة الانتداب البريطاني وإعلان قيام الدولة الصهيونية، وقد اعتمدت بريطانيا في تنفيذ أهدافها على أمرين، الأول هو أعمال البعثات التبشيرية والإرساليات والمدارس الملحقة بها لنشر المذهب البروتستانتي، والثاني هو الأبحاث الأثرية والتاريخية وأعمال التنقيب والبحث عن الأثار والتي تربط فلسطين بالكتب المقدسة وما يتبع ذلك من دعم اليهود بوصفهم السكان الأصليين للبلد، والأهتمام بأتباع الطوائف المسيحية التقدمية الموجودين فعلاً لأنهم هم التعبير الأسمى عن جوهر المسيحية الخالص من الوثنية، وتبع ذلك النظر إلى المسلمين وأتباع المذاهب المسيحية الشرقية من أبناء فلسطين على أنهم وافدين عليها، وأن المراحل الإسلامية من التاريخ الفلسطيني هي مراحل عابرة لا يعتد بها وسط امتداد التاريخ الإنجيلي، وقد شارك الأميريكيين البروتستانت من أتباع الكنائس المعمدانية والإنجيلية المؤمنين كذلك بوجوب عودة اليهود لفلسطين لإقامة مملكة الله على الأرض، والألمان المعمدانيين والمتفقين مع البريطانيين في المذهب في مجهوداتهم التبشيرية وأيضاً في انشطتهم لإرساء فكرة فلسطين التوراتية كما وردت في الكتاب المقدس عبر الاستكشاف الأثري، وهكذا وسعياً وراء تحقيق هذا الهدف وبتشجيع مباشر ومباركة من الحكومة البريطانية وتسهيل منها رافقت بعثات وإرساليات المبشرين المتجهة للأراضي العثمانية وفود الباحثين الأثريين وهواة تحقيق التاريخ التوراتي ودارسي المواقع الأثرية، وسارت البعثات والإرساليات الأمريكية على نفس المنهاج كما أنشأ في لندن في وقت مبكر جداً عام١٨٠٤م هيئة منظمة لأعمال هذه البعثات والإرساليات عرفت بالمؤسسة الفلسطينية، وكان هدف هذه المؤسسة المعلن هو دراسة فلسطين من حيث التاريخ والجغرافيا والطبوغرافيا مع إيلاء اهتمام خاص بماضي المنطقة المرتبط بالعهد القديم، أما هدفها الخفي فكان «تثبيت وإثبات وجهة النظر المسيحية والمفهوم التوراتي للتاريخ

الفلسطيني وربطه بواقع الجغرافيا على الأرض لترسيخ فكرة أن فلسطين هي الأرض المقدسة مهد الكتاب المقدس، وبهذا يكون للإمبراطورية البريطانية حامية البروتستانتية حقوق تاريخية وشرعية على المستوى السياسي والديني في هذه الأرض».

وفي العام١٨٣٤م أصدر جيمس كارتريت سكرتير مجمع لندن للحفاظ على اليهود كتيباً صغيراً بعنوان «الكنائس العبرانية في القدس» شرح فيه الهدف من جوانب النشاط التي تمارسه مؤسسة فلسطين على الأرض، وذكر «أنه من المعروف ومنذ عصور عدة فإن العديد من الكنائس المسيحية لديها أفرع وأديرة وكنائس وأماكن عبادة ومؤسسات في القدس مثل الكنائس اليونانية والروم الأرثوذكس والكاثوليك والأرمن، إضافة أيضاً إلى أن القدس تمتلئ بالمساجد الإسلامية والمعابد اليهودية الخاصة بالسكان المحليين، ووحدها الكنائس الإصلاحية المسيحية سواء كانت بروتستانتية إنجيلية أو معمدانية هي الغربية في المدينة والمؤسسة تعمل على تغيير هذا الوضع «. لم يكن غريباً أن يصدر سكرتير المجمع اليهودي هذا الكتاب لأن الطموح الإنجليزي الأميريكي ذو الطابع الإمبريالي المتدثر بالبروتستانتية كان مدركاً أنه لابد له لتحقيق أهدافه من التعاون مع اليهود منذ البداية، وبدا هذا واضحاً في الورقة التي تقدم بها اللورد شافتسبوري لحكومته في معرض إقتراحه بإنشاء أبراشية موحدة في القدس عام ١٨٣٨م، فقد ذكر شافتسبوري في الورقة «أن الوجود البروتستاني القوي في القدس سوف يكون له أثر كبير وداعم للنفوذ البريطاني في مالطا والمشرق والساحل الأفريقي، وأنه من المهم جداً أن يواكب هذا الوجود إعلان للقنصلية البريطانية في القدس عن حمايتها لحقوق ومصالح الطائفة اليهودية، لأنه من بين جميع أطياف وطوائف مواطني الدولة العثمانية فإنه سيكون لليهود دور محوري وبالغ الأثر في توسيع النفوذ البريطاني في عموم الأرض العثمانية، كما أشار شافتسبوري لضرورة إقناع الألمان للانضواء تحت مظلة هذه الابراشية، وهو ماحدث بالفعل، ولم تكن مصادفة أن يتم اختيار القس مايكل سولمون ألكسندر ليكون أول رئيس لهذه الأبراشية، حيث أنه كان حاخاماً يهودياً قبل تحوله للبروتستانتية، ومواكبة لإنشاء الأبراشية تغير إسم مؤسسة فلسطين في العام١٨٤٠م ليصبح (المجمع الإنجيلي الأركيولوجي)، وأصبح هدفها صراحة هو إثبات صحة وواقعية الروايات وحدوث أحداثها على الأرض المقدسة.

شهدت نفس الفترة أيضاً وضع أساس ما يعرف بالفلسطينولوجي كعلم بحثي منهجي على يد الأمريكي إدوارد روبنسون الذي يعرف بأبو الجغرافيا الإنجيلية، فروبنسون الحاصل على أول درجة أستاذية في الأدب الإنجيلي في تاريخ العلم من كلية الوحدة للدراسات الدينية في مدينة نيويورك عام١٩٧٣م، قام برحلة إلى فلسطين في العام الذي تلا حصوله على درجته العلمية بصحبة قس إنجيلي هو إيلي سميث وكان الهدف من رحلته على حد قوله هو فصل الحقائق عن الخيالات والحديث عن القديم فيما

يختص بالمواقع والأماكن التي شهدت أحداث الكتاب المقدس، ونشر عن رحلته هذه دراسة في مجلة (المستودع الإنجيلي) تضمنت خلاصة أبحاثه واستنتاجاته عن مدينة القدس وبواباتها وحوائطها وامدادات الماء الواصلة إليها وطبيعتها الجغرافية، ورغم أنه لم يسمح له بدخول الحرم القدسي إلا أنه من خلال دراسته لبواباته الخارجية توصل إلى إستنتاج يعد سبباً أساسياً في النزاع الدائر حول الحرم بين الفلسطينيين واليهود حتى يومنا هذا، وهو أيضاً واحد من أهم أسباب النزاع حول الحرم الذي يجري حالياً، هذا الإستنتاج كان أن الحرم القدسي بني فوق الهيكل الثاني المقدس لليهود الذي بناه هيرود، فروبنسون الذي اكتشف قوساً دعامياً بالقرب من نهاية الحائط الغربي للحرم القدسي، مازال يعرف حتى الآن باسم قوس روبنسون Robinson Arch ، طابق هذا الاكتشاف مع قراءاته لكتابات المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس وتوصل إلى أن هذا القوس مرتبط بمجمع مباني جبل المعبد الذي أعاد بناءه الامبراطور هيرود العظيم، معززاً رأيه بمجموعة من الأدلة الملفقة وغير المنهجية والتي رأى روبنسون أنها كافية لإثبات أن السور الداخلي المحيط بالحرم بني في القرن الأول الميلادي، وان هذا يدل على أن موقع الحرم هو نفسه موقع الهيكل اليهودي، وقد حصل روبنسون على ميدالية ذهبية من الجمعية الجغرافية البريطانية عن هذا الاكتشاف، واحتفلت به الأوساط السياسية الأركيولوجية على حد سواء ورأت فيه فتحاً لمجال علمي جديد وأساساً لإثبات حقوق تاريخية على الأرض، وهكذا ووسط هذه الحفاوة الكبيرة ولدت أركيولوجيا الكتاب المقدس ودشنت فكرة الأرض المقدسة. هذا ولم تكن فرنسا بعيدة عن المشهد ولا عن الرغبة في أن يكون لها دور وحقوق على الأرض، على الأخص مع تاريخها الطويل المرتبط بالمنطقة منذ الحروب الصليبية، ولذلك نظمت الحكومة الفرنسية أول حملة رسمية للاستكشاف الأثري في القدس بقيادة الأثري فيلكس دو سولسي مدير متحف باريس للفنون والجندي السابق في الجيش الفرنسي، وكان ذلك عام١٨٥٠م وكان هدف الحملة هو اكتشاف قبر ملوك يهوذا العبرانيين، وسرعان ما أعلن دو سولسي عن اكتشافها بالفعل في المقابر اليهودية بالقدس والتي ما زالت تعرف بقبور الملوك وقد ثبت خطأ ادعاءه بعد ذلك، بالإضافة إلى أن يهود القدس تقدموا بشكوى للسلطات العثمانية يتهمون فيها دي سولسي بتدنيس قبورهم ومقدساتهم ما دفع العثمانيين لطرد البعثة التي باءت بالفشل الذريع، وحاول الفرنسيون مرة أخرى في العام١٨٦٣م لكنهم ووجهوا بنفس المعارضة من الطائفة اليهودية بإيعاز من القنصل البريطاني في القدس، لذلك شحنت البعثة ما أكتشفته لمتحف اللوفر في فرنسا وأوقفت أعمالها.

بعد هذا بفترة قصيرة وبمبادرة من الحكومة البريطانية بدعوى انقاذ القدس من حمى الملاريا التي كانت قد اجتاحتها وقضت على عدد كبير من السكان، وباتفاق مع الحكومة العثمانية أرسلت وزارة الحرب البريطانية الكابتن شارلز ويليام ويلسون لإجراء مسح جغرافي وطبوغرافي كامل للمدينة بدعوى

تحديد مصادر مياه الشرب ومدى تلوثها، وقد قدم ويلسون لحكومته خرائط طبوغرافية مفصلة للمدينة القديمة والمنطقة خارجها وللقلعة وكنيسة القلب الأقدس، والأهم من هذا أن السلطات سمحت له بمعاينة الممرات والقنوات تحت الحرم القدسي بحكم مهمته، كما أنه اكتشف قوساً مماثلاً لقوس روبنسون في الجهة الموازية له من سور الحرم سمي ب»قوس روبنسون»، وعرفته معاهد البحوث الأوروبية على أنه بوابة أخرى تؤدي إلى هيكل هيرود، وبالطبع لم تستخدم خرائط ويلسون في حل مشكة المياه في القدس لأنها ببساطة لم تكن معدة لهذا الغرض، بل كان الهدف منها هو إمداد صندوق استكشاف فلسطين الذي تأسس عام١٨٦٥م بخرائط وافية للمدينة لتساعد في أداء مهامه، وبالفعل بعد عودة ويلسون لإنجلترا انضم فوراً للصندوق وشغل منصب رئيسه في الفترة من (١٩٠١م وحتى ١٩٠٥م)، وقد كانت فكرة إنشاء صندوق لتنظيم وتمويل عمليات الاستكشاف في فلسطين هي الفكرة الثانية التي طرحت في ورقة شافتسبوري، ولكن لم يتم تنفيذها فعلياً إلا في العام١٨٦٥م.

كان شافتسبوري يرى وجوب تأسيس هيئة منظمة لإثبات التاريخ التوراتي لفلسطين من خلال تحويل قصص الكتاب المقدس لوقائع تاريخية مرتبطة بأماكن واقعية على الأرض، وهكذا كان صندوق استكشاف فلسطين بلورة لهذه الفكرة، وقد أوضح مجلس الصندوق في اجتماعه الأول أنه لا ينبغي أن يتم إدارته على أنه مؤسسة دينية، بل سوف تتم إدارته على أساس أنه هيئة علمية وجدت لتساعد الباحثين في علوم الكتاب المقدس عى دراسة عادات وسلوكيات وأوضاع أهالي الأراضي المقدسة مع إيلاء الاهتمام خاصة وبصيغة بروتستانتية بعيدة عن الخرافة بتوثيق الوجود اليهودي في هذه الأراضي منذ بدايته، وما يعنيه هذا من رعاية وتمويل البحوث والكشوفات الأثرية المتعلقة بروايات العهد القديم على وجه الخصوص، والأماكن التي حدثت فيها وأرجعت أسباب الاهتمام بروايات العهد القديم إلى أن المواقع المذكورة في العهد الجديد كانت كلها خاضعة لسيطرة الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، ولأن الطابع البحثي للبروتستانتية أكثر ميلاً لتحقيق الجذور الأولى للتاريخ ما قبل المسيحية، ولكن هدف الصندوق في الحقيقة منذ اليوم الأول هو إيجاد الدلائل التي تثبت ارتباط القدس على الأخص وفلسطين على العموم بمملكة أورشليم لإعطاء صبغة شرعية للمطامع التوسعية البريطانية كونها حامية وداعمة شعب الله المختار، وهذا ما أكده أسقف يورك في الكلمة التي ألقاها يوم افتتاح أول مؤتمر انعقد لصندوق استكشاف فلسطين أمام جمع من البروتستانت المتشددين والقوميين الإنجليز شكلوا هيئة الأعضاء المؤسسين الأوائل، قال الأسقف «إن هذه الأرض التي يطلق عليها اسم فلسطين تعود لكم ... وتعود لي أيضاً لأنها منحت في الأساس لأبو الإسرائيليين (إمشي في الأرض بطولها وعلى سعتها لأنني مانحك إياها)، لقد طلب منا أن نمشي في فلسطين بطولها وسعتها لأنها أعطيت لنا، لذلك فهي الأرض التي ينبغي أن ننظر لها بنفس العين ونفس الغيرة التي ننظر بها إلى بريطانيا ونحبها مثلها»، بهذه الجمل

المختصرة منح الأسقف الشرعية التاريخية والدينية للمطامع البريطانية في فلسطين، وقد رأى الصندوق ان جهود ويلسون السابق ذكرها في مسح القدس ستفيده كثيراً في المستقبل ولكنها بحاجة إلى الاستكمال لأنها وإن كانت قد أسهمت في تحديد المعالم على سطح الأرض لكنها لم توفر كثيراً من المعلومات عن القدس الحقيقية والتي ترقد تحت ثمانين متراً من التراب تحت السطح، ولذلك وبالتعاون مع قنصل بريطانيا في القدس نويل مور وبعد الحصول على موافقة عزت باشا حاكم القدس، أرسلت بعثة بقيادة الأثري تشارلز وارن لإعادة إستكشاف الأسوار المحيطة بالحرم، وزعم وارن أنه استطاع تحديد المسار الذي سلكته جيوش الملك داوود في طريقها للإستيلاء على القدس، ونشر عدة مجلدات عن استكشافاته في المدينة كان أهمها إحياء القدس وأرض الوعد الذي دعا فيه لتولي شركة الهند الشرقية البريطانية مسؤولية تنمية موارد فلسطين كمقدمة لتدريب المستوطنين اليهود على إدارة شؤونهم بعد تمكينهم من فلسطين تنفيذاً للوعد الوارد في الكتاب المقدس.

لقد ساهمت إكتشافات ويلسون ومؤلفات وارن في خلق رأي عام مؤيد لفكرة استعادة الأرض المقدسة، واستطاع صندوق استكشاف فلسطين من خلال هذا أن يجمع تمويلاً مالياً ضخماً استخدمه في مشروع مسح غرب فلسطين الموسع عام١٨٦٩م ، والذي أشرف عليه ويلسون ومساعده الألماني شيك الذي انضم هو أيضاً لصندوق استكشاف فلسطين وساهم في بناء مجسمات لمعالم المدينة الرئيسية، بالإضافة إلى كتابته لأكثر من (١٠٠) دراسة عما كان عليه شكل ومعمار المدينة في «العصر العبري»، نشرت جميعها في التقرير الربع سنوي لصندوق استكشاف فلسطين ومجلة المجمع الألماني لإستكشاف فلسطين، والجدير بالذكر أن صندوق استكشاف فلسطين لم يكن هو الهيئة الوحيدة التي تحاول إثبات ارتباط فلسطين الوثيق بالكتاب المقدس، فقد سعت كل القوى الإمبريالية ذات المطامع في الشرق الأدنى لنيل قصب السبق في هذا المضمار، فالصراع الإمبريالي بين الامبراطوريات الأوروبية كان قد بدا بالفعل يتخذ صبغة دينية لتغطي على المطامع الاستعمارية في تركة الإمبراطورية العثمانية المريضة والتي بدأ يظهر عليها أعراض الضعف والتحلل، ولذلك فقد نظمت هذه القوى جهود مئات التجار والمبشرين والمغامرين والعسكريين والمستكشفين الذين اتخذوا صفة العاملين في مجال الآثار، وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح هناك خمس مدارس للبحث الأثري هي: المدرسة البريطانية والإيطالية والفرنسية والألمانية والأميريكية، لكن المدرسة الإنجليزية كانت هي الأقوى بفضل قوة صندوق استكشاف فلسطين المدعوم من قبل الحكومة البريطانية مباشرة وقنصلها في القدس، وتبع إنشاء الصندوق في ١٨٦٥م إنشاء عدة هيئات أخرى ذات جنسيات متعددة مثل المجمع الأميريكي البريطاني لاستكشاف فلسطين ١٨٧٠م، والمجمع الألماني لاستكشاف فلسطين ١٨٧٨م، والمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية ١٩٠٠م، كان هدف كل هذه الصناديق واحد إثبات

يهودية التاريخ الفلسطيني وتحييد التاريخ الإسلامي للقدس وتصويره على أنه مرحلة عابرة في تاريخ المدينة، بحيث يقتصر مفهوم القدس في الذهن الغربي على أورشليم مدينة الهيكل وفلسطين على الأرض المقدسة.

في بداية تكوين هذه الصناديق والمجامع وبدء عملها على الأرض كانت السلطات العثمانية لا تتدخل كثيراً في أعمالها، وتتساهل في منحها التراخيص اللازمة حرصاً على مصالحها مع القوى والدول التي تتبعها هذه الهيئات اللهم إلا إذا تقدم السكان المحليين من المسلمين أو اليهود بشكاوى ضد هذه البعثات، وكان التدخل دائماً ما يكون محدودا لتهدئة السكان، ولكن وبحلول عام١٨٨٠م بدأ الوضع يتغير بتولي عثمان حمدي بك إدارة الآثار في اسطنبول، فقد بدأت الحكومة العثمانية تتنبه لما يحدث من تجريف للآثار، ولهذا فقد أصدر عثمان حمدي قراراً في العام١٨٨٣م تحول إلى قانون بتعيين مفوض رسمي عثماني للإشراف على البعثات الإستكشافية في فلسطين، وباعتبار أن أية آثار مكتشفة في الأراضي العثمانية أملاك خاصة بالدولة العلية وبوجوب حصول أية بعثة للإستكشاف على فرمان من السلطنة قبل مزاولة عملها، ورغم الفساد الذي كان بداخل أجهزة الدولة العثمانية وسهولة رشوة الموظفين العاملين بهذه الأجهزة، إلا أن هذه الإجراءات شكلت مشكلة كبرى للبعثات الاستكشافية الغربية العاملة في المنطقة، وبعد هذا القرار أصبحت كل القطع الأثرية يتم شحنها إلى المتحف السلطاني في اسطنبول، بعد هذا خطا عثمان حمدي خطوة أخرى بوضع خطة لنشر المتاحف في أقاليم الدولة العثمانية في إطار تعريف المواطنين بتاريخ دولتهم، وقد نصت خطته الأولى على إنشاء أربعة متاحف ضمن خطة إنشاء، وأربع مدارس إعدادية في أربعة أقاليم من الدولة، وكان ذلك لأن إدارة المتاحف تتبع وزارة التعليم، وكان على رأس هذه الخطة إنشاء متحف سلطاني في القدس لإدراك عثمان بك للنشاط القوي للبعثات الأجنبية في المدينة، ولم يكن المتحف السلطاني التابع للمدرسة المأمونية الإعدادية هو المحاولة الأولى لإنشاء متحف في مدينة القدس، فقد أسس جيمس فين القنصل البريطاني في القدس الفترة من (١٨٤٦م وحتى ١٨٦٣م) والمؤسس الأول لصندوق استكشاف فلسطين فيما بعد، متحفاً للآثار بكلية سان جورج، وأسس قنصل ألمانيا واحداً آخر عام١٨٧٦م، واستمر عمل هذا عدة اعوام قبل أن يتوقف لفترة ثم يعيده ألماني آخر هو جوستاف دالمان للعمل لفترة أخرى، بالإضافة إلى وجود العديد من المجموعات الخاصة والتي كان يملكها اجانب ويتيحونها للعرض مثل مجموعة بارون يوستينوف في يافا وبيعت هذه المجموعة بعد الحرب العالمية الأولى، ورغم كثرة هذه المجموعات إلا أنه من اللافت أنها كانت تعود بالأغلب لمقتنين مسيحيين، ولعل مجموعة صامويل رافيللي (١٨٦٧م- ١٩٢٣م) كانت هي المجموعة الوحيدة التي تعود ليهودي، كل هذه المحاولات كانت تدور حول فلسفة عرض تثبت التاريخ اليهودي لفلسطين اما هدف العثمانيين من إنشاء متحفهم فقد كان مواجهة التنقيب غير الشرعي

باسم الكتاب المقدس، وتقوية وحفظ مجموعات الآثار الإسلامية وإظهار التاريخ الإسلامي والعثماني للمدينة، لكن الإدارة العثمانية ممثلة في مفوض الآثار إسماعيل بك ورئيسه عثمان حمدي بك ارتكبوا خطأ فادحاً عندما سعوا إلى التعاقد مع ممثل صندوق استكشاف فلسطين في القدس فريدريك بليس، للاستعانة به في حفظ وتنسيق وترتيب الآثار الخاصة بالمتحف نظراً لقلة خبرة العثمانيين في القدس بهذه الأمور، فقد سعى فريدريك جونز بليس والذي كان تلميذاً للمستكشف الشهير فيلاندر بتري وإبناً للمبشر الشهير دانيال بليس مؤسس الكلية السورية البروتستانتية (الجامعة الأمريكية ببيروت حالياً)، ومكتشف تل السعفي وتل زكريا، وصاحب الاكتشافات التي أطلق عليها معالم جبل صهيون في غرب المدينة ومدينة داوود في شرقها، بالإضافة إلى العديد من الأبراج والحوائط التي نسبت إلى عصر الهيكل بعد قبوله المهمة لنيل ثقة العثمانيين للتحايل على القوانين العثمانية الجديدة بالأخص القانون الذي كان يفرض حظراً في نطاق المواقع الاستكشافية على الأجانب مسافته أربعة أميال، وقد سوغ له عمله في إدارة الآثار العثمانية أن يستثنى من هذا الحظر، بالإضافة إلى أن عمله هذا أعطاه صلاحية جمع وتصنيف وتوثيق كل المكتشفات الأثرية من منطلق رؤيته ورؤية صندوق استكشاف فلسطين وبما يتناسب مع الفلسفة الإمبريالية، حتى لو كانت المعروضات في حيازة العثمانيين، ولم يلاقي موقف بليس هذا موافقة أو قبولاً من إدارة صندوق الاستكشاف التي طالبته بالاستقالة بدعوى أن أية مساعدة في إنشاء متحف عثماني هي بمثابة تقويض لجهود الصندوق، ولذلك أرسل بليس خطاباً ذكر فيه أنه من المهم جداً الحفاظ على المقتنيات مصنفة في الخزائن والأكثر أهمية هو الحفاظ على صداقة الأتراك وكسب ثقتهم، وذكر بليس أنه استشار السيد ديكسون القنصل البريطاني وإن الأخير يشعر أنه «على بليس الوفاء بوعده للأتراك بترتيب الأشياء وعلى الأخص انهم يضعون أيديهم على المقتنيات بكل الأحوال»، ولم تتراجع إدارة الصندوق عن قرارها بعزل بليس الذي كان قد انتهى من تصنيف ٥٩٤ قطعة من مقتنيات المتحف وأرشفتها في كتالوج، نسخة من هذا الكتالوج مصحوبة بتقرير واف عن المعروضات أرسلت لإدارة صندوق الاستكشاف الرئيسية في لندن، ومازالت هذه النسخة موجودة في أرشيف الإدارة بالإضافة للنسخة الأصلية الخاصة بالمتحف العثماني والموجودة في أرشيف متحف روكفللر بالقدس حالياً، هذا وقد صنف بليس المعروضات في النسختين نسبة لتوقيت صناعتها من العصر اليهودي أي قبل العصر اليهودي وبعد العصر اليهودي، وهكذا بدا الهدف من توصيف المحتويات في الكتالوج واضحاً، وقد صنف بليس المعروضات في ستة صناديق كالآتي:

الصندوق رقم (١): يحتوي على ١٠١ قطعة من الخزف الذي يعود لمرحلة ما قبل «إسرائيل».

الصندوق رقم (٢): يحوي ١١٦ قطعة خزفية يهودية.

الصندوق رقم (٣): ١٤٨قطعة من الأواني التي تعود لعصر الدولة السلوقية.

الصندوق رقم(٤): يحتوي على مقتنيات من عصور متنوعة بالإضافة لتماثيل مصغرة من الخزف لشخوص وحيوانات وأدوات من البرونز والحديد والعظام والحجارة.

أما الصندوقين رقم (٥) و(٦): فيوجد بهما أحجار نصف كريمة وألواح طينية وعملات من عصور مختلفة وقطع زجاجية.

وكتب في نهاية الكتالوج إن لهذا المتحف طبيعة متميزة فهذه المجموعة المعروضة به ربما كانت أشمل مجموعة من الخزف على الإطلاق تمثل كل مراحل التاريخ الفلسطيني منذ عهد ماقبل إسرائيل وحتى نهايات العصر الروماني، إذاً فقد كان معيار ماقبل إسرائيل وما بعد إسرائيل هو الأساس لتحديد عمر المعروضات، وقد وافق إسماعيل بك على التصنيف الذي تضمنه الكتالوج وسعى في طباعته لدى المؤسسات المعنية ولكن لم يكتب لمساعيه النجاح، على أية حال فإن بليس استطاع أيضاً أن يقوم بعمل نسخ مطابقة لأغلب المعروضات بالتواطؤ مع إسماعيل بك وأرسلها عبر لبنان إلى اسطنبول لتشحن إلى لندن بالتحايل على القوانين العثمانية التي كانت تحظر ذلك، وسرب وسط هذه النسخ بعض القطع الأصلية، ولم تكتفي إدارة صندوق استكشاف فلسطين بهذا بل سعت لإنشاء متحف مواز للمتحف العثماني يركز على التاريخ الإنجيلي في مقرها أمام قلعة القدس، وذلك في إطار محاولات المؤسسات الأوروبية لإنشاء مؤسسات موازية لمؤسسات السلطة العثمانية في المدينة، بغرض إضعاف قبضة هذه السلطة عليها، واستمر المتحف في مقره من العام١٨٩٥م وحتى العام ١٨٩٩م ثم انتقل إلى كلية سان جورج حتى أغلق أبوابه عام١٩١٥م، أما المتحف العثماني والذي عرف أيضاً باسم متحف فلسطين الحكومي أو متحف هومايون فقد فتح أبوابه للزوار بالفعل في العام١٩٠١م، وبحلول العام١٩١٠م أصبح عدد القطع في مجموعة المتحف حوالي الستة آلاف قطعة وثقت في دفتر من نسختين أحداهما موجودة حالياً في وثائق متحف روكفلر بالقدس تحت مسمى «كتالوج متحف فلسطين للآثار قبل الحرب»، ونتج عن الزيادة الهائلة في عدد المقتنيات بهذا الشكل أن قررت إدارة المتاحف العثمانية إعتماد ميزانية لإنشاء متحف جديد في قلعة القدس لإستيعاب الزيادة في المعروضات، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت على وشك أن تبدأ لذلك فإن وزارة الحربية العثمانية اعترضت على استعمال القلعة كمقر للمتحف، بعد هذا نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م- ١٩١٧م) وتعطلت كل مشاريع تطوير وتوسعة المتحف وتم حفظ كل المعروضات بالإضافة إلى الاكتشافات الجديدة في خزائن وصناديق مغلقة في مخازن المدرسة المأمونية، وقد تضمنت هذه المحفوظات ما عثر عليه ريموند ويل في البعثة الاستكشافية التي رأسها عام١٩١٣م ومولها إدموند دي روتشيلد، والتي كانت تهدف لمحاولة الكشف عن مقابر ملوك اليهود ولكن عثرت على ما يعرف اليوم بإسم مخطوطات ثيودوتس والتي أشارت إلى وجود معبد يهودي في التلة الجنوبية الشرقية المطلة على القدس في عصر هيرود.

انتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الدولة العثمانية وانهيارها ووقوع القدس في قبضة القوات البريطانية وما تلا ذلك من إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، الأمر الذي عدته الأوساط الدينية الأوروبية والأوساط البحثية في مجال الآثار على حد سواء انتصارا مهما للحضارة الغربية، وبناء عليه فقد بدأ رونالد ستورز الحاكم العسكري البريطاني لمدينة القدس فور استلام مهام عمله في جمع المقتنيات التي تخص المتحف العثماني، وفي العاشرمن نوفمبر١٩١٨م بعث ستورز بتوجيه لمرؤوسيه بوجوب تخصيص عدد من الغرف في قلعة القدس لحماية وحفظ (١٢٠) صندوقاً احتوت مقتنيات متحف همايون العثماني وخبئت في انحاء المدينة لحمايتها من مخاطر الحرب، كما أسس هيئة عرفت بجمعية مناصري القدس وأوكل إليها مهمة حماية معالم المدينة المقدسة من آثار الحرب المدمرة، أيضاً شكل استورز مجلسا استشاريا رأسه المندوب السامي البريطاني بنفسه لتنظيم أعمال بعثات الاستكشاف في القدس والأراضي الفلسطينية، وقد ضم هذا المجلس ممثلين للمدارس الإنجليزية والفرنسية والأمريكية والإيطالية للإستكشاف الأثري بالإضافة لعضوية إثنين من أعيان المسلمين وأثنين من أعيان اليهود لتمثيل المجتمعين المسلم واليهودي وضمان عدم المساس بمقدسات أي من الطرفين، كما شكل إدارة للآثار قسمت لخمسة أقسام؛ قسم خاص بالمفتشين وقسم للتوثيق والمكتبات وقسم للمعامل بالإضافة إلى إستوديو للتصوير الفوتغرافي، أما القسم الأهم فكان القسم الخاص بمتحف الآثار الفلسطيني وأعلن أن هدف هذا المتحف الرئيس سيكون جمع القطع الأثرية المكتشفة في البلاد لعرضها لمنفعة وصالح المواطنين، أما هدفه الحقيقي فكان يتلخص في هذه الفقرة من الخطاب الذي أرسله جيمس مونتجمري رئيس مجلس إدارة المدرسة الأمريكية لبحوث الشرق بتاريخ ٢٧نوفمبر١٩١٨م مهنئاً الجنرال اللنبي بسقوط القدس ويقول فيه «إن أرض الأحلام أصبحت الآن على مشهد من الإنسانية كلها بعد تحررها من الحكم العثماني ودخولها في هيمنة الحضارة، الأمر الذي سيضمن لها المستقبل السياسي والاقتصادي الذي يأمل فيه كل من يهمه أمرها، وآمالنا وخططنا للبحوث الأثرية التي تهدف للكشف عن أحداث الماضي المبهر وجعل فلسطين أقرب للذهن الغربي من أي وقت مضى، هي جزء مهم من هذا المستقبل»، كان هدف المتحف هو تقريب فلسطين كأرض مقدسة للذهن الغربي، وكان الباحثون الغربيون يرون في فلسطين على حد قول جورج آدم سميث «أكبر متحف للتاريخ الكنسي وتاريخ العهد القديم في العالم»، أكبر وأهم من الفاتيكان معقل الكاثوليكية بمئات المرات، لذلك لم يكن مستغرباً ان يرى ستورز الحاكم العسكري نفسه في مهمة مقدسة كإمتداد لفرسان الحروب الصليبية، وأنه يحمل الرسالة السامية للبشرية والتي تقضي بإعادة المدينة بماضيها وحاضرها ومستقبلها لأحضان الرب تمهيداً لقيام مملكته على الأرض، ولعل هذا ما جعله يطلق أسماء فرسان الحملات الصليبية على الشوارع في البلدة الجديدة التي بدأ إعمارها خارج الأسوار، وسعى جاهداً لإعادة افتتاح المتحف في

قلعة القدس وعهد إلى الأمريكي جورج ألان أستاذ الهندسة بجامعة كولومبيا في نيويورك على وضع خطة طموحة لتحويل القلعة، ماعدا الجزء العثماني منها، إلى متحف كبير، واستعان بمجموعة مساندة القدس على تحويل هذه الخطة إلى واقع على الأرض وامامهم هدف واضح هو إحياء تاريخ العهد القديم كما يقول ستورز «إن مزامير داوود وسحابات من شهود غير مرئيين تلهم عملنا هذا، إنهم بناة أسوار القدس .... الذين جعلوا من المستطاع السير نحو صهيون»، ولكن التكلفة الهائلة لتحويل القلعة باكملها لمتحف وقفت عائقاً أمام إتمام المشروع ولهذا فقد تم استبداله بإقامة متحف في بيت كان يسمى «واي هاوس» وكان يقع على الطريق المسمى الآن بطريق المتحف، واكتملت اعدادات هذا المبنى في العام ١٩٢١م ليضم متحفاً للمعروضات تضمن مقتنيات متحف همايون ومقرا للمدرسة الإنجليزية للآثار ومكتبة تخص المدرسة الأمريكية للبحوث الأثرية بالإضافة لمقر إدارة الاثار التابعة لحكومة الانتداب، وهذا المبنى هو نفسه الذي استخدم فيما بعد كمقر لقيادة القوات الأردنية بعد إعلان قيام دولة إسرائيل وحتى العام١٩٦٧م، حيث هدمته قوات «الهاجانا» بالكامل في أعقاب الحرب وبني مكانه نصب تذكاري للجنود الإسرائيليين، ولم يعد باق منه اليوم سوى بوابته الخارجية الضخمة. بعد اكتمال ترتيب المتحف أقيم احتفال كبير لافتتاحه رسمياً في ٣١أكتوبر١٩٢١م بحضور المندوب السامي البريطاني هيربرت صامويل وزوجته، حيث قال صامويل في كلمة الإفتتاح «إن إنشاء هذا المتحف كان بمثابة المهمة المقدسة لتخليص روح الماضي من خلال الحفاظ على الآثار الموجودة فيه»، بعد هذا بثلاثة أعوام نشر أول كتالوج يتضمن ويوثق مقتنيات متحف فلسطين للآثار والذي واكب إنشاؤه العصر الذهبي للتنقيب عن الآثار في مناطق الأرض المقدسة، فقد تعاونت إدارة الآثار التابعة للإنتداب مع صندوق استكشاف فلسطين ومجموعات من المستكشفين المحليين وجهات أخرى للقيام بأكثر من (١٤٠) حملة استكشافية رسمية في الفترة من ١٩٢٣م وحتى ١٩٢٥م لاستكشاف العديد من الابنية والبوابات وانظمة الري، التي قيل أنها مطابقة تماماً للوصف التوراتي ولما كان عليه شكل العمارة في أرض صهيون، كما تم اكتشاف بوابة ضخمة ونظام مائي بالقرب من القلعة وبوابة يافا وعرفت هذه الآثار بأنها أجزاء من قصر الملك هيرود، بالإضافة لإكتشاف ما يعرف باسم الحائط الثالث بالقرب من بوابة دمشق، وبالطبع نتج عن هذه البعثات الاستكشافية تضخم مجموعة المتحف الذي سرعان ما ضاق بما يحويه وظهرت الحاجة لتوسعته، وهنا ثار مقترح نقله إلى القلعة مرة أخرى ولكن هذا المقترح ووجه بمعارضة جون جراستانج مدير إدارة الآثار في خطاب أرسله للورد صامويل في ٢٠يوليو١٩٢٣م أوضح فيه استحالة نقل المتحف للقلعة تقنياً وإدارياً، بالإضافة إلى أن نقله للقلعة لن يحل مشكلة الحاجة إلى توسعته إن اقتضت الضرورة.

هذا الاعتراض هو الذي أثار للمرة الأولى فكرة نقل المتحف خارج بوابات المدينة القديمة ووقع

الاختيار على موقع يعرف باسم كرم الشيخ نسبة إلى الشيخ الخليلي مفتي القدس، الذي كان قد بنى عليه مصيفاً مازال موجوداً ضمن مباني المتحف في العام١٧١١م ويعد من المباني الأولى التي انشأت خارج القدس، ويقع المبنى على تلة عالية شمال شرقي المدينة تشرف على الحرم القدسي أو الهيكل، على حد زعم الصهاينة، وتطل أيضاً على جبل الزيتون أقدس المواقع اليهودية، ولعل هذا ما يفسر محاولات الصندوق القومي اليهودي لشرائه منذ العام١٩٠٦م ليكون مقراً تأسيسياً للجامعة العبرية في القدس ومعهد بتسلئيل للفنون ووضعه في خطط إنشاء متحف من قبل سلطة الإنتداب منذ العام١٩١٩م حتى قبل أن تظهر مشكلة ضيق متحف واي هاوس وقبل البدء في العمل فيه، ولكن المشكلات المالية حالت دون شراء ال٣٢ دونم التي سوف يقام عليهم المتحف من ورثة الشيخ الخليلي، وهنا جاءت زيارة عالم المصريات الأميريكي الأشهر ومؤسس معهد شيكاجو للدراسات الشرقية جيمس هنري برستيد في العام١٩٢٥م لتحل مشكلة تمويل عملية شراء وإقامة المتحف في كرم الخليلي، برستيد المؤمن بالمفهوم البروتستانتي الإمبريالي على الطراز الأميريكي والذي ينص على أن الأكثر علماً وقدرة من حقه الاستفادة من ثروات الآخرين الأقل تحضراً في مقابل إلحاقهم بركب الحضارة الإنسانية مادام يعطيهم الحق في تقرير مصيرهم بعد ذلك، وكان يرى في إحتلال فلسطين من قبل البريطانيين الفرصة الأفضل للعلم لدراسة إنجازات الحضارة الأولى وهذا هو ما كتبه في خطابه الأول لراعيه المالي اليهودي جون ديفيد روكفلر الصغير عندما طلب منه تمويل معهد للدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو وكان هذا الطلب في ١٦فبراير١٩١٩م، كتب برستيد «إن كل منطقة الشرق الأوسط قد تخلصت من الحكم التركي للمرة الأولى في التاريخ ستصبح منطقة مهد الديانات والحضارة مسرحاَ مفتوحاً للدراسات والأبحاث العلمية وهذه هي الفرصة الأعظم في تاريخ العلم التي تتأتى لدراسة الإنسان وما أنجزه»، وقد اقتنع روكفلر بما قاله برستيد وتبرع لإنشاء المعهد بمبلغ ضخم، كما اقتنع بعد ذلك عندما طلب منه برستيد التبرع لإنشاء متحف يليق بالأرض المقدسة وتبرع بمليونين من الدولارات لهذا الغرض، ما أمن لسلطة الانتداب المال لشراء الأرض والبدء في أعمال الإنشاء، وعهد إلى رئيس إدارة الأشغال في حكومة الانتداب أوستن سانت بارب هاريسون بتصميم المتحف وقد صمم هاريسون للمتحف طرازاً كولونيالياً يعبر عن التفوق الغربي من خلال المزج بين تقاليد العمارة الغربية وبعض مميزات العمارة الشرقية المميزة لمدينة القدس القديمة، والتي زعم أنها مستمدة من جذور إسرائيلية، واستوحى عمارة المكتبة من العصور الوسطى عصور الحملات الصليبية على فلسطين، أما الأسقف فحملت روح عصر النهضة الأوروبي، وزين كل هذا بأعمال خشبية ذات طابع هندسي إسلامي، وايضاً استوحى من هذا الطابع المداخل والشبابيك والقباب والأقواس، كما استعان بفنان أرمني لصناعة البلاط وعهد للبريطاني إريك جيل بنحت عشرة رسومات على جدار الساحة الداخلية للمتحف ممثلاً للحضارات التي تعاقبت

على فلسطين، والجدارية التي في المدخل الرئيسي تصف التقاء أسيا بأفريقيا، وقد وضع حجر الأساس للمتحف بتاريخ ١٠يونيو١٩٣٠م بإسم متحف الآثار الفلسطيني واستغرقت عملية البناء خمسة اعوام بعد العثور على مقابر إسلامية في موقع البناء، ولكن لم يتم افتتاحه رسمياً أمام الزوار إلا في ١٣يناير العام١٩٣٨م، وقد ضم المتحف مجموعة متحف همايون بالإضافة إلى المجموعات التي عثر عليها من عمليات التنقيب خلال فترة الانتداب، وفي مايو١٩٤٨ قبل مدة قصيرة جداً من إعلان بريطانيا إنهاء فترة انتدابها في فلسطين، أسس المندوب السامي البريطاني مجلس أمناء دولي للإشراف على المتحف يتكون من ١٢عضواً من كبار علماء الآثار من كافة أنحاء المعمورة، وقد وافق الملك حسين على إشراف هذه الإدارة على متحف الآثار الفلسطيني كما أصبح يسمى رسمياً حتى العام١٩٦٦م عندما أعلن في خطاب العرش الذي ألقاه أمام مجلس الأعيان عن تعريب المتحف، وبعد وقوع حرب ١٩٦٧م واحتلال القدس استولت اسرائيل على المتحف بعد معارك ضارية دارت حوله وضمته لإدارتين، الأولى هي إدارة متحف إسرائيل في القدس والثانية هي هيئة الآثار الإسرائيلية لتشرف على المخازن والأرشيف والوثائق والمكتبة، وقد قامت السلطات الإسرائيلية بإطلاق اسم روكفلر على المتحف الذي من المفترض أنه يكتسب حالياً وضعاً دولياً لأنه في منطقة احتلال رغم رفض إسرائيل الاعتراف بذلك، وقد اقدمت سلطات الاحتلال الاسرائيلي على نقل مكتبة المتحف من مقره إلى متحف إسرائيل في الشطر الغربي من القدس بعد حصولها على إذن من المحكمة العليا الاسرائيلية في محاولة لطمس مصدر المعروضات الموجودة في المتحف، كل من زار المتحف الذي يحوي أثارا تعود للعصور الحجرية الأولى يلفت نظره أن أسلوب العرض يقدم كل المعروضات كدلائل على التاريخ الإسرائيلي، وكل العصور على أنها عصور وجدت على أرض إسرائيل، ومعلومات المتحف تشير إلى أن الكنعانيين كانوا وافدين واستوطنوا سواحل إسرائيل في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ورغم احتواء المتحف على عتبات مزخرفة من كنيسة القيامة تعود للعصور الصليبية وأيضاً أجزاء من الحشوات الخشبية للمسجد الأقصى وآثار من قصر هشام في أريحا وأضرحة تعود للعصر الروماني ومومياوات فرعونية، إلا أن كل هذا يشرح في إطار ما يسمى بمراحل التاريخ الإسرائيلي.

تروج إسرائيل اليوم لمتحف روكفلر باعتباره روحاً للزمان والمكان، والحقيقة أن هذه الروح اخترعت لتربط زماناً وهمياً أسطورياً وتحوله إلى واقع جرى وارتبط بمكان لا يوجد دليل على علاقته المباشرة به كما تصورها هذه الأساطير، لقد أحيا استيلاء الصهاينة على متحف روكفللر في العام١٩٦٧م بالإضافة إلى حصولهم على مخطوطات البحر الميت التي كانت محفوظه فيه روحاً يهودية عنصرية ترى أن الرب قد أتاح لهم هذا النصر لاستكمال مهمتهم المقدسة كشعب الله المختار على الأرض، وهذا هو الذي دفعهم لنقل المقر الرئيسي لإدارة الآثار الإسرائيلية للمتحف، وقد منحتهم سيطرتهم على عدد

هائل من المواقع التوراتية نفس الشعور، ولهذا فقد استكمل الآثاريون اليهود ما قام به الامبرياليون قلبهم من ترسيخ أسطورة الأرض المقدسة في أذهان الغربيين، ومتحف روكفلر حالياً هو تعبير حي عن الجهود التي بذلت في صناعة هذه الأسطورة من بدايات القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا.

متحف روكفلر، هو المتحف الأول الذي أسس لتدعيم فكرة الأرض المقدسة أرض شعب إسرائيل شعب الله المختار أصحاب الحق الأكبر والعلاقة الأقوى ب»اورشليم» مدينة داوود المقدسة وكل ما يحيط بها، لذلك كان قرار لجنة تراث اليونسكو موجعاً للسلطات الإسرائيلية لأن الكيان الصهيوني قام على فكرة وهذا القرار يقوض الفكرة من أساسها.

1-Laura C. Robson –Archeology and Mission: The British Presence in Nineteenth Century Jerusalem –Bort Land University Press 1995.

2-Laura C. H. Lughlin –Archeology and Bible – Routledge press -New York 2000.

3- Himmet Taskomur & Beatrice St Laurent - The Imperial Museum of Antiquities in Jerusalem (1890 – 1930) An alternative Narrative – Brigwater stat university virtual commons.

4- Fredrick E. Greensphan- Essays in honor of zion zevit –Oregon .Cascade Books – USA 2017.

5- A. C. Armstrong Andson – The Historical geography of the Holy Land – George Adam Smith –New York 1901.

6-Geoff Embeling –Pioneers to the past –American Archeologists in the Middle East (1919 – 1920) – The Oriental Institute –Chicago – USA 2010 .

7- Rachel S. Hallote & Alexander H. Joffe – The Politics of Israeli Archeology: Between Nationalism and science in the age of second Republic – Israel Studies Magazine, Volume7, No3.

8-Niel Asher Siberman – Digging for God and County (Exploration, Archeology and the secret struggle for the Holy Land) – New York University 1982.

9- Albert Glock – Archeology as Cultural Survival the future of the Palestinian past – Journal of Palestine Studies Vol.23- No3 – Spring 1994.

خمسون عامًا على النّكسة:

اليمين الصّهيوني يترعرع.. والوحش الاستيطاني يغرس أنيابه في كلّ مكان

عزيز العصا*

مقدّمة

لا شكّ في أن نتائج الحرب الشّرسة الّتي بوغت بها الشّعب الفلسطينيّ في الفترة (١٩٤٧-١٩٤٩)، والّتي أُطلق عليها «النّكبة»، كانت المفصل الرئيس في حياة الشّعب الفلسطينيّ، وهي نقطة ارتكازٍ؛ كانت قبلها فلسطين وشعبها وتاريخها وحضارتها، وبعدها تحوّل الوطن إلى قضيّة، وبقيت قضيّته هي القضيّة التّحرّريّة الوحيدة المعلّقة من قرنٍ إلى قرنٍ، في العالم كلّه((١)). فعلى المستوى الدّيمغرافي هناك من قال بطرد وتهجير وتشريد نحو مليون فلسطينيّ (أو ٩٠٠,٠٠٠) إبّان النّكبة أصبحوا لاجئين وبلا أيّ أمل للعودة، بينما تقول مصادر أخرى: إنّ عددهم ثلاثة أرباع المليون((٢))، وبقي من الفلسطينيّين على أرضهم بعد عمليّات التّطهير، حوالي (١٥٦,٠٠٠) نسمة((٣)). وأُتبع ذلك كله باستحواذ الدولة الوليدة على كل ما أنتجه الشعب الفلسطيني في حدود تلك الجغرافيا، ووضع تلك الثروة الضخمة،

* باحث من فلسطين

١ الحوت، بيان (٢٠١٢). المؤرخون الفلسطينيون والنكبة. مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد ٢٣، عدد ٨٩. ص ص: ٥١-٧١.

٢ الخالدي، حسين فخري (٢٠١٤). ومضى عهد المجاملات... مذكرات -بيروت ١٩٤٩-. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن. المجلد الأول. ط١. الجزء الثالث، ص: ١٨٠-١٨١.

٣ مركز الدراسات المعاصرة (٢٠٠٦). المجتمع العربي في الداخل الفلسطيني. أم الفحم. فلسطين. ص: ٩.

المنهوبة بالقوة، لصالح الاستيطان الكولونيالي اليهودي (لليهود فقط)((٤)).

والحالة هذه، فقد وضعت هذه الدولة في حساباتها أن تفرض نفسها بالقوة في المنطقة، فأتبعت النكبة بعدة حروب مع الدول العربية – منفردة وجماعية- شكلت هزات ارتدادية متصلة بالنكبة التي هي الزلزال المدمّر الرئيس.

سوف نتناول في هذه الورقة، الحرب الثالثة، في سلسلة الحروب العربية-الاسرائيلية، التي حصلت في العام ١٩٦٧، والتي أطلق عليها «النكسة». تلك الحرب التي حدثت بعد عشرين عامًا من النكبة، وبعد عقد من الزمن من العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦. ولأننا في أجواء مرور خمسين سنة على تلك «النكسة»، فإنه من المهم التوقف عندها من حيث: مقدماتها، نتائجها وما نجم عنها من ثوابت ومتغيرات على المستويات السياسية والاقتصادية والديموغرافية، ودور ذلك كله في الصراع على هوية الأرض والإنسان التي أصبحت في عين العاصفة التي تثيرها الدولة الإسرائيلية؛ تلك الدولة التي لم تتوقف داخل حدودها التي سيطرت عليها إبّان النكبة، وإنما سيطرت على كامل فلسطين وأجزاء من الجوار العربي.

النّكسة: المقدّمات والنّتائج

منذ العام ١٩٤٨ أخذت ارتدادات النكبة تضرب في عدة اتجاهات، وأخذت التيارات الماركسية والقومية والوطنية تنمو وتترعرع بين أبناء الشعب العربي وفي نفوس أبنائه بشكل عام، وفي أوساط الفلسطينيين بشكل خاص، وعزز ذلك ظهور الزعيم العربي المصري جمال عبد الناصر، ففي العام ١٩٥٧ بدأت تتكون تجربة جديدة في العمل السياسي، عرفت فيما بعد بإسم «فتح»((٥))، ثم بدأت النواة الصلبة لحركة فتح العمل الواسع في أوساط الشعب الفلسطيني((٦)). وشهد العام ١٩٦٤ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية بقرار عربي وبقيادة فلسطينية. وفي ١٩٦٥/١/١؛ أي بعد نحو ستة أشهر من إنشاء م. ت. ف انطلقت «رصاصة فتح الأولى»، واستمرت فتح في كفاحها المسلح على الرغم من الطوق الذي كانت تفرضه عليها الدول المجاورة لإسرائيل.

في الخامس من حزيران من العام ١٩٦٧، كانت الحرب العربية-الإسرائيلية، التي تمت في ظروف لم تكن فيها الدول العربية الحدودية مع فلسطين جاهزة لها، بل إنها كانت في ذروة التمزق والخلافات والحروب

٤ ديفيس، أوري (٢٠١٥). إسرائيل الأبارتهايدية «وجذورها في الصهيونية السياسية. دار الشروق للنشر والتوزيع. رام الله. فلسطين. ط١. ص: ٢٩-٣٠، ٥٦-٥٨، ٨٧.

٥ علّوش، ناجي (د. ت.). فكر حركة المقاومة الفلسطينية ١٩٤٨-١٩٨٧. ص: ٢٩.

٦ عبد الرحمن، أحمد (٢٠١٦). عرفات: حياته كما أرادها. دار الحرية للثقافة الوطنية. البيرة. فلسطين. ص: ٢٠.

الإذاعية، فيما بينها، ودون توفير الحد الأدنى من عوامل الصمود والمواجهة((٧)). ومن جانب العدو، كان يسوسه دهاة السياسة والعسكرية، تمكنوا، عبر وسيط أمريكي، من إقناع المصريين أن الحرب بعيدة الوقوع((٨)). ويؤكد ابتلاع القيادة المصرية لهذه الخدعة، ما يقوله شفيق الحوت: «اللغز الذي لم أستطع تفسيره حتى الآن، هو كيفية وقوع عبد الناصر في فخ حرب ١٩٦٧، وهو الذي قال حرفيًا، قبل ثلاثة شهور أنه لن يخوضها إلا لينتصر، وأنه بحاجة إلى ثلاثة أعوام لتوفير شروط هذا النصر»((٩)).

إن الحديث عن نتائج «النكسة»، وما تبعها من أحداث ذات صلة، يحتاج إلى مساحات واسعة، كما أن العديد من الباحثين، وبمناسبة الذكرى الخمسين لهذه الهزيمة النكراء، قاموا بتناول محاور محددة للحديث عنها، بشيء من التوسع. ولكننا، في هذه الورقة، سوف نقوم بإجمال انعكاسات ونتائج النكسة على عدد من المحاور المتصلة ببعضها البعض، وهي:

أولًا: النّكسة والنّظام الرّسمي العربيّ والدّور الفلسطينيّ

صحيح أن م. ت. ف. انطلقت بقرار عربي بغية «تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره»، فتم تشكيل ألوية لجيش التحرير الفلسطيني توزعت في مصر وسوريا والعراق، إلا أن النظام الرسمي العربي لم يكن ليفكر في قتال إسرائيل ومواجهتها في ساحات القتال.

وعندما وقعت النكسة في العام ١٩٦٧، كانت النتيجة المأساوية في استكمال احتلال فلسطين ووقوعها «كاملة» تحت السيطرة الإسرائيلية المطلقة، إلى جانب احتلال أجزاء من دول مصر وسوريا ولبنان. فأحدث ذلك الوضع المفاجئ خللًا كبيرًا في المفاهيم، وأربك الخطاب الاعلامي والسياسي للنظام الرسمي العربي الذي انكشفت سوءته أمام الجماهير العربية، فانزاحت الجماهير (العربية) لمن يرفض الواقع الجديد ويتحداه ويمارس الكفاح المسلّح؛ فانطلقت التنظيمات الفلسطينية المسلّحة تقاتل وهي مستندة إلى الجماهير العربية الغاضبة، التي شكلت حاضنة آمنة لتلك التنظيمات، ووصل الأمر بها إلى المشاركة الفاعلة في القتال إلى جانبها.

من أكثر النماذج الحية لهذا الحال معركة الكرامة في آذار/ ١٩٦٨، التي انتهت باندحار الجيش الإسرائيلي المعتدي على الأراضي الأردنية بتلاحم فلسطيني-أردني رائع. ثم انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في نفس

٧ الخطيب، أنور (١٩٨٩). مع صلاح الدين في القدس - تأملات وذكريات. دار الطباعة العربية. القدس. ص: ٧٨، ٦٩، ٤٧

٨ الخطيب، أنور (١٩٨٩). مع صلاح الدين في القدس - تأملات وذكريات. دار الطباعة العربية. القدس. ص: ٧٣، ٨٥.

٩ الحوت، شفيق (٢٠١٥). بين الوطن والمنفى - من يافا بدأ المشوار. منظمة التحرير الفلسطينية. رام الله. فلسطين. ط٢. ص: ١٦١.

العام، فانبثق عنه قراران هامان، هما: الأول: انتخاب لجنة تنفيذية(١٠) انتخبت «ياسر عرفات» رئيسًا لها، والثاني: تعديل ميثاق المنظمة، بدءًا من إسمه، «الميثاق القومي» الذي صار «الميثاق الوطني»(١١).

هكذا، أخذ الفلسطينيون زمام الأمور في الصراع المباشر مع إسرائيل، وحتى مع النظام الرسمي العربي -كالنظام السوري والقوى المرتبطة. فخاض الفلسطينيون معارك الكر والفر دفاعًا عن وجودهم وكرامتهم الوطنية، في تل الزعتر والليطاني والجنوب اللبناني وصبرا وشاتيلا، ومعركة طرابلس الانشقاقية في العام ١٩٨٣، وما نجم عن ذلك من تشتيت للقوات الفلسطينية المقاتلة وإبعادها إلى تونس وليبيا والجزائر واليمن... الخ، بعيدًا عن ساحات القتال الملاصقة للوطن الفلسطيني.

وأما على مستوى الوطن العربي، فقد نجم عن النكسة أن ترعرعت «إسرائيل» وأصبحت هي المرجعية الرئيسة الأقوى في المنطقة، بالنسبة للغرب الاستعماري. ومما ساعد على تحويل «إسرائيل» إلى «غول» في المنطقة؛ يخيف العرب ويحظى بإعجاب الغرب، أن الأنظمة العربية تسيطر على شعوبها بالإرهاب والتخويف، وتحرم إنسانها من حرية التفكير والاعتناق، ما شكّل حاجزًا عاليًا بين تلك الجماهير والأنظمة التي ترزح تحت نيرها، ما جعل الحال العربي في نظر الأعداء «أشبه ببرج ورقي مؤقت»؛ يعيش حالة انعدام الاستقرار.

وفي أجواء «التفتيت» والضعف الذي تعاني منه الأمة العربية، التي تشكل العمق الاستراتيجي للشعب الفلسطيني وثورته، أخذت إسرائيل ومن يصطف معها يخططون لمواجهة الشعب الفلسطيني، الذي أثبت حضوره في معارك الصراع الطويلة مع الاحتلال، بخاصة الانتفاضة الأولى -انتفاضة الحجر- التي أربكت الدولة العبرية وجعلتها تعيد حساباتها في التعامل مع الشعب الفلسطيني، فكانت اتفاقية أوسلو التي أرادت منها القيادة الفلسطينية تثبيت الوجود الفلسطيني على الأرض وصولًا إلى الدولة وعاصمتها القدس، وأرادت منها «إسرائيل» الاستحواذ على الشعب الفلسطيني وترويضه وإخراجه من معادلة الصراع في المنطقة، وجعله مجرد كتلة بشرية تشكل الساحة الخلفية للاقتصاد الإسرائيلي.

عندما انكشفت حقيقة اللعبة-الخدعة الإسرائيلية-الأمريكية أمام القائد التاريخي ياسر عرفات، انطلقت الانتفاضة الثانية -انتفاضة الأقصى- في أواخر العام ٢٠٠٠، التي قدم فيها الشعب الفلسطيني، بقيادة ياسر عرفات، آلاف الشهداء والأسرى والجرحى، وانتهت باستشهاده. وفي العام ٢٠٠٧ حصلت حالة انقسام الشعب الفلسطيني بين غزة والضفة انقسامًا ينذر بسوء يصعب

١٠ تألفت هذه اللجنة من ياسر عرفات؛ خالد الحسن؛ أحمد الشهابي؛ حامد أبو ستة؛ إبراهيم بكر؛ محمد يوسف النجار؛ كمال ناصر؛ ياسر عمرو؛ يوسف البرجي؛ فاروق القدومي؛ عبد المجيد لرئاسة الصندوق القومي.

١١ الحوت، شفيق (٢٠١٥)، بين الوطن والمنفى- من يافا بدأ المشوار. منظمة التحرير الفلسطينية. رام الله. فلسطين. ط: ٢. ص: ١١٤-١١٥.

تقديره، وصاحب ذلك باعتلاء اليمين الإسرائيلي سدة الحكم، المتحالف مع اليمين الأمريكي الحاكم أيضًا؛ ما يعني القضاء المبرم على أي إمكانية للوصول إلى الدولة الفلسطينية المنشودة.

ثانيًا: النّكسة والمشروع الاستيطانيّ – الأثر العمرانيّ-

لقد أسست النكسة في العام ١٩٦٧ لهيمنة الفكر الديني الصهيوني في أبعاده الميتافيزيقية على المستوطنين في الضفة الغربية(١٢). فشهد العقد الأول لما بعد النكسة، وهو عقد حكمت فيه حكومات عمالية، إقامة مستوطنات، حرصت على توزيعها على المدن والمواقع الفلسطينية التي يعتقد المستعمرون أنها مقدسة لهم وهي القدس والخليل ونابلس بدرجة أقل. وتسعى «إسرائيل» من وراء مشروعها الاستعماري إلى تحقيق مجموعة من الأهداف الاستراتيجية، منها((١٣)):

تفريغ الأرض الفلسطينية من سكانها وإحلال اليهود مكانهم.

إيجاد واقع جديد يؤدي إلى محاصرة التجمعات السكانية الفلسطينية (الحضرية والقروية) بالمستعمرات التي تشكل أحزمة أمنية متقدمة؛ تقوم بالدفاع عن الدولة العبرية وتشكل عمقًا استراتيجيا لها.

منع قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

المساعدة على تهويد مدينتي القدس والخليل.

أُتبع ذلك، في العام ٢٠٠٢، بإقامة جدار الفصل

١٢ مصطفى، مهند (٢٠١٣). رؤية المستوطنين للصراع: من غوش إيمونيم إلى البيت اليهودي. المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ١٤.

١٣ الحروب، صقر (٢٠١٤). جغرافية فلسطين: دراسة في تنوّع المكان وعبقرية الإنسان. وزارة الثقافة الفلسطينية. الطبعة الأولى. ص: ٣٨٢.

العنصري، بطول ٤٢٠ كيلومترًا، والذي اقتطع ١٣٪ من مساحة الضفة الغربية، وسيتبعه جدار آخر بطول ٢٩٢ كيلومترًا، ليقتطع ١٣٪ أخرى من مساحة الضفة الغربية.

وأما بالنسبة للوضع الاستيطاني في قطاع غزة، فقد تم إنشاء أكثر من عشرين مستوطنة، وفي صيف ٢٠٠٥ تم إجلاء تلك المستوطنات، بعد أن طرح شارون على الرئيس الأمريكي جورج بوش خطة (فك الارتباط مع الفلسطينيين)، الخاصة بجلاء المستوطنين عن قطاع غزة، وعن أربع مستوطنات في شمال الضفة الغربية(١٤).

ويبين الشكل التدرج في أعداد قاطني المستعمرات الإسرائيلية من اليهود، في كل من الضفة الغربية والقدس، منذ النكسة في العام ١٩٦٧ وحتى نهاية العام ٢٠١٦((١٥)):

ويتضح أنه منذ اتفاقية أوسلو وحتى اللحظة، تقوم «إسرائيل» بحملة استيطانية جنونية تهدف فرض واقع جديد يمنع إمكانية إقامة دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران من العام ١٩٦٤ -حدود ما قبل النكسة-، ومما يعزز ذلك عزل مناطق (أ) و(ب) وفق ما تم تسميتها في اتفاقيات أوسلو وما بعدها من اتفاقيات، عن بعضها البعض، في حين أن هناك تواصلًا جغرافيًا بين جميع المناطق التي تم تصنيفها (مناطق ج)، وهذا ما يعني أن هناك نيّة جادة لدى سلطات الاحتلال لضم المناطق (ج) ضاربة بذلك عرض الحائط كل ما تم التوقيع عليه من اتفاقيات((١٦)).

خلاصة القول: بلغ مجموع عدد المستوطنين أكثر من نصف مليون مستعمر، يتوزعون على (١٢١) مستعمرة، منتشرة على معظم مساحة الضفة الغربية، بحيث لا نكاد نعثر على عشرة كيلومترات متواصلة، في أي بقعة من بقاع الضفة الغربية، من دون وجود مستعمرة. وعلاوة على المستعمرات، هناك أكثر من (١٠٠) نواة مستعمرة قابلة للنمو والتوسع، ويرتبط توسعها بقرارات إسرائيلية متعلقة بالتوازنات الحزبية الداخلية من جهة، وبطبيعة العلاقات مع الإدارة الأميركية من جهة ثانية، وبالضغط على السلطة الفلسطينية من جهة ثالثة. وهذه مسألة خضعت لتلك التجاذبات كافة خلال الأعوام الأخيرة. أضف إلى ذلك شبكة الطرق، ومما تهدف إليه: تأمين طرق سريعة تربط جميع مستعمرات الضفة الغربية بإسرائيل مباشرة، مع التقليل، بقدر الإمكان، من إمكان مرورها في التجمعات السكانية الفلسطينية، تشجيع الاستيطان بحيث لا تبعد أي مستعمرة عن إسرائيل أكثر من ٢٠-٢٥ دقيقة

14 http://info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=4135

15 https://sptnkne.ws/d7zh

١٦ أنظر: الأطرش (٢٠١٤)، ص: ٢٣.

بالسيارة، وعزل التجمعات السكانية الفلسطينية، وحصر هذه التجمعات ضمن جزر متناثرة ((١٧)).

خلاصة القول أن المستوطنات الإسرائيلية تستحوذ على أراضي الفلسطينيين، وعلى المخزون الاستراتيجي من المياه الجوفية والموارد الطبيعية الأخرى((١٨))، في حين يُترك للفلسطينيين مجال إدارة شئونهم اليومية في إطار حكم ذاتي مقيّد، لا سيما وأن اتفاقية أوسلو واتفاقيات السلام أـو التسويات مع كل من مصر والأردن لم تشِر إلى أن موضوع الاستيطان عقبة كأداء أمام أي تقدم في المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين((١٩)).

ثالثًا: النّكسة وخطاب فلسطينيّي النّكبة (١٩٤٨)

جمعت الحرب في العام ١٩٦٧ الشعب الفلسطيني تحت سقف واحد، واستمرت المعاناة الاجتماعية من للجميع؛ إذ إنَّ حوالي ثلث فلسطينيي ١٩٤٨ أقارب من الدرجة الأولى في المناطق التي احتلت في العام ١٩٦٧ (الضفة وغزة)، كما أنها أسقطت أمل فلسطينيو ١٩٤٨ الذي بنوه على الأنظمة العربية في إنهاء معاناتهم، بالإضافة إلى أنها الحرب دفعت الفصائل المسلحة إلى الأعلى فتسلمت منظمة التحرير الفلسطينية، وقادها ياسر عرفات الذي شكل رمز الهوية الفلسطينية. ولذلك، كان لهذه الحرب أثرٌ بالغٌ على فلسطينيي ١٩٤٨، يمكن تلخيصه فيما يأتي(٢٠):

زيادة وعيهم لفهم طبيعة الصراع كصراع للسيطرة على الأرض وتفريغها من المواطنين العرب.

توجههم نحو التفتيش عن الهوية الجماعية (الفلسطينية)، والنشاط الجماعي لضمان المزيد من القوة والتأثير.

زادت من الاستعداد للتحدي، وأخذ الأمور بالأيدي، حتى لو وصل إلى العنف السياسي.

أما بشأن الخطاب الجمعي السياسي بين فلسطينيي ١٩٤٨، والذي كان متمركزًا حول قيم الوطن والمقاومة والتحرر، الذي كان يقوده المثقف-الشاعر، فإنه بعد النكسة بدأ ينزاح، تدريجيًا، باتجاه حيز المواطنة والدولة، ويعود هذا التحول إلى ظهور المثقف الأكاديمي نتيجة التحاق الفلسطينيين في الجامعات الإسرائيلية التي نقلت المثقف إلى مساءلة الهوية بعد أن عمل سابقًا على بلورتها

---

١٧ الجعبة، نظمي (٢٠١٢). الاستيطان الكولونيالي في الضفة الغربية والقدس: قراءة في أبعاد وأشكال السيطرة على الأرض. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد (٩١). ص: ٥٩-٨٣.

١٨ الأطرش، أحمد (٢٠١٤). جغرافيا الاستيطان: كيف يتم تحويل الضفة الغربية إلى كنتونات؟ المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٥٣.

١٩ منصور، جوني (٢٠١٤). إسرائيل والاستيطان: الثابت والمتحول في مواقف الحكومات والأحزاب والرأي العام (١٩٦٧-٢٠١٣). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٨٦-٨٧.

٢٠ اغبارية، مسعود (٢٠٠٧). حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧، وتأثيرها على العرب الفلسطينيين. مجلة قضايا إسرائيلية. عدد (٢٦). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٧٨-٨٥.

وإنتاجها، وتحول «إسرائيل» من مرحلة التأسيس إلى المأسسة، حتى أنها أصبحت بعد العام ١٩٦٧ «قوة إقليمية»، ما أدى إلى قبول العرب كجزء من مكونات المواطنة، والذي شجّع العرب على التعامل مع المواطنة بمزيد من الجدّيّة. أضف إلى ذلك النتائج الاستراتيجية للنكسة وما رافقها من تآكل تدريجي لحلم التحرر، فأضحت نكسة العام ١٩٦٧ هي النكبة الحقيقية؛ لأنها ثبتت نتائج نكبة العام ١٩٤٨ التي كان يُنظر لها على أنها «نكسة» عابرة(٢١).

أما «اتفاقية أوسلو» فقد حظيت بدعم كبير من معظم فئات فلسطينيي-٤٨؛ فهناك من رأى فيها خطوة أولى نحو إقامة دولة فلسطينية في الضفة وغزة. لكن مفاوضات السلام تلك لم تتطرق إليهم، وإسرائيل رأت فيهم شأناً داخلياً. وخلال الفترة ٢٠٠٠-تاريخه، والتي تخللها انتفاضة الأقصى التي قدم فيها فلسطينيو-٤٨ (١٣) شهيدًا، تنبه فلسطينيو-٤٨ إلى الخطط التي تستهدف هويتهم ووجودهم((٢٢)).

مقابل هذا كله، نجد أن فلسطينيي-٤٨، وفي ظل تآكل العمق العربي وحتى الفلسطيني، قاموا بتوحيد الصفوف، وتشكيل «القائمة المشتركة»؛ لخوض انتخابات الكينيست ، لكي تفتح لهم آفاقا سياسية عريضة، الأمر الذي مكّنهم من الحصول على (١٣)مقعدًا. وبهذا الفوز، شكّل فلسطينيو-٤٨ ثالث أقوى معسكر في الكنيست، ما سيساعدهم في إعادة تنظيم مؤسساتهم الجماعية، وزيادة إمكانيات المناورة من خلال بناء شراكات عينية مع أحزاب وأعضاء كنيست لتمرير قوانين معينة وعرقلة أخرى، وتبني مشروع يوظف طاقات المجتمع العربي للتأثير على المجتمع الإسرائيلي. إضافة إلى تحولها إلى عنوان للتخاطب من قبل مؤسسات أو جهات دولية((٢٣)).

رابعًا: أثر النّكسة على القدس: الجغرافيا والدّيموغرافيا

منذ النكسة في العام ١٩٦٧، أخذت سلطات الاحتلال تغير في معالم المدينة وفي ملامحها الجغرافية والديمغرافية والتاريخية، وفق عملية «تهويد» مبرمجة، فبعد مضي أربعة أيام على بدء الاحتلال، هدمت القوات الإسرائيلية حي «المغاربة «العربي في البلدة القديمة، كما بدأت بإصدار قرار يقضي بضم القدس

٢١ غانم، هنيدة (٢٠١٣). ما بين النكبة والنكسة: تحولات الخطاب الجمعي- السياسي للمثقفين الفلسطينيين في الداخل. مجلة قضايا إسرائيلية. عدد (٥٠). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٦٠-٧٥.

٢٢ ورد ذلك أثناء عرض التقرير الاستراتيجي (٢٠١٤)، بتاريخ: ٧ نيسان، ٢٠١٥. انظر الرابط التالي الذي أمكن الوصول إليه في (٢٠١٥/٠٦/٠٦):

فعاليات/ارشيف-الفعاليات/المشهد-الإسرائيلي-عام2014-//http://www.madarcenter.org

هذا ما أشار إليه «أيمن عودة» في مداخلته في مؤتمر: عرض التقرير الاستراتيجي (2014)، بتاريخ: 7 نيسان، 2015. 23 :(انظر الرابط التالي الذي أمكن الوصول إليه في (2015/06/06

فعاليات/ارشيف-الفعاليات/المشهد-الإسرائيلي-عام2014-//http://www.madarcenter.org

الشرقية واتخاذها عاصمة لها في العام ١٩٦٧م. كما تم عزل القدس عن الضفة الغربية اقتصاديا وإداريًا، وبعد ذلك عمدت سلطات الاحتلال إلى تطويق المدينة بالمستوطنات وتفريغها من سكانها العرب(٢٤).

كما انتظمت سلطات الاحتلال في تنفيذ سياسات «الإحلال والمحو» التي اتبعتها سلطات الاحتلال، منذ النكسة في العام ١٩٦٧، في أربعة محاور متشابكة ومترابطة ومتفاعلة بهدف «تهويد القدس»(٢٥):

المحور الديمغرافي: من خلال العمل على إعادة تشكيل المشهد الحضاري للقدس الشرقية؛ بغية منحه طابعًا يهوديًا-توراتيًا.

المحور الرمزي: من خلال اعتبارها حيزًا خاليًا وأراضيَ جرداء، وتنميط المقدسيين باعتبارهم ذوات غير مؤهلة للفعل السياسي، غالبًا.

المحور القانوني: من خلال اعتبار المقدسيين «ساكنين دائمين» مقابل فئة «المواطنين الدائمين» لليهودي والإسرائيلي.

المحور الأمني-الجسدي: من خلال اعتبار الجسد المقدسي مصدرًا للخطر والفوضى الديموغرافية والأمنية، الذي تتم مواجهته بالإبعاد والإزالة عن الحيز، واعتبار الفلسطينيين «مارقين»؛ أي خارجين عن الجماعة.

ويأتي ذلك كله على قاعدة أن القدس ليست محتلة، بل محررة، وأن اليهود يعودون إلى مدينتهم، واعتبار أي وجود آخر خلال الألفي العام من انتظار «اليهود» للعودة هو وجود عابر وغير محسوب. وللتخلص من الخطر الديموغرافي، جاءت مضاعفة مساحة القدس الشرقية حتى وصلت الـ (٧٢,٠٠٠) دونم، باتباع استراتيجية «أكبر مساحة بأقل عرب، والتي نجم عنها ضم (٢٨) قرية، منها قرى من بيت جالا وبيت لحم، وأسكنت فيها (٢٠٠,٠٠٠) يهودي، فأصبحت نسبة اليهود ٤٣٪ من سكان القدس الشرقية. والآن، وصلت نسبة اليهود إلى ٦٥٪ من مجموع سكان القدس (وعدد سكانها ٧٦٠,٠٠٠ نسمة) مقابل ٣٥٪ للسكان الفلسطينيين. وهناك تخطيط من قبل بلدية الاحتلال لرفع عدد سكان القدس «الموحّدة»، حتى العام ٢٠٢٠، إلى (٩٥٠,٠٠٠) ساكن، يشكل الفلسطينيون ٤٠٪ منهم و٦٠٪ من اليهود، إلا أن هناك تنبؤاتٍ تشير إلى أن الفلسطينيين سيكونون هم الجماعة السكانية الأكبر في القدس، وهذا ما يعتبرونه «العفريت الديموغرافي»؛ الذي يشكل عاملَي رعب

٢٤ وزارة العمل الفلسطينية (٢٠١٤). المستوطنات الإسرائيلية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية على الأراضي الفلسطينية وقطاع العمل. أنظر الرابط (تم الوصول إليه في ٢٠١٧/٠٧/٢٩): http://info.wafa.ps/pdf/i_s_e_s_e_p.pdf

٢٥ غانم، هنيدة (٢٠١٣). ما بين النكبة والنكسة: تحولات الخطاب الجمعي- السياسي للمثقفين الفلسطينيين في الداخل. مجلة قضايا إسرائيلية. عدد (٤٧). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٩٤-١٠٨.

وخطر حقيقيّين على الوجود اليهودي في القدس(٢٦).

وأما بشأن الأرض والسكان في القدس، وعبر الخمسين عامًا منذ العام ١٩٦٧ حتى تاريخه، فإن ما أبقي عليه للمقدسيين من المساحة الجديدة للقدس (الـ ٧٢,٠٠٠ دونم)، لا يتجاوز ١٣٪ (حوالي ١٠,٠٠٠ دونم)، وتم مصادرة ما تبقى من هذه المساحة بواقع ٥٢٪ صنّفها الاحتلال مناطق خضراء، و٣٥٪ لصالح المستعمرات، التي عددها –حتى اللحظة- (١٥) مستعمرة تتوزع وفق ما هو مبين في الجدول أدناه، بحسب الكتلة الاستعمارية والهدف الاستراتيجي من إقامتها((٢٧)).

ختامًا، لقد جاء هذه العجالة حول النكسة في العام ١٩٦٧؛ أي بعد مرور خمسين عامًا على وقوعها، لتحقيق أمرين أساسيْن: وأما الأول، فهو تسليط الضوء على ظروفها ونتائجها. وأما الثاني، فهو استخلاص العبر وإعادة قراءة التاريخ، بما يمكننا من إجراء مراجعات نقدية صريحة وواضحة، بعيدًا عن الخطابات الثورية أو «التثويرية» التي سادت في حقبة معينة، بهدف «'إلهاب» الجماهير وطمأنتهم إلى النصر «المؤزر!» القادم، في حين كان العدو يعد العدة والخطط المحكمة المستندة إلى القوة وامتلاك أحدث أنواع الأسلحة، وإلى جيش مدرّب ومؤهّل لاستخدام تلك الأسلحة بدقة وبكفاءة عالية.

لقد كانت النتيجة أن تعرضت الجيوش «العربية» إلى ضربة قوية وخاطفة وسريعة التأثير على ميدان القتال، أدت إلى هزّ معنويات تلك الجيوش، وإشاعة الفوضى في صفوفها، ما جعل «إسرائيل» تسيطر على ما تبقى من فلسطين، وعلى أجزاء من الدول العربية المشاركة في الحرب، فانتقلت من دولة صغيرة في محيط يهددها بخطر المحو، إلى دولة إقليمية تشكل نافذة للغرب الاستعماري، ليس على المنطقة وحسب، وإنما على القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وأفريقيا) كما أريد لها وفق المخطط الاستعماري للمنطقة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والذي تم تنفيذه فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، التي قضت على الدولة العثمانية، وجعلت تركتها في مهب رياح المنتصرين من صانعي الدولة العبرية وحلفائها الدائمين.

من هنا، تأتي أهمية المراجعة الدائمة لهذا الحدث التاريخي، ولغيره من الأحداث، لكي تتمكن الأجيال المختلفة (بخاصة من الفلسطينيين) من تلمّس خطواتها نحو المستقبل في تعاملها مع الدولة العبرية التي يقوم على قيادتها والتحكم في دفّة قاربها من يصدق فيهم قوله تعالى: «أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم» (البقرة: ١٠٠).

---

٢٦ غانم، هنيدة (٢٠١٣). ما بين النكبة والنكسة: تحولات الخطاب الجمعي- السياسي للمثقفين الفلسطينيين في الداخل. مجلة قضايا إسرائيلية. عدد (٤٧). المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٩٤-١٠٨.

٢٧ الجعبة، نظمي (٢٠١٧). القدس: خمسون عاماً من الاحتلال. مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد (١١١). ص: ١٤٠-١٥٩.

معهد السياسات والاستراتيجية
المركز المتنوع «هيرتسليا» المؤتمر السابع عشر – ٢٠١٧

عليان الهندي *

عقد في معهد «السياسات والاستراتيجية» التابع للمركز المتنوع «هيرتسليا»، المؤتمر السابع عشر ،من تاريخ ٢٠-٢٠١٧/٦/٢٢، الذي حمل عنوان «الخروج من الظل». وشارك في المؤتمر ١٨٥ شخصية من إسرائيل وخارجها، كان من بينهم شخصيات أكاديمية وسياسية وعسكرية من أوروبا والولايات المتحدة وآسيا، وغيرها من الدول. وكما في الأعوام السابقة، كان الحضور العربي ضعيفا، لكنه مهم من الناحية الرمزية، حيث شاركت شخصيات أكاديمية من قطر والأردن، في حين اقتصر الحضور الفلسطيني على عضو اللجنة المركزية السابق لحركة فتح الدكتور نبيل شعث.

قدم في المؤتمر ستة عشر بحثا من أهمها: خمسون عاما على حرب الأيام الستة، وبعد خمسين عاما على حرب الأيام الستة – هل يمكن التوصل لسلام مع الفلسطينيين، واستطلاع «هيرتسليا» السنوي بخصوص الحصانة الوطنية. كذلك قدم تسعة عشر عرضاً Powrpoint من أهمها: التسوية الإقليمية وهل هي ممكنة وكيف ومع من، ومواجهة إسرائيل لعدة جبهات قتالية سويا، والعنصر الاجتماعي في الحصانة الوطنية، وغيرها.

ألقيت في المؤتمر ٤٣ محاضرة لمختلف أطياف النخب الإسرائيلية الحاكمة في المجالات الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وشارك في هذه المحاضرات، شخصيات سياسية وعسكرية وأكاديمية من جميع التخصصات من أهمهم: رئيس دولة إسرائيل رؤبين ريفلين ووزير الدفاع أفيغدور ليبرمان ورئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك وأييليت شاكيد وغدعون ساعر

* كاتب وباحث في الشؤون الإسرائيلية – فلسطين

وأقطاب المعارضة الرئيسية مثل إسحاق هيرتسوغ ويئير لبيد، وغيرهم. وعن الجانب العسكري حاضر رئيس الأركان الإسرائيلي غادي أيزنكوت ورئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الجنرال هرتسي هليفي وقائد سلاح الجو أمير إيشيل، وغيرهم، في حين لم يمثل الفلسطينيون من أراضي عام ١٩٤٨ بهذا المؤتمر كما في السابق.

اهتمت الأبحاث وعروض Powrpointوالمحاضرات بالحديث عن المشاكل والتهديدات التي تواجه دولة إسرائيل وطرق مواجهتها مثل: التهديد الإيراني الذي وضعه الباحثون والمحاضرون على سلم أولويات

المؤتمر، وإمكانية اندلاع حرب على عدة جبهات مع تنظيمات وليس دول، وعن الفرص الايجابية المتوفرة لإسرائيل مثل إمكانية عقد تحالفات إقليمية على أساس المصالح، وإمكانية التوصل لحل للقضية الفلسطينية في المدى المنظور.

ونظرا لتعدد موضوعات المؤتمر وكثرتها، سأركز في هذه القراءة على تلخيص مقترحات الحل مع الفلسطينيين المطروحة في أوراق العمل وعروض Powrpoint، وعلى الاستطلاع السنوي لمعرفة التوجهات العامة اليهودية في دولة إسرائيل اتجاه القضية الفلسطينية، وألخّص ما طرح بالمحاضرات عن الشأن الفلسطيني، باستثناء ترجمة محاضرة رئيس جهاز الاستخبارات العامة الجنرال هيرتسي هليفي، لأنها تعبّر بشكل أو بأخر عن المواقف الإسرائيلية الرسمية المختلفة من القضايا المطروحة في الساحتين –الفلسطينية والعربية.

وأخيرا وعند الصياغة، استخدمت نفس المصطلحات الإسرائيلية، مثل يهودا والسامرة وشرقي القدس، وغيرها من المصطلحات، بهدف طرح الموقف كما هو من دون أية إضافات خاصة مني. مع العلم أنني أرفض بشكل مطلق تلك المصطلحات لأنها تعبر عن رواية يهودية كاذبة ومزورة.

الاستطلاع

عبر ٥٠٪ من المستطلعة آراؤهم من اليهود عن انعدام إمكانية التوصل لسلام في المستقبل المنظور، في حين ذكر ٣٪ منهم فقط، أن إمكانية التوصل لسلام مرتفعة جدا. وذكر ٥٥٪ ممن شملهم الاستطلاع من اليهود أنهم يؤيدون التوصل لحل قائم على خيار دولتين لشعبين، في حين أيد ٢١٪ من اليهود إقامة دولة واحدة. وعبر ٥٥٪ من اليهود عن تشاؤمهم من إمكانية نجاح الرئيس الأميركي دونالد ترامب بتقدم مسيرة السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

وفيما يتعلق بالتسوية الاقليمية عبر ٦٠٪ من اليهود الذين شملهم استطلاع مجموعة «يسرائيل

يوزميت» عن تأييدهم لتسوية إقليمية، وأيد ١٧٪ التوصل لتسوية قائمة على الفصل أحادي الجانب، بينما أيد ١٠٪ التوصل لتسوية ثنائية في المسار الإسرائيلي-الفلسطيني، في حين ذكر ٦٪ أنهم يرغبون بضم «يهودا والسامرة». وفيما يتعلق بالثقة في الفلسطينيين، عبر ٢٦٪ من اليهود عن ثقتهم بهم، مقارنة بارتفاع نسبة الثقة بالرئيس المصري (٦٥٪) والملك الأردني (٦١٪) وملك السعودية (٥٢٪) وزعماء بقية دول الخليج (٥٣٪)

مقترحات إسرائيلية لحل القضية الفلسطينية

التسوية الإقليمية(١)

المتغيرات الجديدة: التقاء المصالح المشتركة بين إسرائيل والعالم العربي، وإصرار الولايات المتحدة على خلق واقع جديد، وإعادة تبني المبادرة العربية من قبل الجامعة العربية.

التطورات في الشرق الأوسط: انتشار الخطر الإيراني- الشيعي الممتد من إيران حتى لبنان مرورا بالعراق وسوريا، وامتداده لليمن وللمناطق الشرقية من المملكة العربية السعودية، الارهاب السني المنتشر في العراق وسوريا والسعودية ولبنان والأردن ومصر واليمن، وغيرها من الدول.

دول ذات مصالح مشتركة لمواجهة التهديدات الإيرانية: إسرائيل والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية ودولة الامارات العربية والأردن، وهي أطراف التسوية الإقليمية.

المعيقات أمام التعاون الاقليمي: عدم التقدم في الشأن الفلسطيني.

الصفقة الاقليمية: حل دولتين لشعبين يسبقه:

تطبيع العلاقات الإسرائيلية-العربية.

إقامة تحالف أمني إقليمي.

اتفاق شراكة اقتصادية إقليمية.

تغيير إطار الاتفاقيات في النزاع الإسرائيلي–الفلسطيني: التوصل لصفقة ثنائية مع الفلسطينيين تتضمن: تنازلات ومخاطر إسرائيلية إقليمية، مقابل ثمن يدفعه الفلسطينيين. وفي نفس الوقت،

---

١ . يسرائيل يوزميت، لوبي إسرائيلي غير حزبي ،يضم نشطاء من اليمين واليسار. اشترك في صياغة مقترح "الحل الإقليمي" الجنرال عاموس غلعاد ورئيس وزراء بريطانيا السابق طوني بلير والسيد كوبي هلبرمان والدكتورة كلير سبنسر. قدمت خلاصة المقترح في مؤتمر هيرتسليا السابع عشر.

التوصل لصفقة إقليمية، تتضمن تنازلات ومخاطر إسرائيلية مقابل تطبيع الدول العربية علاقاتها مع إسرائيل، والتوصل لتسويات أمنية إقليمية، وثمن يدفعه الفلسطينيون.

يتم التوصل لصفقة من خلال:

أفق سياسي: يتم من خلاله ايجاد إطار ملزم للمفاوضات مع الفلسطينيين.

بوادر حسن نية: تتضمن خطوات متبادلة نحو تطبيع العلاقات بين إسرائيل وبين الدول العربية، وإيجاد أجواء مناسبة للمفاوضات، وخلق ثقة متبادلة.

تسويات فعالة تتضمن:

العمل على استقرار قطاع غزة.

تطوير اقتصاد الضفة الغربية.

توسيع التنسيق الأمني الاقليمي

تسويات انتقالية:

دولة فلسطينية قيد الانشاء.

اتفاق تجارة وتبادل البعثات الدبلوماسية مع العرب.

التسوية النهائية: تتضمن:

إقامة دولة فلسطينية.

تطبيع العلاقات الإسرائيلية العربية.

التوقيع على اتفاق أمني إقليمي.

التوقيع على اتفاق اقتصادي إقليمي.

نضوج: يتطلب التوصل إلى اتفاق نهائي مرحلة انضاج، تتم بواسطة النمو الاقتصادي في إسرائيل والمنطقة، وتحسين الوضع الأمني لإسرائيل.

جزيرة الفصل في قطاع غزة(٢)

الهدف: ايجاد حل للواقع السيء الذي يعيشه الفلسطينيون، وإعفاء إسرائيل ،التي تعتبر الحبل السري لقطاع غزة، من أية مسؤولية عنه، رغم انسحابها منه منذ أكثر من عقد. كما تهدف الجزيرة إلى منح سكان القطاع مخرجاً انسانياً وتواصلاً اقتصادياً مع العالم الخارجي، يؤدي في نهاية المطاف، إلى انفصال نهائي لقطاع غزة عن إسرائيل، من دون تعريض أمنها للخطر. وباستثناء حل المشاكل الانسانية لقطاع غزة، تساهم الجزيرة في زيادة التعاون الدولي والاقليمي.

موقع الجزيرة :تقع الجزيرة على بعد ٤-٥ كم عن شاطئ قطاع غزة، وتبلغ مساحتها ٥٣٤٠ دونم، وهي منطقة غير قابلة للسكن. وستربط الجزيرة بجسر ثابت، يقطع في المنتصف بجسر كهربائي في حالات الطوارئ، بهدف قطع الجزيرة عن قطاع غزة.

مكونات الجزيرة :

أرصفة لتفريغ البضائع وتخزينها وتحميلها.

رصيف لنقل الركاب.

محطة كهرباء وأخرى لتحلية مياه الشرب.

محطات لتخزين الغاز وتوزيعه.

تخصيص منطقة معينة لإنشاء منتجع سياحي.

إنشاء مراكز إمداد.

مساحة لبناء مطار مستقبلي فيها.

مساحة معينة للفحص والرقابة والتفتيش

الإدارة والرقابة: إدارة الجزيرة ومراقبتها تتم من البحر(٣)

الأمن: تحافظ إسرائيل على الأمن الشامل للجزيرة ومحيطها، وقد أُبلغت الحكومة الإسرائيلية من قبل قيادات الجيش أن بمقدورهم توفير الأمن الشامل لمحيط الجزيرة. وفيما يتعلق بالأمن على

---

٢ [3]. أعدت الخطة من قبل وزير الاتصالات الإسرائيلي يسرائيل كاتس، بهدف القطع الكامل لقطاع غزة عن إسرائيل، مع احتفاظها بالأمن الشامل وبحق الرقابة والتفتيش.

٣ [4] ربما يقصد الوزير كاتس أن الفلسطينيين في قطاع غزة لن يكونوا جزءا من إدارتها، بل عمالاً وموظفين فقط لاغير، مثل المعابر على نهر الأردن أيام التزام إسرائيل بالاتفاقيات الموقعة مع الفلسطينيين. مشروع جزيرة الفصل مدعوم تقريبا من كل أعضاء الحكومة والجيش.

الجزيرة نفسها، فتتولاه قوات دولية، إضافة لمهام أخرى مثل الرقابة والتفتيش على الجزيرة نفسها.

التمويل: يتم تمويل بناء الجزيرة، إما بواسطة تبرعات دولية، بما في ذلك تبرعات من قبل دول اقليمية، أو بواسطة استثمار من قبل شركات استثمار كبرى، مثل الاستثمارات الهولندية والصينية لبناء مينائين جديدين في إسرائيل.

القضية الفلسطينية في حوارات وكلمات المتحدثين

الجنرال هيرتسي هليفي - رئيس جهاز الاستخبارات الإسرائيلي

ذكر الجنرال هيرتسي هليفي في تقييمه الشامل للأوضاع في المنطقة أن المصالح ،وليس الأيديولوجيا، هي محرك عالم اليوم. وأضاف، أن الدول العظمى منشغلة اليوم بمشكلتين أساسيتين هما :الصراع الأوروبي-الروسي على أوكرانيا، والصراع المحتدم بين الصين والولايات المتحدة للسيطرة على بحر الصين الجنوبي. والدول المذكورة منشغلة بحوار بينها للتوصل لقائمة مصالح مشتركة في منطقة الشرق الأوسط، وليس بالمشاكل المندلعة فيه.

وأضاف أن المنطقة تشهد أربعة ظواهر دينية سياسية هي:

الدول السنية البراغماتية، التي بدأت بالتبلور في معسكر، يحددون فيه الأصدقاء والأعداء، والخلاف مع قطر يثبت ذلك.

المحور الشيعي، يضم إيران وحزب الله –المهدد الإساسي لاستقرار المنطقة ودولة إسرائيل، وستزداد خطورة إيران بعد عشرة أعوام عندما تملك القدرات النووية العسكرية. ويتوزع النفوذ الإيراني في العراق وسوريا ولبنان، وتحاول التأثير بما يجري في باب المندب، وإذا أراد العالم منطقة شرق أوسط من دون حروب، فعليه عقد تحالفات لوقف تمدد النفوذ الإيراني.

الاخوان المسلمون، الذين فقدوا في السنوات الأخيرة الكثير من قوتهم، وحماس هي الأكثر تضررا من وراء ذلك. ويتغذى تيار الأخوان المسلمين كثيرا من الفقر المنتشر في الشرق الأوسط، وهو قاعدته الطبيعية.

اللابسون السواد - داعش والقاعدة وأخواتها، بدأت قوتهم بالتراجع، ويفقدون المناطق التي يسيطرون عليها. وتعتبر التنظيمات المذكورة مشكلة دولية تتم مواجتها بالقوة العسكرية، التي حققت نتائج وانتصارات ضدها. ولن تنتهي هذه التظيمات حتى لو تحقق النصر الشامل عليها، لكنها ستلائم نفسها مع الواقع الجديد.

يهودا والسامرة: وذكر هليفي إن إسرائيل واجهت الإرهاب الفلسطيني خلال العامين الماضيين بعمليات استخبارية وتنفيذية ومدنية -من قبل الإدارة المدنية. كذلك نجحت إسرائيل في الفصل بين الإرهاب وبين السكان والحياة الطبيعية. وأشار أن الإجراءات الإسرائيلية، لا تقضي على الإرهاب، لكنها تبعد الفوضى والمشاكل.

قطاع غزة: وذكر أن إسرائيل أدخلت لغزة أكثر من سبعة ملايين طن من الاسمنت والحديد ومواد البناء (برج خليفة كلف نصف مليون طن من مواد البناء)، لم تذهب كلها لصالح سكان القطاع، حيث لم تبن المدارس والمستشفيات. والسؤال هو: كل ما أُدخل لقطاع غزة صب في مصلحة السكان. الجواب لا. وأشار هليفي، أن لا مصلحة إسرائيلية بحدوث أزمة إنسانية في القطاع، وتحب أن تكون هناك حياة، وندرك أن اليأس يدفع الناس إلى أماكن غير جيدة، ومشكلة الكهرباء تعبر عن ذلك بشكل كبير. وفيما يتعلق بمشكلة الكهرباء، اوضح هليفي، أن حماس تستخدمها لإنارة الأنفاق وليس لإنارة قطاع غزة. وطلب هليفي من الجميع العمل على تحسين الأوضاع في قطاع غزة خوفا من الانفجار. وقال هليفي، علينا تخيير حركة حماس، إما تحسين وضع قطاع غزة وبين البحث عن القوة الواجب مواجهتها. وفي نفس الوقت، على الجمهور في قطاع غزة وضع حماس امام مسؤولياتها، ويوضح لها ماذا يريد. كما تستطيع الدول السنية، وفي مقدمتها مصر، المساهمة في تحسين الأوضاع من خلال منع تسليح حركة حماس.

الإرهاب: وحول الإرهاب ذكر هليفي، أنه يزدهر وسيبقى، بواسطة الدولة الإسلامية وطالبان والقاعدة وأخواتها المنتشرة في كل أنحاء العالم. وقال أن تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» خسر العراق وتتراجع قوته في سوريا، والضغط الكبير على الموصل والرقة سيولد موجة إرهاب قوية في الغرب. وقال أن الارهاب يتغير، لكنه لن يختفي، وتطور مختلف الدول وسائل لمواجهة الارهاب الذي ينفجر بين الفينة والأخرى. وعلاوة على ذلك، يمزق الارهاب العقد الاجتماعي بين الدولة والمواطن، ويزرع الخوف ويشوش الحياة العامة ويفرض منطق عدم وجود الأمان، ولذلك يجب منعه من تحقيق أهدافه.

مؤسسة الدولة: ونوه هليفي أن مؤسسة الدولة في منطقة الشرق الأوسط تتراجع، وتنظيم الدولة الإسلامية «داعش» مسح الحدود بين سوريا والعراق بواسطة الجرافات، ونتيجة للحرب الدائرة انفجرت أزمة هجرة وإرهاب خاصة في أوروبا.

مكانة المؤسسات الدولية: لم تعد المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات ،التي أسست بعد الحرب العالمية الثانية، جاهزة وقادرة على إدارة ومواجهة ظاهرة التنظيمات والحرب التكنولوجية. وعلى سبيل المثال، تصدر قوات اليونفيل الموكلة بالمحافظة على السلام في جنوب

لبنان، تقارير كثيرة تفيد بإلتزام حزب الله بوقف إطلاق النار، وبعدم وجود قواعد له في جنوب لبنان. لكننا نشهد إنشاء مصانع أسلحة برعاية إيرانية، وترسل هذه الأسلحة إلى جنوب لبنان، وحزب الله موجود على بعد حجر من الحدود الإسرائيلية بفضل تعاونه مع منظمة بيئة دولية. وعلى قوات حفظ السلام الدولية منع الحرب وليس المحافظة على وقف إطلاق النار.

الشرق الأوسط: وذكر هليفي في تقييمه، أن سكان الشرق الأوسط يشكلون ٥٪ من مجموع سكان العالم، وكان ٣٠٪ من ضحايا الإرهاب في العالم منه، فيما جاء ٦٪ من لاجئي العالم من تلك المنطقة. وهناك شرقان أوسطيان هما :الأول، ذو دخل منخفض مثل مصر (٣٧٠٠ دولار) والأردن (٥١٠٠ دولار) وغزة (١٨٠٠ دولار) والسلطة الفلسطينية (٣٨٠٠ دولار). والثاني، وهي دول ذات دخل مرتفع مثل السعودية (٢٠ ألف دولار) وإسرائيل (٣٦ الف دولار) والإمارات (٣٨ ألف دولار) وقطر (٦٠ ألف ولار). وفي الوسط لبنان الذي بلغ دخل المواطن فيها ١١ ألف دولار، الذي عليه الاختيار، إما الوقوف مع الدول الفقيرة، أو الوقوف مع الدول الغنية، وعلى العالم مساعدة لبنان في التصدي لحزب الله.

وبخصوص الصراع داخل الدول الغنية في المنطقة، قال هليفي أن تركيا (بلغ دخلها ٧٠٠ مليار دولار) تخوض صراعا بين إرث اتاتورك وحاضر أردوغان، بينما تخوض إيران (بلغ دخلها ٤٠٠ مليار دولار) صراعا بين التيار الإصلاحي والتيار المحافظ الذي يقوده الإمام علي خامينئي الذي يعاني من أمراض عديدة وصحته غير جيدة، في حين تواجه السعودية (بلغ دخلها ٦٠٠ مليار دولار) صراعا داخل العائلة المالكة بعد تعيين الأمير محمد بن سلمان وليا للعهد، بدلا من الأمير محمد بن نايف، الذي يريد نقل السعودية لعالم ما بعد النفط.

وفيما يتعلق باقتصاد الشرق الأوسط: ذكر هليفي أن اقتصاده يضعف، ما يؤدي لتزايد نسب البطالة فيه. ويعاني الشرق الأوسط من زيادة نسب جيل الشباب مقارنة مع أوروبا، وهو جيل محبط ويجد صعوبة في تطوير نفسه. كما تقام المدن على المناطق الزراعية من دون توسيع البنى التحتية أو وجود أي تخطيط هيكلي، ما يدفع لزيادة التطرف وتجنيد المتطرفين. ويعتمد اقتصاد الشرق الأوسط على النفط، من دون بديل آخر. ووصلت نسبة النمو عام ٢٠١٧ إلى ٢,٣، بعد أن كانت قبل عام ٢٠١١ أكثر من ٣,٨. وإجمالا يمكن القول، أن انتشار الفقر واليأس يزعزع الاستقرار ويعزز دور المتطرفين.

التسلح في المنطقة: تحدث هليفي أن المنطقة تشهد توجها متزايدا نحو التسلح، وإذا ربطنا ذلك مع الوضع المتفجر فيها، فذلك يعني أن الكثير من هذه الأسلحة ستسرب إلى التنظيمات والدول المتحاربة في المنطقة.

وأضاف أن إيران من الدول المصنعة للأسلحة في المنطقة، وتقوم بتوزيعه على التنظيمات غير المسؤولة، من ضمنها أسلحة مزودة بتكنولوجيا دقيقة التصويب. وعلى إسرائيل الاهتمام بما يجري ومراقبة صاروخ زلزال ٣ الذي يبلغ مداه ٢٠٠ كم، المتوفر في ثلاث دول هي سوريا ولبنان واليمن، ويهدد ٢٠ دولة في المنطقة. كما تراقب إسرائيل باهتمام بالغ إطلاق صاروخ متوسط المدى (٧٠٠ كم) على سوريا الذي تعتبره رسالة لها. إضافة للتسليح، لإيران وجود عسكري في منطقة الشرق الأوسط، حيث يتواجد ٢٥٠٠ مستشار أمني، وتمول وجود ٤٠ ألف جندي في المنطقة، مكونين من الحرس الثوري وميليشيا من أفغانستان وباكستان والعراق ولبنان وغيرها، ما يحولها إلى الدولة الأولى المهددة والمزعزعة للاستقرار.

وتساهم إيران في تمويل الجهاد الإسلامي بنسبة ٧٠٪ في حين تمول حزب الله بنسبة ٧٥٪ وحماس بنسبة ٤٥٪.

الحرب التكنولوجية: يواجه العالم اليوم، حرباً من نوع آخر، متمثلة بشن هجمات اليكترونية على المؤسسات الخاصة والعامة، ما يتطلب مواجهة وتحصيص موارد لمواجهتها. ولا بد من الإشارة أن مواجهة مثل هذا النوع من الحروب ستزيد من مستوى الأمن والتنمية الإقتصادية.

انعكاسات على إسرائيل: للوضع القائم في المنطقة انعكاسات على إسرائيل هي:

القوة العسكرية الإسرائيلية تردع أعداءها، إن كانوا تنظيمات أو دول. لكن عدم الاستقرار الأساسي وكثرة اللاعبين من التنظيمات وعمليات بناء القوة التي تتم من قبلها، تزيد من احتمالات اندلاع حرب، مع العلم أن احتمالات شن حرب على إسرائيل منخفضة إن كانت من دول أو من تنظيمات، وهنا لا أنصح أعدائنا بتجريتنا، ولو كانوا يعلمون ما نعلم عنهم، لعملوا كل شيء لمنع المواجهة القادمة. وإعادة بناء القوة في غزة ولبنان «للقوى غير المسؤولة» لايجاد نوع من الردع، ربما يدفع نحو التصعيد القادم.

تتدخل إيران في كل الأوضاع السيئة في المنطقة، وتعتبر المزعزع رقم واحد للاستقرار في المنطقة من العراق حتى اليمن.

هناك محاولات لتشكيل تحالف دولي لمواجهة التهديد الإيراني، لزيادة الضغط عليها لتعديل مواقفها حتى لو كان ثمن ذلك الضغط أزمة.

سوريا – تنظيم الدولة الإسلامية يتراجع، وفي نفس الوقت تزداد قوة النظام، لكن الصراع لن يحل في المستقبل القريب، إلا إذا اتفقت القوى العظمى على ذلك.

لبنان – الذي يعاني من أزمة الخطف من قبل حزب الله وإيران، اللتان تزداد قوتهما فيه. وعلى العالم، دفع لبنان إلى الاختيار بين إيران السيئة وبين العالم الجيد.

خلاصة: اعتبر هيرتسي هليفي أن إسرائيل اليوم أقوى من كل اعدائها بعدة مرات، بفضل قوتها العسكرية والتكنولوجية وحصانتها الوطنية. لكن عليها الانتباه من أعدائها، ولن يتحقق ذلك، إلا بجهود واستثمارات في كل المجالات. ونتيجة ذلك، أنصح كل أعدائنا بعد استفزازنا.

وقال أن التفوق العسكري الإسرائيلي الواضح يمكّن إسرائيل من إلحاق الأذى بأعدائها إذا تطلب الوضع ذلك، وفي حال تعرضها للأذى، تستطيع إصلاح كل شيئ بسرعة، على عكس اعدائها.

وأضاف أن المنطقة، تقف اليوم على مفترق طرق، تتطلب من دولها أخذ مستقبلها بيدها، واختيار الطرق والخيارات الصحيحة لقطع دابر الارهاب ومحاربة المحرضين والمشاركين في زعزعة استقرار المنطقة ووضع مصلحة السكان، قبل بناء القوة العسكرية.

اليوم تعقد تحالفات إقليمية على أسس المصالح المشتركة، وعلى إسرائيل استغلال الوضع لتكون جزءا من هذه التحالفات، خاصة أنها تضم أطرافاً عديدة. وربما يدفع هذا التحالف الذي سيضم إسرائيل إلى علاقات إقليمية جديدة تساهم في الاستقرار والازدهار السياسي.

وفي مجال مكافحة الارهاب، يقف المجتمع الدولي والمؤسسات التي يشرف عليها، أمام مفترق طرق، تتطلب وضع الخطط والمشاريع لمواجهة التنظيمات التي لا تحكم دولاً.

الجنرال احتياط عاموس غلعاد - رئيس مركز السياسات والاستراتيجية - هيرتسليا

صرح الجنرال احتياط عاموس غلعاد أن الوقت لم يحن لمنح الفلسطينيين الاستقلال بقيادة الرئيس محمود عباس، نظرا لعدم سيطرتهم على قطاع غزة، والتنسيق قائم مع السلطة الفلسطينية على مصالح مشتركة للطرفين. لكن على إسرائيل، التي حققت الكثير من الانجازات، وهي اليوم على مفترق طرق، تحديد مستقبلها، خاصة أنها تملك الكثير من الأوراق المتعلقة بمستقبلها، بدلا من التمسك بعدم اتخاذ قرارات استراتيجية، التي تساوي في منطقة الشرق اتخاذ قرار.

البيئة الاستراتيجية لإسرائيل بيئة جيدة، فالدول التي تطلعت لإبادتنا في السابق، لنا علاقات ممتازة معها، خاصة مع مصر والأردن، وأقمنا علاقات أمنية عميقة مع دول عربية أخرى في مواجهة إيران والحركات الإسلامية المتطرفة، التي فشلت في تحقيق حلم الخلافة.

وبخصوص التهديدات، فإن إيران التي لن يختفي نظامها، نظرا لقوته، هي المهدد المركزي لإسرائيل، خاصة بعد انهيار داعش الذي فتح المجال أمام تحالف شيعي يبدأ من إيران ويمر في العراق وسوريا ولا ينتهي بلبنان. الأسد لن يختفي من سدة الحكم إلا إذا اطلق الرصاص عليه، وروسيا اتخذت قراراً استراتيجياً بدعم هذا التحالف. ولن يكون اليوم بعيداً، على فتح جبهة مع إسرائيل انطلاقا من لبنان.

الأردن الذي توقع الجميع سقوطه قبل ستة عقود، ظل قائما وما زال يشكل حاجزا أمنيا لإسرائيل أمام العراق وغيرها من الدول التي تكره إسرائيل وتريد محاربتها. وداعش التي هددت الأنظمة العربية خاصة الملكية منها في مرحلة الانهيار، ومصر تحارب داعش بنجاح أكبر من السابق.

وعلى صعيد أخر تتمتع إسرائيل بعلاقات أمنية عميقة مع دول الاتحاد الأوروبي خاصة اليونان التي تعتبر منطقة دفاع شرقية عن إسرائيل بعيدا عن أية تعقيدات سياسية.

المطلوب من إسرائيل

على عكس التقييمات السابقة التي قدمت قبل عقدين، بشأن استمرار المسيرة السلمية مع الفلسطينيين، اعتقد أن الوقت الحالي هو الوقت الأنسب والأفضل لإسرائيل للتوجه نحو المسيرة السلمية، نظرا لتبني محمود عباس الحل السياسي. وإذا لم نتخذ قراراً اليوم، فإننا سنغرق في المستنقع الفلسطيني، الذي سيتجه حينها نحو العنف والأعمال الإرهابية، خاصة بعد ذهاب محمود عباس الذي لم يختر وريثا له.

وأشير هنا أن الوقت، ليس في صالح إسرائيل كما يدعي البعض، لكن الوقت الحالي هو الأنسب لإسرائيل من ناحية أمنية وغيرها من العوامل للتوجه نحو المسيرة السلمية مع الفلسطينيين. وفي حال عدم اتخاذ قرار بخصوصها، ستسوء علاقة إسرائيل مع الكثير من دول العالم، خاصة مع دول الاتحاد الأوروبي والرأي العام فيه.

هناك اعتقاد في إسرائيل أن الوضع القائم حاليا، سيدفع الدول العربية إلى الضغط على الفلسطينيين للتوقيع على سلام مريح معها. وأنا لست من المشاركين هذا الرأي، لأن هذه الدول شبه الديمقراطية، تدرك أن الشارع العربي متعاطف مع الفلسطينيين، وبالتالي، لن تضغط عليهم للموافقة على سلام وفق الرؤية الإسرائيلية، ولن تطبع هذه الدول علاقاتها مع إسرائيل، ولن تسمح المملكة العربية السعودية بعبور الطائرات الإسرائيلية أجوائها وهي في طريقها إلى الهند.

وجود الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب الذي يقود تحالفا سنيا ضد إيران، ووضع مسيرة

السلام مع الفلسطينيين على سلم أولوياته يعتبر عنصرا ايجابيا لإسرائيل، وعليها استغلال ذلك.

إبقاء الجيش الإسرائيلي على أهبة الاستعداد للهجوم والدفاع، والمحافظة على منطق الردع وعلى جمع المعلومات الاستخبارية لمواجهة التطورات.

الجنرال غادي أييزنكوت - رئيس هيئة الأركان

الساحة الفلسطينية التي أشغلت الجيش الإسرائيلي كثيرا في العام المنصرم، التي شنت منها عمليات إرهابية ضد الإسرائيليين، شكلت تحديا تطلب مواجهته، للقضاء عليه وتوفير الأمن لأطول فترة ممكنة، مع تواصل الحياة الطبيعية في يهودا والسامرة بشكلها الطبيعي، من خلال تبني سياسة صحيحة وعمل مهني مسؤول وجمع معلومات استخبارية وشن عمليات عسكرية وأمنية تمكننا من القضاء المبكر على الأرهاب وهو في مهده، مع استمرار سياسة التفريق بين الارهاب والسكان الذين سمح لهم العيش وفق ما يشاؤون.

وأضاف أييزنكوت، أن سياسة الحصارات والحصارات الخانقة توقفت، وأوصينا الجهات المختصة بتوفير تصاريح لمئات آلاف الفلسطينيين للعمل في إسرائيل. والنتيجة اليوم هي وجود ٩٠ ألف عامل، لم يقم أيا منهم بعملية واحدة ضد إسرائيل في العقد الماضي. وفي مجال التنسيق مع السلطة، يشار أن هذا التنسيق متواصل ويخدم مصالح الطرفين.

وفيما يتعلق بالوضع مع قطاع غزة، أوضح أييزنكوت، أن الوضع هناك معقد ومتفجر من ناحية أمنية ومدنية وإنسانية واقتصادية، وهناك ربط بين القرارات التي تؤخذ في رام الله وبين الواقع الذي يمر به القطاع، الذي يشهد تقليصا في تكاليف الكهرباء والتحويلات الطبية، ووقف للمعاشات. وذلك الوضع يخلق لنا صعوبات في المجال الأمني، ونبذل جهوداً مدنية في يهودا والسامرة وقطاع غزة لخلق واقع جيد وإيجاد فرص تخدم مصالحنا ومصالح القطاع. وأشير هنا أن الواقع الأمني مع القطاع يشهد هدوءا لم يمر على القطاع منذ عام ١٩٦٧ حتى هذا اليوم، حيث لم يجرح سوى شخصين بجروح طفيفة، أحدهما جندي. ومنذ انتهاء الحرب عام ٢٠١٤ أطلقت من غزة ٤٦ قذيفة صاروخية، منها ٤٠ قذيفة على مناطق مفتوحة.

وأكد أييزكوت أن مصلحة إسرائيل، هي بعدم قطع الكهرباء عن غزة ويرغب بوجودها لمدة ٢٤ ساعة وأن تكون هناك مياه ودراسة، وعمل طبيعي. ونوه أن إسرائيل لن تدفع أية فواتير عن قطاع غزة، كي لا تذهب الأموال لحفر الانفاق.

وطالب أييزنكوت من حماس ،بمناسبة عقد على حكمها، أن تقرر بصفتها مسؤولة عن رفاهية سكان القطاع، أي السياسات الواجب اتباعها لتحسين اوضاع السكان هناك. وقال أنه لا توجد استعدادات لدى حماس لمهاجمة إسرائيل، لأنها تدرك حجم قوتنا وتفوقنا عليها في كل الحروب بما في ذلك الحرب التي اندلعت قبل ٣ سنوات. وأجمالا يمكن القول أن الجيش الإسرائيلي مستعد دائما في كل ما يتعلق بقطاع غزة في المجالات الاستخبارية والعسكرية.

يسرائيل كاتس - وزير الاتصالات

لن يكون هناك أمن إقليمي من دون إسرائيل، التي تعتبر الطرف الوحيد القادر على مواجهة إيران. وتشكيل التحالف الأمني الإقليمي، يتطلب ضم إسرائيل مقابل سلام اقتصادي مع الدول العربية المعتدلة. وبخصوص المفاوضات مع الفلسطينيين، فيمكن لها أن تعقد مقابل تطبيع العلاقات الإقليمية التي تعتبر إسرائيل جزءا منها، وليس ثمنا لهذه المفاوضات. وعليه، لا يملك الفلسطينيون حق الاعتراض على تطبيع العلاقات مع دول الخليج، مع العلم أن تطبيع العلاقات مع هذه الدول يزيد ثقة الجمهور الإسرائيلي بخطوات السلام الفاشلة معهم، التي شهدت خيبات أمل جاءت بها اتفاقيات أوسلو وكامب ديفيد الثانية والانفصال أحادي الجانب عن قطاع غزة.

وطالب كاتس من دول الخليج ، عقد اتفاقيات سلام اقتصادي مع دولة إسرائيل، ودعا الملك سلمان وولي عهده الأمير محمد بدفع التفاوض مع إسرائيل إلى الأمام، مثلما قام بذلك الرئيس المصري السابق أنور السادات. وأضاف أنهم، يستطيعون تمثيل القضية الفلسطينية من دون شروط مسبقة كما قام السادات بذلك من قبل.

وأود التوضيح أن إسرائيل، لن تنسحب إلى حدود عام ١٩٦٧، ولن توافق على عودة لاجئ واحد، ولن تتنازل عن أمنها وتاريخها وعلاقاتها بالأماكن المقدسة. وأوضح كاتس أن إسرائيل، لن تخلي مستوطنين من بيوتهم واراضيهم. وطالب العرب بإلغاء المقاطعة الاقتصادية المفروضة على إسرائيل، وتطبيع العلاقات معها بصورة تدريجية في البر والبحر والسماء.

وقال تعالوا نتفاهم من أجل إدخال تحسينات فورية على حياة الفلسطينيين مثل الجزيرة الصناعية في قطاع غزة والقطار الاقتصادي الاقليمي الذي يربط إسرائيل ويهودا والسامرة والأردن مع السعودية ودول الخليج عن الحدود الأردنية السعودية، بهدف حل المشاكل الاقتصادية (مسافة نقل البضائع ١٠٠٠ كم بدلا من ٦٠٠٠ كم) والانسانية.

موشيه كحلون - وزير المالية

صرح موشيه كحلون في بداية حديثه عن حجم المفاجأة التي شاهدها في رام الله، عندما اجتمع مع رئيس الوزراء رامي الحمدالله، التي قال عنها أنها مدينة جميلة وعصرية ويتجول الناس في الشوارع والمقاهي الحديثة. وقال انه خلال اجتماعه مع الحمدالله رفض الحديث في الأمور السياسية معتبرا نفسه شريكا اقتصاديا، في حين هناك شركاء سياسيون يمكن الحديث معهم، رغم قناعته ،التي بلورها من خلال لقاءات مع الكثير من الفلسطينيين، أنهم غير جاهزين للتوصل لحل سياسي في السنوات القادمة على الأقل، نتيجة للمشاكل الداخلية والصراعات الإقليمية.

وأضاف كحلون، أن الحديث عن يهودا والسامرة وإسرائيل، يدور عن منطقة واحدة، جغرافيا واقتصاديا، وأنه لا يملك تصورا حول شكل الحل النهائي مع الفلسطينيين، رغم اقتناعه بأن أي حل سيؤدي إلى قيام دولة فلسطينية. ونوه كحلون إلى فشل محاولات عقد مؤتمر إقليمي قبل عامين، ما دفع إسحاق هيرتسوغ لعدم الانضمام للحكومة الحالية.

وأبلغ محاورته، أن الإدارة الأميركية تمارس ضغوطا كبيرة على إسرائيل للانخراط في المسيرة السلمية، وأن هناك تحضيرات أميركية لتقديم مقترح ما، لاقتناع الإدارة الجديدة بأنها تستطيع التوصل لتسوية سلمية بين إسرائيل والفلسطينيين. وأضاف، أنه وبنيامين نتنياهو لا يعارضان الدخول في مفاوضات في الوقت الحاضر على الأقل.

وفيما يتعلق بقطاع غزة،أبلغ كحلون محاورته، أن إسرائيل لا تستطيع التصرف بالأموال التي تجنيها لصالحهم، مثل تمويل كهرباء غزة التي قلصتها السلطة في الآونة الأخيرة، بهدف عودتها إلى سيطرة الحكومة الفلسطينية كما أبلغه بذلك الحمدالله نفسه، الذي أبلغه أن السلطة الفلسطينية تدفع ٦٠٠ مليون دولار سنويا لغزة من دون أن تدفع حتى أغورة واحدة لصندوق السلطة.

أييليت شاكيد - وزيرة العدل

تحدثت وزيرة العدل الإسرائيلية عن حزب البيت اليهودي أييليت شاكيد في المؤتمر قائلة، أنها تعارض منح الفلسطينيين في يهودا والسامرة أية امتيازات وفق سياسة «العصي والجزر» [التي طرحها وزير الدفاع أفيغدور ليبرمان] لأنها تعتقد أن توسيع مدينة قلقيلية وفق السياسة المذكورة هو اقتطاع من حق اليهود في مناطق C. وذكرت أن عدد المستوطنين في هذه المناطق بلغ من ٤٠٠-٤٥٠ ألف مستوطن، في حين يقدر عدد الفلسطينيين فيها من ١٠٠-٢٠٠ ألف. وأضافت أن نسبة البناء في يهودا والسامرة للعرب واليهود هي ٥٪، وإذا أراد العرب التوسع في البناء، فعليهم

فعل ذلك في مناطق A وB .

وبخصوص المفاوضات، تحدثت شاكيد عن وجود ضغوط للعودة لطاولة المفاوضات التي لا تعارض إجراءها، رغم تحريض السلطة وتشجيعها للعمليات الإرهابية، ورفضها تغيير كتب التعليم وتغيير أسماء الشوارع المسماة على أسماء المخربين الذين تقدسهم وتدفع معاشات لهم.

وبخصوص قطع الكهرباء عن قطاع غزة، قالت شاكيد أن ذلك ليس شأنا إسرائيليا، ونحن على استعداد لتزويد القطاع بالكهرباء شريطة قيام أي طرف بالدفع. وحول مستقبل القطاع أضافت شاكيد، أن معظم الوزراء يؤيدون الانفصال الكامل والمطلق عن قطاع غزة، ومقترح الوزير كاتس بإنشاء جزيرة إصطناعية في قطاع غزة ينال تأييد معظم الوزراء. لكن ذلك لن يحدث قبل تبادل الأسرى مع حماس، حيث فرضنا تطبيق معايير مختلفة عن السابق في أية صفقة تبادل أسرى جديدة.

إيهود براك- رئيس وزراء إسرائيل السابق

شدد رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق على أن المجتمع الإسرائيلي يشهد توترا داخليا نتيجة حالات الفساد والتطرف الذي تمارسه الحكومة الحالية التي يسيطر عليها المتطرفون من خلال سيطرتهم على أكبر حزب في إسرائيل. ونتيجة ذلك، توقع براك اندلاع ربيع إسرائيلي، بدأت ظواهره السياسية والاجتماعية تبرز. وأضاف، أن هناك محاولات حكومية لسن قوانين تقيد حرية الأشخاص وصلاحيات المؤسسات القضائية مثل محكمة العدل العليا والإعلامية والجمعيات والمؤسسات الأكاديمية.

وشن إيهود براك هجوما شديدا على الحكومة الحالية متهما إياها بتخوين كل من يحاول معارضتها، وبث الكره والبحث عن أعداء داخليين وخارجيين. ووصف أعضاء الحكومة الحالية بالوطنجيين الذين يقسمون الشعب ويعرضون أمن دولة إسرائيل للخطر، ولا تسعى للمحافظة على المجتمع، وفرقهم عن الوطنية التي ينتمي إليها معظم اليهود.

وبخصوص القضية الفلسطينية حذر براك نتنياهو من قيام دولة واحدة لإصراره على مواصلة الجمود في المسيرة السلمية مع الفلسطينيين. وقال أن الحكومة الحالية مندفعة نحو حل الدولة الواحدة، وجدول أعمالها يتعارض مع القانون الإسرائيلي والدولي ووثيقة الاستقلال، وتنفيذ هذا الجدول سيؤدي إلى إما الزحف نحو الدولة الواحدة أو التوجه لحكم تمييز عنصري. ووصف التصرفات الإسرائيلية في المناطق بأنها تقود نحو نظام التمييز العنصري، وسياستها أقرب لكتاب «تورات الملك» [كتاب ألفه حاخام مستوطنة شيلو الذي أباح دم العرب وقتلهم]. ووصف نتنياهو محرري القدس بأنهم لم يكونوا متدينين ولم يلبسوا اللباس الخاص بالصلاة. ووجه براك انتقادات

عنيفة للأحزاب اليمينية المتطرفة التي تعرض أمن إسرائيل للخطر نتيجة تبنيهم سياسة تدعو لفرض نظام الابرتهايد، بدلا من البحث عن السلام.

وقال براك، رغم أن اليهود موجودون في يهودا والسامرة، موجودون هناك بمنطق الحق وليس بمنطق القوة، إلا أن عليهم التفكير بطريقة أخرى تحفظ أمن ومستقبل دولة إسرائيل، وعلى الجميع الإدراك، أن الصهيونة هي أهم انجاز في القرن العشرين، وبقاء دولة يهودية ديمقراطية متطورة هو الهدف الأول لدولة إسرائيل. ولتحقيق ذلك، يجب التركيز على:

وحدة الشعب أهم من وحدة البلاد.

المحافظة على مجتمع مضخٍّ بروح أنبياء إسرائيل ووثيقة الاستقلال.

توفير الأمن أولا وقبل أي شيء.

وأضاف براك، رغم المخاطر التي تواجهها دولة إسرائيل، ينشغل رئيس وزرائها بالمحافظة على منصبه، وبالانجرار خلف نفتالي بينيت الذي يقود الجميع نحو الدولة الواحدة، وخلاصة سياسة الحكومة الحالية هي:

السيطرة على كل البلاد من البحر حتى النهر إلى الأبد.

لن تقام دولة فلسطينية، ويمنح الفلسطينيون حكماً ذاتياً محدود الصلاحيات.

بناء الشقق في المستوطنات المنعزلة، لخلق واقع لا يمكن التراجع عنه في المستقبل.

العالم سيعتاد على ذلك وهو منشغل الان بمحاربة الارهاب.

وأضاف براك، أن إسرائيل أقوى دولة في الشرق الأوسط، وتعيش في غابة، وعليها إبقاء يدها على الزناد والاستعداد دائما، وقال، إلى جانب تفوقها التكنولوجي، عليها تنسيق مواقفها مع الولايات المتحدة وأوروبا، كي تحافظ ليس فقط على تفوقها العسكري، بل على تفوقها السياسي. ونوه أن إسرائيل اليوم لا تواجه خطراً وجودياً ولا في المستقبل، سوى من قيام دولة واحدة بين البحر والنهر التي يسعى لإقامتها بنيامين نتياهو من خلال محافظته على الوضع القائم. واعتقد انها سياسة خاطئة ولا تحافظ على أمن إسرائيل. وأشار أن الدولة الواحدة أو الدولة ثنائية القومية سيكون العرب فيها أغلبية، وستشهد حربا أهلية دائمة أو نظام تمييز عنصري بقيادة إسرائيلية. واعتقد براك أن مصالح إسرائيل الحيوية في يهودا والسامرة هي:

المحافظة على كتل المستوطنات .

البقاء في المواقع الاستراتيجية.

المحافظة على منطقة أمنية في الشرق لحماية مطار بن غوريون.

المحافظة على الأحياء اليهودية في القدس الشرقية

وجود إسرائيل على طول نهر الأردن لفترة طويلة.

وأوضح براك أن ٩٠٪ من ضباط الجيش وجهاز المخابرات العامة والشرطة ومنسقي أعمال الحكومة في المناطق وقادة الموساد الحاليين والسابقين يرون، أن حل الدولتين مع وجود حدود دائمة لإسرائيل والتوصل لتسويات أمنية متفق عليها، هو الحل المفضل لدولة إسرائيل.

وقال براك، أن ترامب عندما ينظر إلى خارطة الصراعات الدولية، سيجد أمامه ٦ صراعات هي في: أوكرانيا وبحر الصين الجنوبي وكوريا واليمن وسوريا وإسرائيل. ونوه أن العالم لم يعد يفهم كيف أن دولة فلسطينية محاطة من كل الجهات بالجيش الإسرائيلي المزودة بتكنولوجيا عسكرية أميركية، لم تخصص لحماية الجنود الأميركان، تشكل خطراً وجودياً على دولة إسرائيل.

ودعا براك دولة إسرائيل للاختيار بين حل مع الفلسطينيين، أو تبني نظرية عضو الكنيست عن حزب الليكود ستوريتش الداعية إلى طرد الفلسطينيين أو منحهم مكانة ساكن. ودعا إلى عدم تفويت فرصة الحل الإقليمي الذي يتضمن حل مسألة الصراع مع الفلسطينيين من خلال تبني المبادرة العربية، والدخول في التحالفات الإقليمية الجديدة، وإذا فشلت إسرائيل، يتحمل مسؤولية الفشل بنيامين نتنياهو لوحده.

وطالب براك كل فئات المجتمع الإسرائيلي العمل على اسقاط نتنياهو قبل أن يحول الواقع الحالي لأمر لا يمكن تغييره، وأنه استنفد ما عليه عمله ولم يعد يستطيع تقديم شيء.

غدعون ساعر - عضو كنيست ووزير سابق

صرح غدعون ساعر أقوى المرشحين لخلافة بنيامين نتنياهو في حال إسقاطه أو تخليه عن الحكم، أن مسيرة سلمية متجددة بدأت مع الفلسطينيين بوساطة أميركية. والمرحلة الأولى منها، بدأت باستطلاع مواقف الطرفين حول التسوية المستقبلية.

وصرح ساعر أن أية نتيجة لمسيرة السلام مع الفلسطينيين، يجب أن لا تؤدي إلى قيام دولة فلسطينية في مناطق يهودا والسامرة. وفيما يتعلق بالانفصال عن الفلسطينيين، أوضح ساعر فقد تم على مرحلتين، الأولى: عندما وقع على اتفاقيات أوسلو في بدايات تسعينات القرن الماضي. والثاني، عند الانفصال عن قطاع غزة في عام ٢٠٠٥.

وأشار ساعر أن إسرائيل، لا تستطيع التنازل عن السيطرة الأمنية في كل المناطق وعلى نهر الأردن، لمنع التفوق الديموغرافي. وأضاف أن إقامة دولة فلسطينية، لا تحل مشكلة العامل الديموغرافي بالنسبة لإسرائيل، بل على العكس تزيد من مخاطره، لأن إقامتها تعني عودة اللاجئين إلى يهودا والسامرة، ومن ضمنهم الجهاديين الذين سيرابطون على الجبال المطلة على تل أبيب، ما يؤدي حينها إلى تغيير العامل الديموغرافي.

واعتقد ساعر أن الوقت حان، لتقول إسرائيل للجميع أنها ترفض قيام دولة فلسطينية في مناطق يهودا والسامرة، لأن مصالحها في هذه المنطقة ليست أمنية فقط، بل هي حقوق في أراضٍ، باستثناء ما تم تسليمه إلى السلطة الفلسطينيية.

وفيما يتعلق بمدينة القدس، اعتقد ساعر أن على إسرائيل، تكثيف البناء فيها لليهود، كي لا يتم تغيير العامل الديموغرافي فيها، لأن استمرار التوجهات الحالية سيؤدي إلى تفوق عدد العرب على اليهود خلال ١٥ عاماً.

وفيما يتعلق بالتسوية السلمية الإقليمية، قال ساعر، أن بإمكانها خدمة المصالح الإسرائيلية، في حال وافقت دول المنطقة على المساهمة في الحل، مثل الشكل المستقبلي للعلاقة بين المملكة الأردنية الهاشمية وبين السلطة الفلسطينية. وأضاف، إذا ظلت التسوية الإقليمية تعتمد على تبني وجهة النظر الفلسطينية، وتطالب من إسرائيل فقط تقديم تنازلات، فإن ذلك لا يتعارض مع المواقف الإسرائيلية فقط، بل مع مصالحها، وهو ما رفضته إسرائيل في السابق عندما أدارت مفاوضات مباشرة من دون تدخل دولي أو إقليمي. وعليه، علينا الفصل بين المسيرة السلمية مع الفلسطينيين، وبين التقاء مصالح بين إسرائيل والدول السنية في مواجهة المحور الإيراني. وعليه فإن أية مسيرة سلمية إقليمية، تتطلب دراسة وعناية كي لا تتعارض مع المصالح الإسرائيلية.

وعلى صعيد الاقليم، قال ساعر أن خارطة سايكس-بيكو سوف تتغير، ولن تعود سوريا والعراق كما كانتا، سيتجه الأكراد نحو الاستقلال، وعلينا دعمهم لأنهم معتدلون وعلاقتنا معهم ممتازة منذ عقود. كذلك علينا دعم الأقليات الأخرى في المنطقة على الاستقلال بدعم من الولايات المتحدة.

موشيه يعلون - وزير الدفاع السابق

تحدث وزير الدفاع السابق موشيه يعلون في المؤتمر قائلا، إن الوضع في العالم العربي سيستمر سنوات أو عقوداً أو أكثر من ذلك. وطلب من إسرائيل البقاء مستعدة. وبخصوص مكانة الولايات المتحدة، أضاف يعلون انها انسحبت من المنطقة تاركة إياها لثلاثة تيارات إسلامية مختلفة هي

:إيران الشيعية والتنظيمات الإسلامية السنية مثل «داعش»، وتركيا بقيادة رجب طيب أردوغان.

وفيما يتعلق بالوضع في المنطقة، قال يعلون، إنها تمر بمرحلة من عدم الوضوح، لكن إسرائيل لا تواجه فيها أي تهديد قومي، لأنها هزمت في السابق إرهاب الانتحاريين الفلسطينيين وحزب الله. وأشار يعلون أنه لم يعد هناك ما يسمى بالصراع العربي-الإسرائيلي في الوقت الحاضر على الأقل، فسوريا مفككة، والقاهرة والرياض والمنامة لا يشغلها الموضوع الفلسطيني. وعلاوة على ذلك، إسرائيل والمعسكر السني في قارب واحد بمواجهة إيران والتنظيمات الإسلامية السنية المتطرفة.

وبخصوص قطاع غزة، اعتقد أن الهدوء الذي يشهده القطاع منذ ٣ سنوات لم يشهده القطاع منذ عام ١٩٦٧، فحماس لم تطلق رصاصة واحدة.

وفيما يتعلق بالتسوية مع الفلسطينيين في يهودا والسامرة، اعتقد يعلون، أنه لا يوجد شريك فلسطيني يمكن التوصل معه لسلام، حتى لمرحلة انتقالية جديدة. ودعا إلى الامتناع عن القيام بأية نشاطات استيطانية هدفها، الدفع نحو إقامة دولة ثنائية القومية، مثل تلك التي تنفذها الحكومة الحالية بهدف ضم مناطق C وغيرها، وتحويل الفلسطينيين إلى أقلية من الدرجة الثانية أو مواطنين يصوتون للكنيست. ولتفادي ذلك، علينا تعزيز الانفصال عنهم جغرافيا، بعدما انفصلنا عنهم سياسيا.

لكن قبل ذلك، علينا إقناع أصدقائنا الأميركيين الذين يحاولون في الوقت الحاضر استطلاع المواقف من أجل تجديد المسيرة السلمية، أن لا أمل في التوصل لتسوية نهائية في المدى المنظور، وكل ما علينا عمله هو وضع خارطة طريق طويلة نعزز من خلالها الكثير من العناصر الايجابية مثل تطوير الاقتصاد والبنى التحتية والأمن، وحسنا تدخلت الولايات المتحدة في التعليم وفي معاشات المخربين.

تسيفي ليفني عضو كنيست ووزيرة الخارجية السابقة

تحدثت تسيفي ليفني، عن وجود معسكر سني يعادي ويحارب المعسكر الشيعي، ولا يرى بإسرائيل عدواً، بل حليفاً في الحرب ضد داعش وإيران. ونتيجة التقاء المصالح، بالإمكان تكوين شراكة مع هذا المعسكر، الذي يرى بحل القضية الفلسطينية مدخلا لتحالف مع دولة إسرائيل، يوفر لها عمقا استراتيجيا جديدا لم يكن متوفراً لها في السابق. وحل القضية الفلسطينية ليس مشكلة ،كما يسميها رئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو، بل هي مصلحة إسرائيلية، وليس إحساناً يقدم للعرب، وهو واجب القيادة اتجاه مواطني ودولة إسرائيل، الذين عبروا عن تطلعهم لدولة ذات أغلبية يهودية وديمقراطية، وحل دولتين لشعبين هو مصلحة إسرائيلية.

وبخصوص دور الولايات المتحدة أشارت ليفني أن هناك إدارة أميركية جديدة برئاسة دونالد ترامب الذي لا يوجد شخص يقول له لا، وقد حدد هدفا له وهو عقد صفقة بين إسرائيل والفلسطينيين. ومن أجل تحقيق ذلك، عليه استطلاع معمق لمواقف العالم العربي وأخذ أمانة منهم على شكل تعهد بالخطوات التي يمكن اتخاذها اتجاه إسرائيل، في حال أبدت الأخيرة رغبتها والتزامها بالتوجه نحو السلام. وفي المقابل، رأت ليفني أن على ترامب، وضع مبادئ الحل على طاولة المفاوضات التي وافق عليها نتنياهو عام ٢٠١٤ مع تحفظات ثم عاد ورفضها، ومنع أبو مازن من الهروب.

وطلبت ليفني من نتنياهو اتخاذ قرار بالموافقة على مسيرة السلام من دون الخوف على سقوط حكومته، لأن هناك بديل يمكن له دعمه إذا قرر التوجه نحو السلام، لاحتياجها لمثل هذا القرار بسرعة، للمحافظة على دولة إسرائيل يهودية وديمقراطية. وقالت إن أرض إسرائيل الكاملة التي يريد البعض إقناعنا بها هي تنازل عن الدولة اليهودية وتنازل عن الأغلبية اليهودية، وتوجه نحو دولة التمييز العنصري. وأضافت أن على إسرائيل، العمل على وقف البناء في المستوطنات المنعزلة وترسيم حدود دولة إسرائيل التي تضم كتل المستوطنات والتخلي عن المنافسة بين أقطاب الحكم (نتنياهو وبينيت) على سن القوانين الداعية لضم يهودا والسامرة.

نفتالي بينيت - وزير التعليم

تحدث الوزير نفتالي بينيت والشخصية الأقوى في الحكومة الحالية بقوله، إن المصلحة الإسرائيلية العليا هي منع مواجهة جديدة. لكن إذا ذهبنا إليها، فعلينا إلحاق الهزيمة الساحقة باعدائنا. وبالنسبة لي، اعتقد بينيت أن التهديد الأكبر الذي تواجهه إسرائيل اليوم هو حزب الله الذي يملك ١٣٠ ألف قذيفة وصاروخ موجه على إسرائيل -وليس حماس. وفي حالة الحرب مع حزب الله، علينا تحديد كل لبنان هدفا للقصف وليس مواقع الحزب.

وبخصوص قطاع غزة، أوضح بينيت أن إسرائيل لم تقطع الكهرباء عن قطاع غزة، بل السلطة الفلسطينية. وفيما يتعلق بتبادل الأسرى، طلب بينيت الضغط على حماس من أجل الإفراج عن الأسرى، وليس على الحكومة أن تقدم تنازلات لحماس. وأوضح أنه يعارض الافراج عن قتلة، يعودون بعد خروجهم إلى ممارسة القتل.

وفيما يتعلق بالضفة بيهودا والسامرة، قال بينيت ان التوقعات بالتوصل إلى حل سرعان ما تؤدي إلى فشل، ما يعيد الوضع أسوأ مما كان عليه. وأنه يعتقد بوجود مشكلة مع الفلسطينيين، بل هناك وضع مع الفلسطينيين لا يمكن حله. وعليه، فإن إدارة هذا الوضع أفضل لإسرائيل من محاولات حله.

وعلى نفس السياق، رفض بينيت قيام إسرائيل بتقديم تنازلات للفلسطينيين مقابل اجتماع مع أبو مازن. وقال بينيت أنه قاد الحكومة نحو عدم تقديم تنازلات للفلسطينيين في حال لم يقدموا تنازلات مماثلة، ونفس المنطق هو الذي دفعني لرفض مشروع توسيع قلقيلية لأن توسيعها يهدد شارع رقم ٦ والمستوطنات الواقعة قرب منطقة قلقيلية، وإذا أراد العرب البناء والتوسع، فهم يملكون أراضي واسعة في مناطق A و B، أما بقية الأراضي الواقعة في منطقة C فهي أراضٍ إسرائيلية.

وبخصوص الحل النهائي مع الفلسطينيين، أوضح بينيت أنه لا يملك تصورا حول الحل النهائي معهم. وقال أنه ورغم تأييده للمفاوضات مع الفلسطينيين، إلا أنه غير مؤمن بالسلام معهم، لأن ما سيوقع معهم هو لوقف الحرب فقط، وليس للسلام. ومع ذلك، قال بينيت، ولأنه حكم علينا العيش مع الفلسطينيين، وفي نفس الوقت لا نرغب بضم مليوني فلسطيني، أيدت بناء بنية تحتية تربط جنين بحيفا وإنشاء محطة قطارات وبناء مناطق صناعية مشتركة. وأضاف أنه لا يعشق الفلسطينيون لكن يمكن الحديث معهم عن جيرة حسنة.

وبخصوص المبادرة الأميركية صرح بينيت أنه ضدها، وأنه مع طرح خطة اقتصادية للتعاون مع الفلسطينيين ليس أكثر.

أفيغدور ليبرمان - وزير الدفاع

أعزى أفيغدور ليبرمان، فشل التسويات والجهود الكبيرة التي بذلها إيهود أولمرت وأريئيل شارون وإيهود براك وتسيفي ليفني، إلى تبني أساس خاطئ قامت عليه مسيرة السلام وهو الأرض مقابل السلام، والسعي إلى إقامة دولة فلسطينية نقية ١٠٠٪ من غير الفلسطينيين، في حين تتشكل دولة ثنائية القومية في إسرائيل تضم أقل من ٢٥٪ من الفلسطينيين. وعليه، فإن الحل النهائي المستقبلي يجب أن يتضمن تبادلا للأراضي والسكان.

وحسب ليبرمان، لا يملك الفلسطينيون وحدهم قدرة التوصل لاتفاق، ففي جميع المراحل رفض محمود عباس. وأضاف أنه درس جيدا مسيرة آنابوليس، ولاحظ عدم استخلاص قيادة إسرائيل العبر. وقال أن على الجميع الإدراك، أن إسرائيل لن تقدم أكثر مما قُدم في آنابوليس، ولن يكون هناك رئيس وزراء يقدم تنازلات بحجم التنازلات التي قدمها إيهود أولمرت، ولن نعيد لاجئا واحدا لحدود دولة إسرائيل، لكن بالإمكان عودتهم إلى نابلس ورام الله في إطار حل نهائي.

والعبرة الأساسية التي توصل إليها ليبرمان بعد ٢٥ عاما من المفاوضات الفاشلة، هي بقلب الأمور، فبدلا من التوصل لتسوية ثنائية مع الفلسطينيين، على إسرائيل التوصل لتسوية إقليمية مع الدول

العربية السنية المعتدلة تتضمن إقامة علاقات دبلوماسية وإقتصادية شاملة. وإذا تحقق ذلك، ستجني إسرائيل ٤٥ مليارد دولار سنويا، مقابل تقديم خدمات في مجالات الأمن وتدريب ومحاربة الإرهاب وجمع المعلومات الاستخبارية والحرب التكنولوجية والخبرات الزراعية، وتقديم خدمات طبية رفيعة. وفي المجال المذكور، يمكن الاستعانة بعرب إسرائيل الذين يجب أن نعاملهم بطريقة محترمة.

والتسوية الإقليمية لم يتم التوصل إليها منذ عام ١٩٦٧، لأننا لم ننتصر في أي حرب خضناها منذ ذلك الوقت. وبدلا من ذلك، ركزنا على التصريحات وليس على تحقيق النصر. علينا التوضيح لأعدائنا أننا سننتصر في أية معركة قادمة، وإذا انتصرنا سينضم الجميع إلينا لأن الأقوياء هم من يبحث عنهم اليوم.

وبخصوص قطاع غزة، أضاف ليبرمان أن الوضع القائم لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، واستراتيجيتنا في القطاع واضحة، ومشكلة الكهرباء مشكلة فلسطينية داخلية، واعتقد أن أبو مازن اتخذ خطوة استراتيجية بوقف كل المخصصات بما في ذلك نفقات الوقود والدواء والمعاشات وغيرها من الخطوات، بهدف زعزعة مكانة حماس الداخلية ما يدفع الناس للذهاب نحو مواجهة مع حماس. ما قام به محمود عباس من خطوات بحق حماس لم يتم التنسيق به مع إسرائيل أو مصر والأردن، هدفه جر إسرائيل لمواجهة مع غزة ويطلقون عليه رجل السلام !!.

غلعاد أردن - وزير الأمن الداخلي

تحدث وزير الأمن الداخلي غلعاد أردن عن مواجهة إسرائيل والغرب الإرهاب الذي تمارسه «الذئاب المنفردة»، وطالب بإقامة تحالف إقليمي لمحاربة الإرهاب بالتعاون بين إسرائيل والغرب والدول العربية السنية. وأضاف أردن أن كل إسرائيل تحولت لساحة إرهاب وعدّد الخطوات التي اتبعتها لإسرائيل لمواجهته التي تضمنت:

نشر المزيد من قوات الشرطة (دوريات ومشاة) في مختلف المدن الإسرائيلية، خاصة في مدينة القدس لمواجهة أية حالة طوارئ.

تعزيز الحماية والرقابة وتركيب كاميرات في الأماكن الحساسة وربطها مع ٢٠٠٠ كاميرا منتشرة في مختلف المناطق، تستطيع تمييز نمرة السيارة والشخص الذي يقودها.

تغيير وجه باب العامود الذي يعتبر رمز الهجمات الإرهابية.

تزويد المدنيين بالسلاح المرخص.

هدم منازل منفذي العمليات الإرهابية.

اعتقال كل من يعمل في إسرائيل من دون تصريح ومعه مشغّله.

إخراج الجمعيات والمؤسسات العاملة في مجال الإرهاب خارج القانون.

محاربة التحريض الذي تمارسه السلطة الفلسطينية، التي تدفع معاشات القتلة والمحرضين على قتل المدنيين والعسكريين الإسرائيليين.

إسحاق هيرتسوغ - رئيس حزب المعسكر الصهيوني

في الحوار الذي أجري مع زعيم المعارضة في المؤتمر، أشار هيرتسوغ أن مبادرة السلام الإقليمية الوحيدة التي قدمت لإسرائيل جاءت في مؤتمر العقبة الذي عقد بحضور الملك عبدالله والرئيس المصري عبد الفتاح السيسي ووزير الخارجية الأميركي جون كيري.

وجاء المؤتمر على خلفية توقيع الدول العظمى على الاتفاق النووي مع إيران، ما جعل دول المنطقة تفقد ثقتها بالولايات المتحدة وروسيا، وترى بإسرائيل بديلاً في مواجهة إيران. وكان ثمن ذلك هو، التوصل لتسوية مع الفلسطينيين، حيث وعد الزعماء العرب بدعم محمود عباس في حال قرر التوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل، وهو الأمر الذي لم يفعلوه مع ياسر عرفات.

وقال لنا العرب، أننا نقدم لكم صفقة شاملة تتضمن توقيع اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين، يمنحون بموجبها دولة مستقلة، مقابل سلام شامل يتضمن اعترافاً شاملاً وتطبيع علاقات وتسويات أمنية كما تريدها إسرائيل مع الدول العربية. المبادرة فشلت، لأن بنيامين نتنياهو خشي على استقرار حكومته.

وإدراكا منها للمصاعب التي تواجه بنيامين نتنياهو في تركيبة حكومته، تمت دعوتي مع نتنياهو لزيارة جمهورية مصر التي رغبت في دفع المفاوضات الإسرائيلية-الفلسطينية إلى الأمام، حيث جرت هناك نقاشات معمقة مع المصريين. وعند العودة إلى إسرائيل، وبدلا من تشكيل حكومة وحدة وطنية، عزز نتنياهو حكومته اليمينية بضم أفيغدور ليبرمان إلى حكومته، وبالتالي توقفت جهود السلام الإقليمي.

واضاف هيرتسوغ، أن بنيامين نتنياهو غير مؤهل للتوصل إلى سلام مع الفلسطينيين رغم إدراكه عمق الخطر الديموغرافي الذي يمثلونه، وكونهم الخطر الأهم على الصهيونية. وهو لن يمنحهم دولة إلى جانب دولة إسرائيل.

نتنياهو يناور ويكذب ولا يملك المصداقية أمام جميع زعماء العالم، الأميركان في عهد أوباما حملوه أسباب الفشل، وزعماء العالم لا يثقون به، وضغطوا عليَّ لضمّي لحكومة نتنياهو لأنهم يبحثون عن ضمانة لإنجاح المسيرة السلمية، ولا اعتقد أنه سيمنح إدارة الرئيس الأميركي دونالد ترامب الدافع والضمانة لإعادة الفلسطينيين إلى طاولة المفاوضات.

نتنياهو وحكومته الحالية يرغبون بتحويل إسرائيل إلى دولة فاشية، ويجب تشكيل جبهة عريضة في إسرائيل بهدف إسقاطه وإزاحته عن سدة الحكم.

زهافا غالئون - رئيسة حزب ميرتس

هاجمت غالئون بنيامين نتنياهو بشدة بقولها أن المهمة الأساسية له هي المحافظة على كرسي الحكم، الذي يفضله على كل المشاكل الأخرى التي تعاني منها دولة إسرائيل، وهو شخصية امتهنت الكذب. وأكدت غالئون، أن من يدير الحكومة الحالية هو نفتالي بينيت ومعه لوبي من المستوطنين والمتدينين الذي يريدون حكم إسرائيل بكتاب التوراة وليس بالقانون الإسرائيلي.

خلاصة

يعقد مؤتمر هيرتسليا السابع عشر، بعد انتخاب الرئيس الجديد للولايات المتحدة، دونالد ترامب، الذي اعتبرته الكثير من الأوساط الإسرائيلية ،الرسمية وغير الرسمية، فرصة لن تتكرر لتنفيذ السياسات الإسرائيلية في المجالين -الفلسطيني أو الإقليمي. وانتخاب ترامب، دعا المشرفين على المؤتمر إلى تسميته بمؤتمر «الخروج من الظل»، أي أن الفرصة متاحة لإسرائيل للاندماج في الشرق الأوسط، مقابل ثمن بسيط جدا تقدمه لحل المسألة الفلسطينية. معتمدة في ذلك، على تلاقي مصالحها مع مصالح بعض الدول العربية في تحديد إيران كمهدد رئيسي لهم ولمصالحهم بالمنطقة.

اعتبر فوز دونالد ترامب فرصة، يجب على إسرائيل استغلالها محليا من خلال مسح الدولة الفلسطينية عن جدول الأعمال الإسرائيلي والدولي، مع استمرار العمل على فصل قطاع غزة عن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي من خلال ايجاد حلول مستقبلية منفردة له، تختلف عن الحلول المتعلقة بالضفة الغربية المقتصرة على محاربة ما يسمى «الإرهاب» ووضع الخطط لمواجهته مستقبليا، وطرح مشاريع اقتصادية محلية وإقليمية، أو السلام الاقتصادي حسب رؤية المتحدثين الرسميين باسم الحكومة في المؤتمر.

ووفق الرؤية الإسرائيلية وفر فوز دونالد ترامب فرصة أخرى لإسرائيل، تمثلت بمحاولاتها الانضمام للتحالفات الإقليمية لمواجهة الإرهاب وإيران، كونها مهددة من الطرفين، مثلها في ذلك مثل بقية الدول العربية. وهي ترى أن التقاء مصالح الطرفين (العربي المعتدل والإسرائيلي) في محاربة الإرهاب وإيران، يمنحها مكانة بارزة في محاربة التهديدين بصفتها القوة الأضخم من الناحية العسكرية. وبرؤيتها تلك، تناست إسرائيل أنها أهم مصدر لممارسة الإرهاب وتصديره في المنطقة، وما زالت تشكل عامل عدم الاستقرار الأول بالمنطقة منذ نشأتها قبل ٧٠ عاما حتى اليوم.

العلاقات المعقودة على استحياء، بين إسرائيل مع بعض الدول العربية ،غير الأردن ومصر، خاصة في مجال المستشارين والاستشارات الأمنية، لا يمكن أن تتطور لتطبيع علاقات وسلام مع الدولة العبرية، من دون حل القضية الفلسطينية، حلا يلبي الحد الأدنى من المطالب الفلسطينية المتمثلة بالعودة لحدود الرابع من حزيران وإقامة دولة مستقلة وعاصمتها القدس الشرقية، وهو ما اعترف به الكثيرون ممن شاركوا في المؤتمر الحالي.

وفي سياق مختلف، عبرت الأبحاث وأوراق العمل وعروض Powrpoint والخطابات والحوارت التي قدمت في المؤتمر عن الغرور والعجرفة وغطرسة القوة، الذي تملكت قادة إسرائيل، بعد زوال التهديدات التي شكلتها الدول العربية عليها، وكأنها حققت انتصارات كبيرة على هذه الجيوش في معارك ميدانية، متناسية أنها دولة لم تعد قادرة على البقاء في المناطق التي تحتلها في الحروب، مثل جنوب لبنان وقطاع غزة ولا حتى مناطق A في الضفة الغربية ليس خوفا من المقاومة فقط، بل ما هو أقل من ذلك بكثير مثل، التكلفة الاقتصادية العالية، وغيرها من الانعكاسات.

الغرور والعجرفة وغطرسة القوة، عبر عنها في بعض الأبحاث التي قدمت من بينها «الحرب على عدة جبهات والانتصار فيها»، مع العلم أنها لم تنجح في مواجهة عدة آلاف من المقاتلين التابعين لحزب الله في جنوب لبنان، وفي كلمات المتحدثين الذين ذكر بعضهم بـ «أنه لا ينصح أحد في المنطقة بتجربة إسرائيل وتحديها» وأن إسرائيل «دولة لا تهزم» وغيرها من التصريحات الجوفاء التي تعبر فيها عن الخوف، أكثر مما هو عن الشجاعة والقوة.

كذلك أود التركيز على تصريح وزير المالية الإسرائيلي، الذي صرح في الحوار معه ،عند زيارته مدينة رام الله، بقوله أنه فوجئ من الجمال والحياة والحداثة في هذه المدينة، وهو نفس القول الذي تحدث به وزير الدفاع الإسرائيلي السابق موشيه ديان الذي تجول في المدينة بعد عدة أيام من الاحتلال عام ١٩٦٧، الذي صرح في اجتماع الحكومة الإسرائيلية أن رام الله مدينة جميلة وفيها الكثير من الفيلل الراقية.

الجمال والحياة التي تشهدها مدينة رام الله، التي رأها كحلون عام ٢٠١٧ وقبله ديان بخمسين عاما، تتعارض بكل تأكيد مع الثقافة والتربية والتعليم الذي تلقاه اليهود من سن الحضانة حتى التخرج من الجامعة عن المدن الفلسطينية، الموصوفة بأنها خراب وفارغة وملجأ القتلة والإرهاب وتعشش فيها الأوبئة والأمراض، التي جاء اليهود لمحاربتها.

وأخيرا ورغم محاولة المؤتمر والمشاركين فيه، خاصة اليهود منهم، التقليل من الخطر الذي تشكله القضية الفلسطينية على إسرائيل في الوقت الحاضر على الأقل، فإنها لم تخلو من كل الأبحاث وأوراق العمل والاستطلاعات وعروض Powrpoint والخطابات، التي اعتبرها الجميع المهدد الأول على مستقبل دولة إسرائيل.

الرؤية الإسرائيلية الحالية للصراع والحل مع الفلسطينيين، التي تتعارض حتى مع الاتفاقيات الموقعة معهم، تتطلب من الشعب الفلسطيني وقيادته في كل أماكن تواجدهم، تبني رؤية سياسية ونضالية جديدة، تأخذ بعين الاعتبار عناصر تهديد إسرائيل، بدلا من السياسة التي توفر لها نوعا من الاسترخاء والراحة، دفعتها للحديث بنوع من العجرفة والغرور.

أوراق عربية

الدولة بوصفها جهازا للقمع

محمودالورداني*

عندما قال رئيس التحرير لمحرريه: اطمئنوا الرئيس توقف عن قراءة المجلة !

في أواخر ثمانينات القرن الماضي، عرضت محطات التلفزيون العربية مسلسل «زينب والعرش» الذي كتب له السيناريو والحوار الراحلان فتحي غانم وصلاح حافظ، عن رواية الأول الصادرة بالإسم نفسه. وكان معروفا أن الدقائق الخمس والأربعين التي يستغرقها عرض الحلقة الواحدة طوال ثلاثين يوما، تتوقف فيها الحياة تقريبا، فالشوارع خالية والناس داخل بيوتهم متحلقين حول شاشات التلفزيون، والمحال التجارية متوقفة تقريبا. وفي صباح اليوم التالي لاحديث للناس إلا عن أحداث الحلقة التي عُرضت في الليلة الماضية. والمثير للدهشة أن هذا الاهتمام تكرر بمظاهره سالفة الذكر في عدد من البلدان العربية من الخليج إلى المحيط كما يقال!

لم يكن هذا الاهتمام الذي وصل إلى حد الانخراط والتقمص وخلوّ الشوارع في المدن العربية المختلفة من المارة والسيارات بسبب إحكام ودقة فريق العمل بالمسلسل فقط، بل أيضا لأنه كان يتناول عالم الصحافة في مصر في الستينات والسبعينات في القرن الماضي، بكواليسه السرية وعلاقاته الخفية بدوائر السلطة والنفوذ في مصر على مستويات متعددة، وبتأثيره في صناعة الوعي وتأهيل الجماهير لقبول إجراءات وقرارات السلطة الحاكمة، والعلاقة بين أجهزة الأمن والصحافة والجسور الممتدة بينهما، وأشكال القمع ووسائله ضد المعارضين.

قبل ذلك بنحو نصف قرن تقريبا، تمتع الكاتب الإنجليزي جورج أورويل باهتمام فائق من قرائه، واحتلت رواياته الشهيرتان «١٩٤٨-١٩٨٤» و «مزرعة الحيوانات « قائمة أكثر الكتب مبيعا ومازالتا

* روائي وكاتب من مصر

تستحوذان على اهتمام ملايين القراء، وتصدر منهما طبعات متتالية، فضلا عن ترجمتهما إلى أغلب لغات العالم، كل ذلك بسبب ارتكازهما على زاوية محددة، هي الاستبداد السياسي الذي يعتمد على الإعلام والصحافة من أجل الوصول للإرهاب الفكري ومن ثم القمع.

والمعروف أن أورويل ولد عام ١٩٠٣ لأسرة هندية بسيطة، تكبدت المشاق لإرساله للدراسة في انجلترا، واشتغل بالصحافة في عدد من أهم الصحف البريطانية، وشغل العالم بروايته (١٩٤٨-١٩٨٤) التي تخيل فيها العالم عام ١٩٨٤ منقسما بين ثلاث قوى كبرى هي أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا، يدور الصراع بينها للسيطرة على العالم. وتجري الأحداث داخل أوقيانيا التي يحكمها (الأخ الأكبر)، وهو نموذج للحاكم المستبد الذي يراقب الناس ويطلّع على كل تفاصيل حياتهم، داخل وخارج بيوتهم وفي أماكن عملهم ونزهاتهم وحجرات نومهم، بحيث يشعر الجميع برعب متواصل، وينصاعون وينفذّون كل ما يُطلب منهم بأقصى قدر من الدقة.

وحسبما كتب د.جلال أمين في كتابه «شخصيات لها تاريخ «فإن أورويل «يعتبر الطغيان السياسي هو الآفة الأولى في الحياة البشرية، لأنه يُذل الناس ويلغي عقولهم ويفسد لغتهم ويطمس فرديتهم، وتنقلب المعاني والمفاهيم إلى ضدها، ويبرمجهم على القبول التلقائي والاستسلام المهين. وبهذا التدجين والطمس والإلغاء تضمر قابليات الإنسان العظيمة وتستفحل قابلياته السيئة، ويتوقف نمو المعرفة، وتتراجع الحضارة «ويضيف أمين» إن أورويل يحتقر الطبقات الطفيلية، ويتعاطف مع الكادحين ويدافع عن المظلومين وينحاز انحيازا كاملا للفقراء وينفر من المظاهر الفارغة، ويمقت النفاق ويحرص على الوضوح ويؤمن بالمساواة الإنسانية أمام القانون».

والحقيقة أن دور أجهزة الدولة الذي لعبه (الأخ الأكبر عند أورويل) في القمع السياسي والفكري، ظل هو الدور الأساس والرئيس والمسؤولية الأولى، ليس فقط لتصفية المعارضين، بل أيضا من أجل فرض مناخ عام من الخوف والرعب من مجرد مخالفة القوانين التي تسنّها أجهزة الدولة.

ولعل الكاتب التشيكي فرانتس كافكا الذي كتب أغلب أعماله في بدايات القرن الماضي، أشهر من تناول الرعب والخوف من الأجهزة المسيطرة، التي تحصي على المرء حركاته وسكناته، وتلزمه بالانصياع لما يُراد منه، وبلغ كافكا في ذلك الشأن ذرى رفيعة غير مسبوقة، وعلى نحو كوني شامل.

والحال أن كافكا عالج الدولة البوليسية في أكثر صورها وحشية وانتهاكا للخصوصية. فروايته الشهيرة (القضية) تتناول استدعاء جوزيف كا – بطله الأثير في جُل أعماله – للتحقيق أمام جهة غامضة بسبب جريمة أكثر غموضا، ثم محاكمته وإصدار حكم عليه، من دون أن يعرف من هي الجهة التي تحاكمه، ومن دون أن يعرف أيضا جريمته. وفي قصة (الجنود) يحتل الأخيرون مشارف

إحدى المدن. يبدون في البداية كأنهم مجرد عابرين، لكنهم سرعان ما يحتلونها ويذلّون أصحابها، من دون أن نعرف السبب. وفي (مستعمرة العقاب) تمضي الصفحات تلو الصفحات لتصوّر آلة جهنمية مهمتها الوحيدة عقاب من يخرج على ماتفرضه تلك الجهات الغامضة على الأبرياء.

الدولة بوصفها حهازا للقمع إذن، ظلت من أولى البنود المطروحة على «أجندة» الكتاب والمفكرين والمشتغلين بالصحافة والإعلام، سواء القمع المباشر المتمثل في الاعتقال والتعذيب، أو القمع غير المباشر – والأكثر خطورة –المتمثل في فرض مناخ عام من الترويع والخوف الدائمين.

وفي هذا السياق يحكي الكاتب الراحل أحمد عباس صالح في سيرته الذاتية التي صدرت العام ٢٠٠٨بعد وفاته بعنوان (عُمر في العاصفة)، يحكي واقعة بالغة الدلالة حدثت له في العام ١٩٥٢ بعد الثورة. قد لايتذكر الكثيرون أحمد عباس صالح صاحب الكتاب الشهير (اليمين واليسار في الإسلام)، وكان رئيسا لواحدة من أهم المجلات الثقافية وأكثرها تأثيرا وهي مجلة الكاتب، وشغل عدة مناصب ثقافية وصحافية مرموقة.

أما الواقعة التي يحكيها صالح فتتلخص في أنه عمل في تلك الفترة كاتبا للدراما الإذاعية واعُتبر من بين كتاب الصف الأول، وطلب منه مدير التمثيليات في الإذاعة أن يكتب تمثيلية عن حادث ٤ فبراير(شباط) العام ١٩٤٢، عندما حاصرت دبابات الاحتلال البريطاني القصر الملكي في القاهرة، وأجبرت الملك فاروق على تكليف حكومة الوفد بتشكيل الحكومة. تقرر أن تذاع التمثيلية يوم الخميس ٤ فبراير (شباط) العام ١٩٥٤، وهو يوم يشهد نسبة استماع استثنائية لأنه كان مقررا أن تغني فيه أم كلثوم في حفل يحضره ضباط الجيش بمناسبة عودتها من رحلة علاج طويلة خارج البلاد.

وبالفعل أذيعت التمثيلية، وفي اليوم التالي لاحظ صالح أن المخبرين يراقبونه سواء في الإذاعة أو صحيفة الجمهورية التي يعمل بها، وعاش عدة أيام مهددا، فالجميع يتجنبه والمراقبة تشتد، حتى علم من مدير التحرير أن هناك تقريرا كُتب عن التمثيلية مضمونه أنه ضالع في مؤامرة، دبّرها اليساريون، بانتهاز فرصة اليوم الذي يحتشد فيه المصريون لسماع حفل أم كلثوم، فتذاع تلك التمثيلية التي تشجع العمال على الإضراب والتظاهر، خصوصا عمال كفر الدوار الذين أُعدم منهم عاملان منذ فترة قصيرة، فتشتعل كفر الدوار وتنتقل المظاهرات إلى سائر المدن العمالية.

وسرعان ماتم إبلاغ صالح بأن عليه ألا يغادر مبنى صحيفة الجمهورية، وأن ينتظر التحقيق معه. وأمضى يوما كاملا من الحادية عشرة صباحا وحتى الثالثة من فجر اليوم التالي منتظرا المثول أمام جهات التحقيق، واستدعي أخيرا إلى مكتب أنور السادات رئيس المؤسسة التي تصدر الصحيفة آنذاك، وجرى أغرب تحقيق يمكن تخيله. حقق معه جمال عبد الناصر وصلاح سالم والسادات

وعدد آخر من ضباط الثورة. كتب صالح يصف ماحدث:

«لست أذكر بالضبط كم استغرق هذا الاستجواب، ربما خُيّل لي أنه استغرق ساعات، لكنه لم يستغرق في الغالب أكثر من عشرين دقيقة «أثناء جوابي ودفاعي عن نفسي وأنا أواجه صلاح سالم، شعرت بأن خطرا ما يتهددني خلف رأسي، حتى أنني شعرت أن شعر رأسي يقف وأن عليّ أن أقفز بعيدا عن الخطر, وهنا رأيت الرجل الذي يجلس على حافة الكنبة، ويتكئ بذراعه عليها. كان مائلا للأمام يصغي بانتباه، وكان ذا عينين لهما لون غريب بين الأصفر والرمادي. وعندما واجهت عيناي عينيه، انصرف عني ولوّح بيده لصلاح سالم الذي قال لي : تفضل ,.. إمش ..»

لم يكن هذا الشخص إلا جمال عبد الناصر، وكان معنى الأمر الذي تلقاه صالح بالانصراف أنه برئ من الضلوع في المؤامرة المزعومة وإلا ماكانوا صرفوه، ومع ذلك تلقى في اليوم التالي خطاب فصله من عمله في الجمهورية، كما عُلّقت لافتة كبيرة على الباب الخارجي لمبنى الإذاعة بمنعه من الدخول!

الواقع أن سيرة صالح من أكثر السير الذاتية العربية كشفا وتعرية لدور الدولة كجهاز للقمع، لاسيما وأن صاحبها كان قريبا من دوائر صنع القرار، وبالتحديد من آلة الدعاية الجبارة التي عُرف نظام عبد الناصر باستخدامها على نطاق واسع، بل والاعتماد التام عليها في أغلب المعارك التي خاضها. وإذا كانت تلك السيرة تحديدا ظلت منذ نشرها عام ٢٠٠٨ شبه مجهولة ولم يُلتفت إليها تقريبا، فإن السبب لايعود فقط لغياب صاحبها قبل نشرها فقط، بل يعود أيضا إلى أنه أمضى السنوات الأخيرة من حياته مغتربا في عدد من المنافي شبه الاختيارية.

كان صالح قد اضطر للهجرة من مصر قي أعقاب انقلاب السادات على الناصرية، والذي بدأت بوادره عام ١٩٧١ بعد تولّي السادات، ثم اكتمل الانقلاب بعد حرب ١٩٧٣، حيث كانت مهمة جنرال الثقافة الراحل يوسف السباعي تصفية الناصرية في حقل الثقافة، وكانت مجلة (الكاتب) التي يرأس تحريرها صالح، كما سبقت الإشارة، على مدى قرابة عقدين من كبريات المجلات الثقافية العربية، وتمتعت بقدر لابأس به من الاستقلال أتاح لها أن تكون صوتا مختلفا وديمقراطيا، إلا أن الجنرال بادر بمجرد توليه وزارة الثقافة بطلب أصول المجلة للاطلاع عليها قبل النشر، وهو الأمر الذي رفضه مجلس تحرير المجلة وقدّم أعضاؤه استقالة جماعية. ولم تمض أيام على ذلك إلا واستدعي صالح للتحقيق معه بسبب مقال نشره في صحيفة الثورة العراقية اعتبره المحققون معاديا لمصر!

وهكذا اضطر للهجرة بعد أن فقد عمله، شأنه شأن عشرات من رموز الفكر والأدب، فيما عُرف آنذاك بظاهرة الطيور المهاجرة، من بينهم أحمد عبد المعطي حجازي وغالي شكري ومحمود السعدني ..وغيرهم كثيرون.

المحطة الأولى لهجرة صالح كانت في بغداد، حيث عمل أستاذا في معهد المسرح، والتقى في بغداد بميشيل عفلق زعيم حزب البعث، وكان يعيش هناك شبه مسجون، كذلك يشير صالح في سيرته إلى أنه عقد صداقات مع أركان النظام أمثال طارق عزيز، وعدد آخر من المفكرين والكتاب أمثال عبد الرحمن منيف وصلاح خالص..ثم :

«راحت الأمور تسوء في العراق يوما وراء يوم ،حتى انتهز صدام حسين الفرصة، وانتهى من أحمد حسن البكر كرئيس جمهورية وتولى هو الرئاسة، ثم قام بتصفية كل العناصر التي تؤازر مشروع الوحدة مع سوريا ولاتريد تصفية البكر، فقام بإعدامهم جميعا، وقيل إنه كان يقوم بنفسه بتعذيب هؤلاء الخصوم وقتلهم بيده».

وأضاف: «كانت كل الطرق قد أصبحت مسدودة بالنسبة لنا، وكنت بعد إعدام أصدقائى الذين اصطفيتهم في المجتمع العراقي غير قادر على البقاء. وكنت في نفس الوقت غير مستعد للعودة إلى مصر، بسبب بعض التعقيدات التي نشأت من موقفي كمعارض للسياسات القائمة، ولعلي لهذا السبب فكّرت في أن انتقل إلى لندن لأنضم إلى (مركز الدراسات العربية)».

وراح يبذل جهوده في كل اتجاه للسماح له بالرحيل إلى لندن من دون جدوى، وباء ت كل جهوده بالفشل، حتى لجأ لميشيل عفلق الذي توسط له عند صدام حسين. وبعد مماطلة تمت الموافقة على رحيله، ووجد نفسه صباح أحد أيام ديسمبر العام ١٩٨١ في لندن ملحقا صحافيا في السفارة العراقية، وسرعان ماكتشف أنه لاعمل حقيقيا له هناك، وأن الملحق (الحقيقي) هو نزار الحديثي، الذي أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد.

عاش الرجل في محطة هجرته الثانية بعد خروجه من مصر نحو عشر سنوات في لندن، وكان الراتب الذي يتقاضاه من السفارة العراقية قد توقف عدة شهور، حتى وصل إلى حافة الجوع بعد أن نضبت كل موارده. عندئذ تلقى خطابا بأن يسهم في تأليف كتاب عن عبقرية صدام حسين كمفكر!

كتب صالح: «في هذا المناخ الجنوني من القلق كتبتُ موافقا، وجاءني خطاب بتحديد مواعيد الانتهاء من تأليف الكتاب. وعندما جلستُ أخطط لتأليف هذا الكتاب، وجدتني عاجزا تماما عن أن أكتب حرفا واحدا ..لعلي احتقرت نفسي تماما».

وهكذا نجا من وصمة عار كان يمكن ان يظل موصوما بها طول حياته، فالرجل لم يطنطن ويتحدث عن جسارته عندما رفض، بل على العكس تماما، حيث يقول لقارئه أنه اضطر فعلا للموافقة على تأليف الكتاب، لكنه ببساطة «احتقر نفسه» على الموافقة، على الرغم من أن الجوع هو ماكان ينتظره والمستقبل الموحش المظلم.

لم ينقذه إلا الكاتب محمود السعدني ،الذي كان مهاجرا إلى لندن آنذاك، وقام فور علمه بالمشكلة بالحديث مع عثمان العمير رئيس تحرير صحيفة الشرق الأوسط أنذاك حول هذا الأمر، ووافق الأخير على التحاق صالح بأسرة تحرير الشرق الأوسط.

مضت الأيام بصالح في عاصمة الضباب، وتغيرت المنافي الاضطرارية عدة مرات، إلا أن هاجس العودة ظل مسيطرا عليه، حتى عاد بالفعل عام ٢٠٠٤ بعد أحد عشر عاما من الغربة.

تكشف هذه السيرة شبه المجهولة بجلاء عن أن العنف الذي تمارسه الدولة كجهاز للقمع يتزايد، وتتعدد أشكاله الخفية والعلنية ضد الكتاب والمفكرين على وجه الخصوص. وإذا كان جورج أورويل يعتبر الطغيان السياسي هو الآفة الأولى في الحياة البشرية حسب تعبير د.جلال أمين، فإن فرانتس كافكا تناول الدولة ككائن ضخم كلّي القدرة مسلّط على الناس وقادر على سحقهم من دون سبب واضح، بينما تناول الروائي فتحي غانم على نحو خاص عالم الصحافة وعلاقتها بالدولة والتناقضات التي تنشأ بينها. فالدولة تتعامل مع الصحافة بوصفها إحدى أدوات التضليل السياسي – خصوصا في بلدان العالم الثالث – بينما تسعى الصحافة للانفلات والحصول على هامش أوسع من الحرية.

ولايكاد كاتب عربي يضارع الروائي فتحي غانم في اقتحامه لعالم الصحافة بكل تناقضاته وصراعاته الضارية. ومنذ عمله الروائي الضخم «الرجل الذي فقد ظله» في أربعة أجزاء، مرورا ب»زينب والعرش» وحتى «الأفيال» من الصعب أن نجد كاتبا تمكن من كشف وتعرية دور الصحافة وعلاقتها بجهاز الدولة على هذا النحو الدقيق.

ويتميز غانم بتلك اللغة النقية الناصعة والخالية من التوشية، كما يتميز بوضوح مشاهده وشخوصه، وتلك الفخاخ التي ينصبها لقارئه لجذبه وإثارته ليلج إلى عالمه الروائي. وفي فترة مبكرة من حياته تنبه غانم إلى خطورة حركة الإسلام السياسي حين كتب روايته «تلك الأيام « في خمسينات القرن الماضي، وتناول من خلالها فكرة الإرهاب بظلالها المختلفة وتأثيرها على الشباب، وهو ماعاد له بعد عدة عقود حين كتب روايته الأخيرة «ألأفيال» التي اخترقت عالم الحركات الجهادية.

وفي عام ١٩٩٥ نشر كتابه «معركة بين الدولة والمثقفين» تعليقا على كتاب الباحثة السويدية مارينا ستاج: «حدود حرية التعبير في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات»، ومن خلال هذا التعليق الذي طال حتى اقترب عدد صفحاته من مائة وخمسين صفحة، قدّم غانم شهادة دقيقة وصادمة عن كواليس الحكم والسياسة.

ففي مطلع الثورة كان القراء، حسبما كتب غانم في الكتاب المشار إليه «يستقبلون كل يوم إحدى وعشرين صحيفة يومية، ويختارون كل أسبوع بين مائة وإحدى وعشرين مجلة أسبوعية، ولهم

الحق في قراءة مائة واثنتين وسبعين مجلة شهرية أو نصف شهرية».

ويضيف أن المعركة بين الدولة الجديدة، دولة الضباط، وبين الديمقراطية بدأت بعد شهر عسل قصير «بعد ثلاثة أسابيع على قيام الثورة كانت بداية حركة قمع إضراب عمال كفر الدوار، حيث قُتل ستة وصدر الحكم بإعدام اثنين اعتبرا من قادة الإضراب بعد محاكمة عسكرية، وتم تنفيذ الحكم شنقا في اليوم التالي لصدور الحكم في نفس الموقع الذي تظاهر فيه العمال».

وبعد مرور اكثر من عشرين عاما تولى انور السادات الحكم، واستقدم الكاتب الراحل عبد الرحمن الشرقاوي، الذي كان أحد رجالات الرئيس، وعيّنه رئيسا لمؤسسة روز اليوسف، واستطاع إقناع السادات بتعيين فتحي غانم وصلاح حافظ رئيسين للتحرير. حاول السادات استخدام روز اليوسف كمخلب يساري في معاركه ضد خصومه، وخصوصا بعد انتفاضة الطعام التي شارك فيها مئات الآلاف عام ١٩٧٧ في طول البلاد وعرضها، وشكّلت تهديدا حقيقيا للحكم، حتى أن السادات أطلق عليها (انتفاضة الحرامية)، بل وكانت السبب في أن السادات قرر ألا يكون هناك أي هامش ديمقراطي، لأن روز اليوسف لم تستطع أن تخون تقاليدها في الدفاع عن الديمقراطية، وتمضي مع السادات حتى آخر الشوط، ورفضت أن تطلق على انتفاضة الفقراء الجائعين انتفاضة اللصوص كما أراد السادات.

وهكذا كان فتحي غانم من أوائل الذين أمر السادات بخروجهم من روز اليوسف، وعيّن بدلا منه رئيس تحرير جديد أصدر أعدادا قليلة من المجلة، ثم عقد اجتماعا للمحررين وزفّ لهم الخبر السعيد التالي:

«اطمئنوا ..نجحنا في روز اليوسف ..الرئيس لم يعد مهتما بالمجلة ولقد كفّ عن طلبها وقراءتها».

والمقصود بطبيعة الحال أن روز اليوسف كفت عن أن تكون منبرا للرأي والرأي الآخر، وكفت عن إثارة اهتمام الرئيس وتحولت إلى نشرة باهتة بلا طعم!

وفي النهاية، وبعد هذه الجولة المتنوعة في الزمان والمكان، يبدو أن الدولة ظلت على الدوام جهازا للقمع، كما لم تكف عن استخدام أدوات متنوعة أيضا للسيطرة سواء كانت ناعمة أو فظة، فالمهم تحقيق تلك السيطرة، حتى لو ضيّع رئيس الدولة وقته في حصار مجلة يقرؤها عدد محدود من القراء!

رام الله / فلسطين: أشواق الزيارة الثالثة

أحمد المديني*

٥ أبريل ٢٠١٧ (صباحا)

إنها التاسعة صباحا. أنا جالس داخل باص شركة «إير فرانس». وجهة الباص مطار شارل ديغول، شمال شرقي باريس. ينبغي أن أصل إلى المطار بعد ساعة لأسجل حقيبتي قبل ساعتين من الإقلاع. وجهتي أنا عمّان، عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية. يُفترض أن تقلع طائرة الملكية الأردنية في الثانية عشرة ظهرا و١٥ د، لتصل إلى مطار الملكة علياء بعد أربع ساعات ونصف. تتوالى منسابة أمام عيني على يميني وشمالي في طريق المطار الشمالي: عمارات مكاتب كبريات الشركات؛ أبراج ومداخن المصانع؛ المخازن الهائلة لمتاجر كبرى تتكدس فيها البضائع؛ لوحات وأسماء علامات الإشهار التجاري تصعق العين على التوالي. بينما الطريق تنساب. من أعلاها القادمون من شمال فرنسا وأوروبا، مدن ليل، بروكسل، أمستردام، الوافدون على باريس أمّ المدن، ودونها جنوبا حتى أعماق وأدغال إفريقيا. ومن حيث الباص الذي أركب القاصدون شمالا منفتحا حتى قطبه الأعلى. الآن، وكما بات يحدث لي في هذا الطريق منذ أعوام، قاصدا المشرق العربي، تنفتح عيناي على وُسعهما لا تكادان تطرفان. تتشرّبان أخضرَ الغابات المنتشرة من الجانبين. الأشجار، الأشجار، باللون الموصوف في القرآن وحده بالمُدهامّ . هذه الخضرة الفرنسية التي ما تنفك تتبدل مع الفصول، بين الليل والنهار، الدقيقة والثانية، دقّة الساعة ونبض القلب، تحتسيان الأخضر وتسربانه إلى أعمق زوايا ومنافذ الجسد، دعك من الروح، تخزّنانه داخلَه، وفي وقت مفتقد. حين أصل إلى أرض عربية، صحراوية، أو مقفرة جرداء، رغم غناها ظاهرا أو باطنا، أتحسّس ذراعيّ، وأمسح وجهي براحة يدي، فأستنبت الشجرةَ والغابة وأجلس تحت فيئهما. أخاف فجأة أن أفقد

* روائي وأكاديمي من المغرب

هذا الأخضر أبدا، وهذه المدينة العظيمة خلفي باقية. وها المعالم الأولى للمطار، في الحقيقة مطارات، تبرز، وفي محطة ترمنال ٢ سأنزل، أنزل.

وأنا أهم بتسجيل حقيبتي لدى شركة الملكة علياء، تقدم إليّ بلهفة شابٌّ عربيٌّ السّحنة، بادر بلهجة عراقية أعرفها يسألني، يترجاني طالبا مني خدمة. هل هو ابن سبيل؟ بتر تخميني فورا يشير إلى رجل مسنٍّ، ظاهر التعب، هذا أبي، أرجوك أن تساعده في إجراءات المطار الداخلية، إلى أن يلج الطائرة، إلى أن يصل إلى عمّان، سيعبر فقط منها ليتجه إلى النّجف، محطته الأخيرة. طمأنتُه: لا تقلق. ظل ملهوفا رغم هذا. أُمسكُ بيد الأب ونحن نقف في طابور ختم الجواز، ومنه إلى المنطقة الدولية متحررين، أيُّ عبور ربما شبيه بالصراط. في عقود خلت، سبعينية وما تلاها يتلو، كان السفر طيرانا نزهةً ورفيفا وانشراحا، واليوم انقلب، بعد حوادث ومخاطر وتبعات الإرهاب الشنيعة حقا مشقةً لا مزيد عليها، إحتياطات تكاد معها تسلخ جلدك عنك ولا تنتهي، والأبُ العراقيّ من سوء حظه دققوا فيه كمخطوط بابلي، أنا حذوَه النَّعل بالنّعل، أخيرا وصلنا إلى بوابة إقلاعنا، واصطففنا نحن المسافرين نلج الطائرة تحلق في موعدها نحو مطار الملكة علياء. تذكرت أخيرا أني مسافر إلى عمان، لا هي محطة عبور فقط، وجهتي رام الله، في فلسطين، فلسطين، ما أحلى الرجوع إليها.

٥ أبريل ٢٠١٥(مساء)

من عدد زياراتي لعمان، من أُلفتي بها، تحولت إلى مدينة أخرى لي، كأني لم أبرَحها إلا قبل أيام، ووصولي إليها هو عودة واستئنافٌ، لا التحاق بمكان، أعرف حجره وبشره وهرجه وفرَحه وكدَره، ولي فيه أحبة وأصدقاء وذكريات تحيي العظام وهي رميم. غدت واحدةً من مدن أرتادها وأقبَلها بِدَعة. أتنقل فيها تقريبا كسائر أبنائها، حتى صرت أتقبلها كما هي دون شروط مسبقة ولا إسقاطات، خاصة مقيم مثلي في حاضرة ترنو إليها عيون العالم. تعلمت من الترحّل في الدنيا أن آخذ ما يُعطى من المكان، بما هو كائن، أحترم فيه إقامة أهله وما يحبون أو يألفون فيه، أو أرحل عنه، لن تصنع أرضا لكل فرد، بينما هي للجميع . شرطة مطار عمّان كأنها اعتادت عليّ، وهم رجالٌ يقظون ومهذبون. سؤال بلا إلحاح، وها أنا ذا صرت في مساء العرب، على عتبة مدينة في قلب خريطتهم وشاغل زمنهم، أي دليل أنها أصبحت ملاذ شعوب، العراقيون والسوريون، وقبل أمس الفلسطينيون؛ هؤلاء وجهتي.

سأقضي ليلة واحدة في عمان، وعندما ينبلج الصباح أغادرها في السيارة التي ستحضر على السابعة صباحا أمام باب الفندق، أركبها مع آخرين لتقلّنا غربا حتى نهاية الحدود الأردنية، بعدها جسر اللنبي، حيث المعبر الإسرائيلي إلى الأرض المغتصبة. ليلة لم أنمها. عشت مثلها في رحلة سابقة. في رحلات يختلط فيها الشوق بالقلق بالتوقع وكمّ الإحتمالات. لم يخطر ببالي أن أتصل بأحد في هذه الليلة العابرة. لم أحس

بجوع ولا عطش، نوم، أرق. أنا في ما يسمى ب(NO MAN'S LAND)، هذا بالطبع افتراضٌ شعوريّ لأني فوق أرض محمية ذات سيادة. وهو في آن سيناريو متوهّم بما أني سأقصد أرضا عدّها الغاصبون كأنها كذلك، وحين سأقف على عتبة ترابها سأدفع جوازي إلى شرطي إسرائيلي هو من يتحكم في قرار دخولي إليها أو إبعادي في الحين، أسوأ منه أن لا حقّ لي في التلفظ باسم فلسطين!

الليل عندي مقدس، عبادة، وقت لا أحب إهداره أبدا. زمنٌ داخلَ الوقت وخارجَه، ومستقل. يومي جمعةٌ لليلة سبت. عمّان حافلةٌ تحفل بالسهر إن عرفتَ السبيل إليه، رغم أنك تحسبك في مدينة مصمتة، سكانها يميلون إلى الانكفاء داخل بيوتهم، ويتكلمون قليلا كأنهم خاشعون أو يحذرون. في فندقي آخرون ذاهبون إلى نفس مهمتي، أو سيفدون أثناء الليل. هذا الوجه وذاك. أشمّ رائحة الكريم من المقتّر. لا أفهم، من يفهم كيف يكون كاتب بخيلا، شحيحا، ويدّعي العطاء، فالأدب هِبة، فيض، خبز الأرض وفاكهتها وأريجها، وسماحة النفس، كيف بغيث الخيال. أشحتُ عن وجهه، أعلم سيعتبر أنه كسب بشطارة البخل يوما جديدا لم ينفق فيه درهما. أكد لمّا أعلن تعفّفه من وجبة العشاء. في الغد لم يفطر أيضا. في الطريق لم يشرب ماءً. زعم أنه سيرتوي بلقاء فلسطين. كدت أعدل عن هذه الرحلة. ثم، فكرت، سأجد مثله كثير، وإذن، قلت:» دع ذا وعدِّ القول في هرم». ستغنم ليالٍ قادمة في عمان وشقيقاتها، ستحتاج إليهما مع أول خيط ضوء لتكابد، فإنك مررت بالتجربة، وعليك أن تتحمل أكثر.

٦ أبريل ٢٠١٧ (صباحا)

لم أنم. لم أصْح. أنا في نوم يقظٍ. ركبت السيارة الجماعية، ستقصد المعبر الإسرائيلي. ستقصد أراضي الضفة الغربية. ترابٌ يصطلح على تسميته أراضي السلطة الفلسطينية. هكذا يصبح إطلاق فلسطين إسما في الذاكرة يرجع إلى بعيد، كما لو قلت معركة صِّفين، أو الأندلس، وليس بلدا، دولة بالمعنى الحديث. هذا مطلب. هذا مطلب وطني. هذا مطلب عربي. هذا حلم. الحلم أحيانا أقوى من الواقع، لأنه يتضمنه منتصرا على العجز فيه، ليجعله ممكنا، لا تبقى فلسطين نكبة، ذكرى، حسرة، حلما بعيد المنال للعودة؛ إنها العودة، عودتي.

طريق الذهاب تمشي في رأسي، مرسومةً إمتدت أو تعرّجت، صعودا ونزولا. طريق سلكتها مرتين من قبل، وفي كل مرة مشاهدُ ومعالمُ وأحاسيسُ خاصةً. إنك لا تسبح في النهر مرتين، قال فلاسفة الإغريق. تستغرقك في المرة الأولى رغبة التعرف بلهفة الإكتشاف. تنظر بأكثر من عين، والعين كاميرا، فيما ترى وتكتشف، تصور وتسجل جزءا وكلاًّ، لئلّا يفلت شيء، لأن هناك ذاكرةً تخزِّن، وتحتاج إلى سَعة الرؤية وغناها، لصاحبها مشروع أن يروي غداً مرئياتِه، رحلتَه. ليس من رأى كمن سمع. ما همّ بعد ذلك أن يزيد من رأسه، أن يشِطَّ به الخيال. لذلك أعتبر كتابةَ الرحلة، حين تأتي متقنة، جنسا أدبيا تتسع وتتلون بهذا الخيال، مثل الكذب على اللسان، يبدأ من حقيقة أكيدة ويُسرف بعد حتى المحال.

ستون كيلومترا فقط بين نقطة الإنطلاق وموقع الجمرك الأردني، وعبورا بعده لمنطقة خلاء تصبح في الموقع الإسرائيلي. ٦٠ كلم مسافة خفيفة على اللسان، ما أثقلها أحيانا في الميزان. تنوء بها حقا في المرة الثانية، وإن كابرتَ لا تظهر برَما. تُجدِدُ النظرَ إلى ما تمنحه الطريق من لوحات طبيعة، بين جبال وتلال وحقول وأراضٍ جرداءَ وبيوت ناتئة في الأعالي ودكاكينَ تبيع لعبا منفوخة للأطفال الذاهبين للسباحة مع عائلاتهم في البحر الميت. ثم الأرض شجر موز، جُلها أشجار سدر، وهناك على مرمى البصر فلسطين، ساكنة في القلب والعين، إنما مخفية وراء الأسلاك، دونها نقطة المعبر الإسرائيلي غصّة وحقيقة أيّ فظاظة.

في المرة الثالثة، بجانبك ركّابٌ، كُتابٌ ذاهبون لقصدك. لا شك تتناهبهم مشاعر شتى، إنما عجبا حولهم لا ينظرون. تعذرهم، فلهفتهم تغشى معها الأبصار، علما بأن المكان أول ما ينبغي أن يلفت نظر الكاتب، مع الإنسان، طبعا. المكان حفظته، وناسُ الحدود هم، هم، قُدُّوا من طين واحد. إنما، قلت لرفقتي عند معبر الإسرائيلي أوصيكم بالثبات، بالصبر، إفترضوا أنكم تمشون في النوم، وابلعوا أي استفزاز محتمل، أنكم تملكون جميعا تصاريح الدخول وهم من منحوها، فإن ردّوكم فهي سلطتهم مرة أخرى، لرجال الحدود جميع السلطات منها أن يبقوننا ساعات في الإنتظار قبل العبور، نكايةً، إغاظةً، مقتا، تنكيلا نفسيا، لنتعلم أن لا نأتي. إن ردّونا فسننضم إلى طابور عشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين ينتظرون حق العودة. منذ ٤٨ وهم صابرون صامدون، ونحن، أنتم، متعجّلون، فلسطين تستحق العناء يا..

٦ أبريل ٢٠١٧(بقية اليوم)

تستقبلك أريحا كما تركتها منذ عام. بطحاؤها بيوتٌ لطيفة بأغراس وظلال. سوقُها وافرةٌ، ببضاعة نافقة. لا بد تسمع من يخبرك أنها أخفض منطقة في العالم، هي من أقدم مدنه. على عظمة تاريخها تبدو كأن لا أحد يبالي بها، فالشوق والمبتغى أمام، مررنا بها مرور الكرام . في مقر استراحة الضيوف، حيث يستقبلك المضيف الفلسطيني بعد أريحا، إفتقدت صديقي الشاعر عبد السلام العطاري، كنت متلهفا لحضنه الذي أخذني إليه في زيارتي الأولى، ناب عنه ترحابٌ غامر ترقرق في عيون وأيدٍ تصافح بمحبة تمدّ لك قهوةً عربية راووقها خضِل. من الإستراحة أقلّنا باص كبير وعددنا قليل. كنت قريبا منه في الركن الأيمن، يسوق بسرعة في طريق مفردة ضيقة، هذا وحده المتاح للفلسطينيين، خلافا للطرق السيارة للإسرائيليين. على الجانبين جرود وتلال، بقاعٌ خلاء بتضاريس وعرة تشعرك بالضآلة، وأنك بلا ريب في أرض أول الدنيا، خلا خيام لبدو رُحّل ما زالوا يصرون على رعي مواشيهم يتبعون الكلأ في هذه القفار الشاسعة، ساعة البدء قبيل الفجر يكون النبت نديّا فيبلّ بذا عطشُ الشياه. بدوٌ بين مطرقة الطبيعة القاسية وسندان الإحتلال، يتعقبهم، وهم مهما كان بهمتهم صامدون.

فجأةً، يطلب منا السائق ربط حزام الأمان. ما الخبر؟ بعد كيلومتر سنفهم. إستدارة بمثابة نقطة مراقبة

إسرائيلية. وبعد؟ إنهم ينتبهون لربط الأحزمة أيضا، واما المخالفة ثقيلة. بعد اجتيازنا الإستدارة قال السائق مستريحا: فكوا الأحزمة! هه، إستهجنت قوله، أفكر في القانون، ثم راجعت رأيي، هذا كل ما يعني الإسرائيلي، إنما بأي قانون وشريعة يحتل أرض الآخرين؟! في المرة الثالثة فقط أنتبه أن الدخول إلى مدينة رام الله محكوم بمعبر المحتل، زيادة على السياجات الشائكة والثكنات وأبراج المراقبة بالأعالي، هي وثآليل المستوطنات المزروعة أوراما فوق جلد الأرض الفلسطينية تذكرك كلما انساب المدى طليقا أن الإحتلال هو السيد! أبلع غصتي. هي رام مهما طال السفر. حقا طال. مائة كلم في خط سفر أغلبه منبسط ، لا يتطلب أكثر من ساعتين، يحتاج إلى ست ساعات، عشرة، أنت وحظك في المعبر، ومزاج الإسرائيلي، فإن كنت برفقة كاتب إرتيري باسم حجي جابر فربما إلى الدهر وأكثر! يحتاج الروائيون إلى خوض التجارب، إلى خبرة الحياة بدقة، وإلى المحن، أيضا، بعض قوة همنغوي، مثلا، وقد قُدِّم لرفقتي من الروائيين العرب القادمين لملتقى رام الله الأول للرواية العربية، وجبة أولى، فعجبت كيف وقفَت في حلقهم وهي أولى فقط، سأرى منهم أعجب، مما سأرويه لاحقا قد يثير الغضب. وإن عذرت حيناً سذاجةً فيهم وإفراطا في العجب، ونحن ندخل المدينة من شارع عريض، يمضي باصُنا في عصر السبت المعطل وسط زحام السيارات وهرج اليومي ومرور العابرين اللائق في طرق منسقة، بوجوه مستبشرة، وموكب يزفُّ عروسين، ياه، شو هيدة؟ ! من خلف زجاج الباص جحظت عينا كاتبة جاءت معوِّلة على إقامة قربان للحداد، هذا ما يليق بالفلسطيني عندها لا الفرح،، وقف الباص أخيرا أمام فندق يليق بإقامة الكتاب، فنزلنا مثقلين بالتعب، بينما فغرت فاها أوسع!

٧ أبريل ٢٠١٧

إنه يوم الأحد. السابع من أبريل المقرر لافتتاح ملتقى الرواية العربية الذي دعت إليه وتنظمه وزارة الثقافة في دولة فلسطين. لهذا الغرض جئنا، نحن المجموعة الأولى من روائيين وكتاب عرب. وسيني الأعرج، الحبيب السالمي، زهير الجزائري، كاتب صحفي عراقي، ومها حسن، كاتبة سورية كردية، كما تقدم نفسها، وعبد ربه. وصلنا الأوائل، تعفينا جوازاتنا الأوروبية من الحصول على التصريح الإسرائيلي للعبور إلى أراضي السلطة الفلسطينية. علمت من قبل أن وزارة الثقافة تنتظر التوصل بأربعين تصريحا، وعشرة فقط بحوزتها سيلتحق أصحابها بنا تباعا، والأخرون؟ العلم عند علام الغيوب وقرار الإسرائيلي. هذا واقع الحال، إنهم يتحكمون في الدخول والخروج، وفي المناسبات الثقافية يتعاملون إمّا بالمزاج أو القطارة. لا داعي للإسهاب في الشرح غرضهم عرقلة النشاط الثقافي الفلسطيني، بأي حجم وشكل. في العام الماضي، في التوقيت نفسه لدى انتظام معرض الكتاب في رام الله، نُصبت الخيام، وحضر قسم من العارضين والكتاب المدعوين، بينما بقيت أجنحة كثيرة فارغة أو نصف، لم تصل كتبها إطلاقا، أو في نهاية المعرض. كان فوزا ونصرا أنه انعقد. شعور التحدي وإرادة القرار حضرا بقوة صبيحة يوم الأحد هذا حين اجتمعنا في الحادية عشرة بمسرح بلدية رام الله للافتتاح الرسمي لملتقى الرواية العربية. وزير الثقافة

الأستاذ إيهاب بسيسو والأدباء الفلسطينيون وجمهور رام الله والبيرة، ونحن الواصلين المحظوظين معهم لا نخفي ابتهاجنا مغمورين بأيّما ترحاب، وكل ما حولنا مرتّب بعناية لا تجدها في أفضل محافل البلدان العربية المستقرة. إنطلاق برنامج الملتقى بعنوانه الدقيق:» التجربة الذاتية في الرواية العربية» وُزِّع إلى عناوين صغيرة بين شهادات الروائيين، ومداخلات دارسين حول تيمة أساس في السرد العربي الحديث، لهو الرسالة الأولى فحواها أن الأمر جد، وأن عرقلة تنظيم الملتقى لا تُجدي، بأن المشاركين جادون، ألا انظروا كيف يتحدثون فوق منصة راسخة أمام جمهور مهتم ويقظ، بخطاب أدبي نقدي سديد. نعم، إن النصرة والحماس للقضية ومثله من الإلتزامات والشعارات حاضر، لكنها هذه المرة تتجلى بمظهر إلتزام في جوهر العمل الثقافي ضمن القضية الوطنية العليا. ورسالة ثانية، للحاضرين وأبعد، ليكون مفهوما أن الفلسطينيين بالمتاح لهم من أرض ومقدرة مؤهلون ثقافيا مثل أشقائهم لينظموا المحافل الجادة ويجمعوا إليها الكُتاب المعتمدين، وأن تصبح بلادهم منارة إشعاع للإبداع والفكر. هذا ما أومن به، وذا حافزي للزيارة الثالثة لفلسطين، حقيقية وأرضا مغتصبة. خلا ساعة غذاء، إتصلت جلسات اللقاء الأولى، بين عروض ومناقشة ثرية إلى ما بعد السابعة مساء، أصواتها الأدباء والأكاديميون الفلسطينيون والحضور العام، والجو كله إلى رصانته التي نفتقد غالبا في الملتقيات العربية تسري فيه الألفة ومشاعر حارة بين إخوة فشل الإحتلال أن يحول بين لقائهم، فضمتهم عروبتهم وإرادتهم وإيمانهم بقوة وجدارة الكلمة، الرواية اليوم صوتها الأعلى والأجمل.

٧ أبريل ٢٠١٧(فجوة من اليوم)

بعد ظهيرة اليوم الدراسي الأول، تسللت من القاعة تحت ضغط حاجة ملحة. قضيتها سريعا وعدت. قطعت خطوتي صحافية تدعوني لحوار مع قناة خليجية. إعتذرت بالندوة فألحّت. لبّيت لياقةً شرط أن لا نطيل. سألتْ بعد أن رتبت الكاميرا: لماذا جئت؟ ـ نعم، لا أفهم؟ ـ أقصد، تقول، أعني، ألم تفكر في مسألة التطبيع وتبعاتها، و..؟ لم أتركها تكمل، بالأحرى تركتها لسؤالها، سمجا، ركيكا، معلّبا،عندي،لا يقدم ويؤخر. ببساطة، لا يعنيني. منذ زيارتي الأولى كنت قد حسمت أمري مبكرا مع هذا السؤال، ولا أحب الخوض في أيِّهما أسبق الدجاجةُ أم البيضة. نعم، البُنيّة تظن أنها تعمل شغلها. هي ومن أرسلها ل» التغطية»، شأنه ليس الحدث الذي نحن فيه، الأدب، الرواية، القيمة الثقافية، يريد اللغط، إفتعال إثارة، هذا إعلام العرب اليوم، جله لغط، والرواية جدٌّ إذا تولاها أهلها، هم نحن من حلّ بأرض أنجبت إميل حبيبي وغسان كنفاني ويحي يخلف، وللشعر سيده بلا منازع محمود درويش. من وقت بعيد تعلمت الدرس في المغرب من رجلين كبيرين، وثيقيْ الصلة بالقضية الفلسطينية: الملك الحسن الثاني، والزعيم الإتحادي عبد الرحيم بوعبيد، قالا معا في مطلع السبعينات، والخطاب كان موجها لأبو عمار، الفلسطينيون أولا، ونحن وراء كلمتهم، أي لن ننوب عنهم أو نزايد على مطالبهم، وهذا ما تبناه

أغلبية المغاربة شعبا ونُخبا باستثناء فئة يسار محدودة. لذا، آمنت وأستمر في اعتبار ساسة وأبناء هذه الأرض أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في نضالهم وكيفية استرجاع حقوقهم وبناء دولتهم وفق ظروفهم وجبروت إسرائيل والقوى المناهضة لهم. ظل هذا عقودا شعار وأسلوب الجمعية المغربية لمساندة الشعب الفلسطيني، أحسب ما يزال. وإني لأعجب بعد هذا كيف لأنظمة حكم مستقرة داخل أوطانها أن تفرد راية وصايتها على من أرضهم مغتصبة وشعبهم مشرّد متبجحةً بأكثر من مبدأ وشعار لهذا. أما اؤلئك البطِرون من كتاب أو مثقفين، المستريحون في بيوتهم، المنتشون ب» رفضهم» و»ممانعاتهم» ما همّ ب»كم»، وبينما الخيل تعلك في المعارك هم يعلكون أحلام يقظة باهتة، وحبذا لو بقوا هنا لا يشنِّعون وينفخون أوداجهم بفقاقيع الطبيعة وما وراء التطبيع، أووف!

في هنيهات استراحة عصر هذا اليوم، خرجت سندريللا من وراء المرآة. كنت واقفا بيدي كوب شاي ربما صعدت من بخاره، وانتصبت أمامي بقامتها: أعرفك؛ وأنا أريد أن أعرفك. أنا مايا الحيات. وأنا أحمد من أذربيجان. ها، أنت الذي بلغني أنه يحب الباذنجان،، وشقشق الضحك نافورةً، والابتسامات بل الضحكات وردا وضوعَ رياحين، على اللسان تدفق الكلام شلالا تجمهر حولنا صرنا حولها طوقَ ورد، وهي باقةٌ تهدي كل زائر عربي على قدر خياله ما يبغي ويفيض عن حاجته من الحكايات، ولم نعرف نحن الذين في هنيهة الإستراحة في أيدينا كوب شاي قهوة، نحن العرب المطبِّعين طبعا، من أين هجم أطفال رام الله كلهم واختطفوا مايا، بأيديهم فوانيس مضيئة في النهار، رفعوها عاليا بأيد غير مرئية،وبأخرى تضرّعوا إليها مايا مايا نريد حكايات، لنا، لضيوفنا، إخوتنا يا بنت فلسطين أجمل حكاية..!

٨ أبريل ٢٠١٧

هو اليوم الثاني من ملتقى الرواية. يا فتاح يا رزاق. أجلت عيني في مطعم فندق موفنبيك حيث الإقامة أتخيّر مكانا يناسبني للفطور. كتابُ أمس هنا. وأخرون وصلوا ليلا، هم وناشرون. جميلٌ، فعددنا يكبر إذن. والخرق يتسع على المحتل. عانقت وسلمت: إبراهيم فرغلي، الروائي المصري، الوديع، دائما على أهبة الإبتسام. زميله محمود الورداني، نحيل، ساكن صمته منذ قرون كأبي الهول، وفي رأسه تدور صور وأفكار. الروائي وصاحب دار نشر ضفاف هشام أبو حشيش يجالس الناشر الفلسطيني ماهر الكيالي، أخو الشهيد عبد الوهاب الكيالي. ومن هذا؟ هو وليس هو. إشتبه عليّ لبعض سمنة. قابلته في معرض أبو ظبي للكتاب قبل عام، ونتعارف بقراءة متبادلة. رأيت إسمه في قائمة المدعوين وتمنيت أن ينال النصيب، مع الزول السوداني حمور زيادة. أقبل علينا متهللا فأخذناه بالحضن، وصلتنا أمس هبّة من طلعته، فجالسَنا وهو لا يكف يتلفت حوله ويتفحص وجوهنا كموميات مكتشفة وبدورنا نفعل تجاهه، ولهذا قصة تُروى. أصبعٌ تنقُر كالطير من صحن، ويدٌ على الهاتف لا تريم، ولسان يروي أن حجي جابر وصل عصر أمس إلى مطار عمان قادما من الدوحة حيث يعمل. نظر إليه شرطة الحدود بتعجب، عندهم أنه

أول إرتيري يصل إلى المملكة، خاصة وجنابه لا يحمل تأشيرة. قلت لهم أنا عابر، ذاهب إلى رام الله وهذا تصريح اليهود، فأخذوني إلى صاحب المخابرات الذي سألني ألف سؤال، لابأس، ثم تركوني وأنا أنتظر، ثم قلت لهم إسألوا الفلسطينيين، وتحركت الهواتف أخيرا من جهات وبأصوات، وبعد ست ساعات جاءني على عجل من يعيد إليّ جوازي مختوما ومرحبا، والطريف أنه دعاني إلى الإسراع بمغادرة المطار كي ألتحق بالمعبر الإسرائيلي، حذار، يغلقون في منتصف الليل، وضمنا لا حقّ لي بالمبيت في عمان، لأني قانونيا في حالة عبور، يا الله يا حجي. أخذني من كان ينتظرني ساعات إلى الطريق قطعناها ليلا وتعبا وسرعة لنلحق بالمعبر قبل إغلاق بني صهيون، تعجبوا بدورهم من وصول كائن إرتيري إلى «أرض الميعاد»، خاصة من جهة البر العربي، مضت ثلاث ساعات لما وصلوا إلى التعرف على فصيلة دمي، وأخلوا سبيلي، وها أنا بينكم أخيرا، طلق الأسارير، بلا برَم، كعائد من نزهة، وغادرنا إلى القاعة.

عنوان ملتقانا، كما أسلفت، هو التجربة الذاتية في الرواية العربية. هو عنوانٌ تقريبي، تمثيليٌّ أكثر منه تخصيصيّ، أي قابلٌ للتأويل والتوسّع فتدخل فيه قراءاتٌ ومقارباتٌ شتّى، مما يُستحَب في مثل هذه الملتقيات. غير أن هذا لا يعني إرسال الكلام على عواهنه، واعتبارَ موقع الكاتب أريكةً تسمح للجالس عليها قول الشارد والوارد. الكتابة عندي إلى جانب موهبة وصنعة المؤلف ثقافةٌ ومسؤوليةٌ وعمل جديّ، وحين يجلس الكاتب أمام قرائه ومستمعيه ينبغي أن يقنعهم بهذه الحيازات خيرٌ من أن يهرف، غيابُه أفضل. لذلك تضايقت من جلسة هذه الصبيحة، وعزوت السبب إلى أن موضوعا كالمعلن يحتاج إلى إطراق وفهم أعمق بمعنى التجربة، بجوهر الذات، بجنس الرواية، لا إلى الإستعراض وإشهار الذات.

٨ أبريل ٢٠١٧ ذات أوقات

من الفندق إلى مقر اللقاء يتهادى الباص بين صعود ونزول، فلرام الله تضاريس حلزونية. تبدأ من سهل تحتها وتنهض أرضُها تلالا إما متصاعدةً فوق بعضها، أو متجاورةً تاركةً مساحاتٍ منبسطة صغيرة، وفي الوضعين فهي متشابكةُ العمران، متنوعتُه، متداخلةٌ مع بلدية البيرة الملاصقة ، يصرّ ساكنتها التميز عن جيرتهم أصولا وثقافة وسلوكا، محافظين على الخصوص، إزاء أهل رام الله، متعددي الديانة، متفتحين. هنا أنت في حاضرة كاملة تُميزها بخُططها ومعالمها الحديثة إن كنت من أهل الحضر، والتاريخ ناطق في أحيائها العتيقة وزوايا تكمن فيها الأسرار، ويُسمع كلامٌ، تُرى ألوانٌ، تُشمّ روائحُ تفركها بين يديك.

أخرج من القاعة مؤقتا لأقطف باقة من زرقة السماء. السماءُ فوق عالية، لا شك أقرب نقطة إلى الله بما أنها أرض الأديان. فكرت أن الإنسان هنا روحٌ أولا والجسدُ يحمله فقط، روحٌ تحمل إيمانها وتنتقل عبر الأزمنة بقَدَرها، لذلك كم هو صعب ومجهد أن تكون فلسطينيا. يرتدّ إليّ البصر حسيرا، نصالاً سُدِّدت من تلك البيوت البيضاء المعلقة كسوار يشرف على المدينة، المستوطنات، فأرسل ذراعي بالتحدي لعين

ثمة تراقبنا، نحن هنا سنبقى، لن نغادر.

أعود إلى القاعة، فأسمع إيهاب بسيسو يستفيض في نقاش عن التجربة والحياة والرواية. وزير للثقافة لا يغادر الجلسة أبدا. يعتنى بالجميع سواسية. يرتجل فتظن أنه يقرأ من كتاب، بعمق ودقة وبيان. فلسطين ولاّدة. معه، حوله، شبابٌ وفتيانٌ كالفراش يحومون. يؤدون مهامهم بثقة ولياقة وفعالية. شراكةٌ وألفةٌ سارية. نخجل من لطفهم، حفاوتهم، بديعة زيدان منسقة اللقاء لا تكفيها عينان من وراء نظارتيها الفريدة لتشمل الجميع بالرعاية، ولا باقات إبتسامات تطوف بها من أول طلّة إلى ألمع نجمة، تلاطِف وتلبِّي، والكل يسأل: أين بديعة؟!

أعود إلى القاعة، فأراه في جلسته بعد ساعة، كما دخل. أمس واليوم، وغدا لا ريب. عميد الروائيين الفلسطينيين وعمدة في الرواية العربية. مناضل ومثقف وإنسان تُلازمه الحكمة وسمتُه الوقار. لا يواظب للترحيب ومجاملة الضيوف، ليكن، بل ليقين أن الرواية جد. عاشرت كتابا كبارا، ومن العرب يعطي يحيى يخلف، مع عبد الرحمن منيف، الدليل القاطع عن حرص الروائي على نصه وبناء مشروعه وربط الأدب بقضية، بأخلاق وسلوك. ولم أسمعه يقول أنا يوما.أمام هرج بعض كتاب القاعة مفتتنين بذواتهم مكث أبو هيثم يسمع فقط.

في جلسة آخر اليوم قالت كاتبة من مصر ـ منى الشيمي ـ لا فُضَّ فوها إن بلدتها في الجنوب اهتزت لما سمعت عن نشرها، وأهلها كادوا.. فغادرت إلى الشمال، والحمد لله أنهم لم يفعلوا وإلا لكانت ثالثة الأثافي للجندر. شردت ثم إستفقت، وأين الأدب؟ لا ضرورة له، لشروطه، فنحن في جلسة عن الأدب النسائي، لذلك لا بد من الإبتئاس، والغثاثة وحتى الإبتزاز، إن عارضت تُرمى بمعاداة الجندر كأنك، ويلك، تعادي السامية في أوروبا؛ حذار، من النساء!

٩ أبريل ٢٠١٧

قدمت ورقتي في اليوم الأول للملتقى. فضّلت التحدث ب» قبّعة» الدارس الناقد، بدل الروائيِّ أجدها أنسب وربما أهون، لأنها تجنبك الكلام الفضفاض والتعزِّي المرَضي. لن تقول أنا، وتصبح في قلب مخاطرة ضمير المتكلم فتدور عليك الدوائر. أترك القبعة الثانية للنص البكر. يتكلم الكاتب مرةً واحدة، بالأحرى يُبحر في الصمت، يعير صوته للآخرين، لجديرين بالكلمة، أيّاً كان وسواسُهم وشجنُهم. الشهادةُ فن كتابة خطير، يُفترض أنه جامع مانع. محيطُ الدائرة بداخلها ما يسمى تجربة الكاتب في فنه ومسار حياته وتكوينه بزُبدة خبرته لِما عاش. يُفترض لها قدرة الإحاطة. سَبْر الرؤية واستحضارُ الرؤيا. إعادةُ قول ما فات بلغة مختلفة. ولن تعيد الإحساسَ الوهجَ، البصيرةَ، الولعَ، البحثَ المُضنيّ، سحرَ البلاغة، سيرك المجاز. لن تعيد خاصةً لغتك، اللهم أن تبتذلها أو تسفّ. النص المبدع يُكتب مرةً واحدة، فلا يتكرر.

مثل الحب، لا يتكرر، أو يُجترّ. قبعة الدارس تقيك مزلةَ اللسان. تحصّنك من ذلّ القلب، وبهرجة اللغة. تجعلك تتحكم في أدوات القراءة بما فيها قراءة عملك بمنهج ومفهوم وتبصّر. فإن اضُطررت، أقرأ بين يدي، ما يتلى على أسماعكم بلاغي وبياني، بعبارة: دونكم نصِّي.

في جلسة اليوم الثالث الصباحية كنا على موعد مع شهادات روائيين تحت مُسمّى(الإغتراب والمنفى):الجزائري، كان قد غادر العراق فترة من الزمن، قال بسبب الإضطهاد، وعاد إليه مباشرة مع إسقاط نظام صدام حسين، برفقة قوات ودبابات الاحتلال الأميركي(!) والآن وهو في بلاده ينظر إلى من في الخارج، كما لو كانوا هم ينظرون إلى من في الداخل، ولم أفهم . شهادة ليس إلا وكل شيء. إبراهيم فرغلي، بدا كمن يريد أن يعتذر، فهو خارج الخانة، هجرتُه إلى الكويت لِما هاجر إليه، لا قسرا ولا نفيا، لنقل إقتصادية، ولها أثر في الصميم. حجي جابر، الإرتيري في بلاد الخليج، المنفي فعلا وبأوراق مؤقتة يترحّل بذكريات البلاد. والكتابة في هذا كله؟ هي الملفوظ لا المتلفِّظ، لذلك أفضل الجلوس في الصفوف الأخيرة تتيح لي سماع الكلام لا يعنيني شكل قائله أو قاتله. أظنني سمعت كلاما لزجا من سيدة تكتب الرواية، قادمة، حسب قولها، من الغرب، وبعد أن شكت وبكت الأطلال، قالت لا فُضَّ فوها إن غربتها تسمح لها برؤية وطنها بوضوح والتعبير عن معاناة شعبها الذي يعيش الخراب. أحسنتِ، أبرقت لها في النقاش، أخاطب الجميع، معذرة لا أحب الإبتئاس، ولا أتلمظ بالغربة رغم أني أعيش في باريس منذ ثلاثة عقود ونيف. لست فيها منفيا ولا أتاجر بهذه البضاعة. أنا على العكس سعيد، وهذه الإقامة أعطتني كثيرا، معيشا وثقافةً وصقلَ موهبة، وجعلتني كاتبا، وأهّلتني إنسانا بحقوق وكرامة في بلد لا يُهان فيه الإنسان؛ ما رأيكم أن نعيد النظر في مفهومي الإغتراب والمنفى؟ كان لي قصدٌ آخر من هذا الخطاب، أن أسقط القناع عن كتاب ومفكرين عرب مزعومين إما اشتراهم الغرب، أو لجأوا إليه كاذبين أنهم مضطهدون وصاروا يروون على مقاس ما يُطلب منهم، أوّلُه أن يشتموا أمتَهم وملتهم ويسفِّهوا تاريخهم، فماذا يبقى؟ والفلسطيني في القاعة، الغريب المنفي في وطنه تحت طائلة الإحتلال، لا يفهم!

٩ أبريل ٢٠١٧

لم يكن لي رأيٌ في إعداد برنامج الملتقى، وإلا لاقترحت موضوعا أساسا له، أو أجعله مركزيا، هو: « تجربة اغتراب ومنفى الفلسطيني في الرواية العربية». موضوعٌ دسِمٌ ومتنُه وافر، إنطلاقا من أعمال الروائيين الفلسطينيين وامتداداً إلى نصوص زملائهم في الأقطار العربية كافة. وإذا كان قد طُرح في عديد لقاءات أدبية من بينها خصوصا المؤتمرات الفضفاضة لاتحاد الكتاب والأدباء العرب، على مرّ السنين، فإنه لم يعالج بعد بوصفه من بين أقوى تيمات وعوالم روايتنا، شارك في بناء النَّسق الدلالي والمعمار الفني لها بكيفية هيكلية، تتعدّى الإنتصار للموضوع، لفلسطين، حماسيا نظيرَ المعلوم مع شعر المقاومة، فبخّسه الدارسون والنقاد طويلا بالتعاطف مع القضية ونُصرتها حتى صرخة م درويش !

يعنيني هذا لمّا لاحظت أن جُلّ رفقتي من كتاب الملتقى، ومن يزورون التراب الفلسطينيَّ المتاح، يتحدثون بنبرة إبتئاسية عن هذه الأرض وشعبها، بنوع من الإشفاق الساذج لا الإستنكار الواعي، وكأنهم يستيقظون من سُبات عميق، ليكتشفوا فجأة محتلا إسرائيليا فتاكا. ففي جلسات، بين عبارات متناثرة، ونظراتٍ هنا، هناك، وزياراتٍ سريعة لأماكن منكوبة، تنداح الآهات والحسرات. أمّا عند اللقاء بالفلسطيني فيصبح الأمر لدى بعضٍ كأنه اكتشافٌ لكائنات ما قبل التاريخ، من كواكب غرائبية، بالتباكي وغنّة التعاطف، شأن قراءة النص الأدبي الفلسطيني، عومل ب» الحب القاسي» حسب عبارة درويش. نعم، ليس من رأى كمن سمع، ما لا يمنع من التساؤل إن لم تكن قضية الشعب الفلسطيني تتراجع في وعي وضمير النخبة العربية، المثقفة والسياسية، تحتاج إلى من يهزها لتستعيد رجحانها في وعينا القومي. فكرت أنني أظلم زملائي. فهذه زيارتهم الأولى، ولي الثالثة، أتمنى أن تستمر، وهم هنا وجها لوجه مع الحقيقة، لا السطور والصور في الأفلام والتحقيقات. الحقيقة بدون وسيط ولا مؤوِّل، لذلك هم مندهشون، عاطفيّون جدا، ثم للصدق أيضا فرحتُهم بهذه الزيارة بلا حدود، بلقاء الأشقاء، بالعناق والحديث واقتسام لقمة واحدة، بمشاهدة كيف يعيش الفلسطيني محجوزةٌ طريقُه ومدرستُه وحقولُه بعد كل ما نُهب منها أسيرا أو حرا مع وقف التنفيذ. فكرت، هذا جواب شاف للمفوّهين، النّاعين علينا لقاءَ أهلنا، ونقول لهم ما سبق للحطيئة أن هجا به الزبرقان أو سلَحَه :» دَعِ المكارمَ لا ترحل لبُغيتها/ واقعُد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي»!

الفلسطيني من قبل وبعد، إنسانٌ يا بني أمتي، طبّعنا أو زايدتم علينا ببطولتكم الجوفاء. يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. يحب، أي نعم، ما أجمل الفلسطينيات وأفتك غُنجَهنّ. يغضب. ينصب. يصلي، فأرضه مقدسة. يشرب فدم المسيح نبيذ. شجاعٌ. أبيٌّ. كريمٌ. ذكيٌّ. وفيه البائعُ والشاري ككل البشر، فلا تعجب. هنا في الأرض المتاحة القدمُ راسخةٌ. فوقها الأم والأب والإبن والمشاتل ووجه الرب، فإليه ارغب. الفلسطينيُّ لا يفرط في ترابه، وثقافته، روائيٌّ، شاعرٌ، مغنٍّ، مناضل وسياسي محنك. الفلسطيني مثلي ومثلك إنسان لا يقبل الهوان.

١٠ أبريل ٢٠١٧

هذا اليوم الرابع لملتقانا. تحدث المشاركون عن قضايا التجربة الذاتية في الرواية العربية من كل ما يتصل بها، المفهوم والمعنى والتركيب والبناء. لم يكن سهلا التوصل إلى تعريف دقيق لكلمتي التجربة والذات، ومن ثم ملئهما بما يكفي في ضوء النصوص بالمعنى المتعيّن. لم يكن متيسِّرا خصوصا شرح وضبط ما نعنيه بالذات، في تعددها بين السياق النحوي، وكونها الفاعل للفعل، ودلالاتها تعبئةً شعوريةً وسيكولوجية، وأخيرا في مدى انفصالها أو اتصالها بما هو خارجها وهل هذا ممكن أصلا، ما دامت أيّ تجربة يخوضها الكاتب، الفرد تتمّ ضمن وضع عام وتشتبك في أنسجة متعددة التكوين والألوان.القصد، أننا حضرنا

وعملنا واشتركنا عربا زوارا وفلسطينيين أهل الدار في إنجاز لقاء أدبيٍّ نقديٍّ قلّ أن تجد له نظيرا بين المنتديات العربية في جدية أوراقه، وسدادة الآراء، وانضباط المتابعة وصفوة الحضور. حدث هذا بالعدد المحدود الذي سُمِح له بالعبور، فما بالك لو أن الشمل تمّ كله. هذا مما يمكن أن نفخر به، ويفخر به زملاؤنا الفلسطينيون، أكاديميين وكتابا مرموقين، نحن سواء بسواء.

لو كنا في حاجة إلى الدليل ما وجدنا أفضل من سلطة الإحتلال الإسرئيلي، تخشى الفعل الثقافي لا النضال المسلح وأطفال الحجارة وحدهما. ترى فيه فعلا حضاريا. ترى في قدوم الكتاب والناشرين العرب إلى فلسطين إعترافا يتحدى إنكارَها، ويُظهر شعبا قادرا على ممارسة الحياة من نواحيها كافة، وها هو ينظّم ملتقى للرواية تحضره الأسماء العربية بلا منازع، حتى ولو خذل بعض العرب قضيتهم. تدرك هذا على مضض فتعرقل، تستخدم سطوة سلطتها، كذلك جرى في معرضي الكتاب اللذين حضرت، وانعقدا بقوة الأشياء، فكان هذا شيئا مدهشا. والشيء ذاتُه كرره المحتل بالتعسف في منح تصاريح العبور، والتناور بمكر، يتحايل أنه يمنع ويبيح، وإليكم الحكاية الطريفة التالية صورةً ودلالةً وعبرةً أيضا:

ففي الليلة السابقة على يوم الختام، وكنت من بضعة أفراد تأخرنا على مائدة العشاء، وأنا سأغادر المطعم ناداني الوزير المحبوب بسيسو أن تعال يا سي أحمد، تعال لتشترك معنا في هذا العجب أو الفرح، كان يتكلم وهاتفٌ بيده وهاتفٌ بيد مساعد له، ووجهه تتقلب فيه ملامح الحبور بالحيرة. وسّع لي الحضور فجلست أستطلع وأنصت، لأفهم أن الإدارة الإسرائيلية بعثت للتو، الساعة العاشرة ليلا، لائحةً تضم ثمانية تصريحات عبور جديدة، أي نعم. لن نيأس ولن نستسلم قال الوزير، وكنا من رأيه، واشتغلت الهواتف تخاطب الثمانية، كل في بلد عربي لحثِّهم على الحضور غدا، وهذا بعد تدبير اتصالات الخطوط الجوية والبحث عن الغائبين، للحضور... في الختام. مر منتصف الليل والجلسة تدبِّر شبهَ المحال، الذي تحقق بعضه بقدوم الروائيين السودانيين حمور زيادة من القاهرة، وخالد عويس من أبو ظبي، تجشّما أيّما تعب، فيما تعذّر على غيرهم الاستجابة آسفين، متألمين، وللضرورة أحكام، غادرنا نحن الزوار الأوائل رام الله في الأخير سعداء لا حزانى لأننا قررنا أن نعود ونعود، سنعود بحول الله رغم الغاصبين، وتركنا حمور وخالد، تا الله كان حضورهما مسك الختام.

فلسطينيون

التشبيه في تعريف البلاغة هو مشاركة شيء لشيء في صفة بأداة أركانه: المشبّه والمشبّه به ووجهُ الشبه وأداةُ التشبيه. أما أغراضُه فشتّى، ليس منها غرض إثارة هذا الموضوع. لكننا نرى أن التشبيه في مقام التزيين وبيان المقدار يقصُر في الحقيقة عن أداء هذه المهمة. فإن كنا نريد وصف شخص بالكمال كله أو في ناحية ما يجمُل بنا على العكس أن نتجنب تشبيهه بغيره أو صورة أو خصلة أخرى، المشبه به ووجه

الشبه، يلحق به، يصبحان مصدر الكمال ومُجتلاه ومنتهاه، يمثل هو بالمقابل وجه القصور، لكنها البلاغة هكذا تلعب. هذا ما خطر لي وأنا أستعيد لحظة الكتابة زياد خداش: وجهُه، قامتُه، هندامُه، كتابتُه، قليلٌ مما أعرف عن سلوكه وحياته، خصوصا كيف يعيش تعليمَه وصِلته بتلاميذه الذين هم أبناؤه، وكيف هو فلسطينيٌّ وحده بلا نظير. هذا الوصف الأخير ما يعنيني. لا أتحيّر معه ويكفيني ويفيض عن الحاجة. زياد خداش كاتب. كاتب قصة قصيرة. كاتب نصوص فريدة، أي جميلة، ضرورية للأدب، لشعبه، لوطنه، وللإنسان. صفاتٌ إن لم تتوفر في نص كاتب فليذهب إلى حال سبيله. يتوفر الأدب الفلسطيني على لائحة طويلة من الأسماء، لك أن تحذف منها، إنما ستختلّ ولا تنسجم بدون زياد. الحاضر، المخطوف. المتّزن والمصروع. ذاتُه في أرواح تلاميذه، وأبناء بلده، وتاريخ وطنه المحتل. صمتُه وهمسُه نشيد. بشوشٌ وكلامه نبيذ. حلولُه جسدٌ طيفيّ. وغيابُه روح نبويّةٌ تطوف. كلما حاولتَ أن تمسك به تحوّل إلى هلام، وإن عاندتَ غدا هيولى، كأنما يحرّضك أنك لن تقبض عليه أبدا إلا في صورة، الصورة نصُّه، ونصُّه البديعُ حقا ظاهر، ألم يقل ابن عربي من شدة الظهور الخفاء. ما دام في فلسطين زياد ومن يشبهه، ولا يشبه بأحد، قلبي مطمئن على فلسطين؛ ستعود.

إن لم تكن عرفت المهاتما غاندي. كمال جنبلاط، مثلا، جيمس جويس، بوديّو التبت، قبلهم المهاجرون إلى المدينة، الجندي المجهول من هو، من لم يقل أنا أبدا، الذي قدماه في الأرض ولا يحفل برأسه، من لو تأخر إ. ألان بو، جوجول، تشيكوف،، لبدأوا من قصصه. طيلة أيام ملتقى الرواية العربية في رام الله وهو أمْيل إلى الصمت منه إلى الكلام، إلا بما يفيد حتما. لا تبدأ جلسة وتنتهي إلا بحضوره. ظِلهُ قامةُ الآخرين، فيما هو أبعد عن إطالة القامة. كثيرٌ كلامٍ يجري في القاعة بين المنصة وباب الخروج يعبر بأذنه، فيستبقي سمينَه القليلَ ويفسح للغث الفاضح بالخروج. حين تحدثَ عن الاغتراب والمنفى، وهو الأجدر بالحديث، من يعيش في القدس وهي مدينته منفيا تحت سماء فلسطينية والأرض قيدٌ وحديد، بدا يستحي، بينما سمعت من بجواره،لا في العير ولا النفير، كاتبٌ عربيٌّ زعْما يمسخ الإسم إلى أورشليم، ليبيع ويشتهر في الغرب بلا شرف. كنت كلما خفت من نسيان سنن القصة القصيرة أعود إلى همنغوي ووليد إخلاصي، و منذ سنين، كلما خفت على نفسي من تضييع خريطة القدس، والإنسان الفرد في فلسطين، بلا تجزيء، أعود وألوذ بمحمود شقير. إنتهت الجلسة الأخيرة فلم يبق لحظة في رام الله. بوقاره وحكمته عاد إلى القدس، مدينته فقط!

إنهن الأمّهات، الأمّهات. الرَّحِم والرّضاع وحبُّهنّ لا فطام معه. هُنّ الأرض. لأتوقف هنا. إذا ظهر المعنى فلا فائدة في التكرار. قولٌ سائر. الأمّهات. لا يوجد إسم أدقّ، أوْجزُ، أبلغُ في المعنى والبيان من إسم الأمهات. لا توجد صورةٌ، هيئةٌ، هالةٌ، دلالةٌ، بل إعجازٌ في المعنى والمبنى الإنساني منهن، وهنّ جالسات منتظرات، متضرِّعات، صابرات، صامدات، محترقات الأكباد، يابسات الجلد، شاحبات، ذابلات، ممسكات

بأيدٍ مجعّدة صورَ الفلذات، لِيَشهد العالم، أو أيَ عابر في ساحة ياسر عرفات برام الله، والطريق العام بمدينة قلقيلية، أن لهن أبناءً مضى عليهم أعوام طوال في سجون الإحتلال، أن أبناءهنّ ما يزيد عن شهر يخوضون معركة الأمعاء الخاوية، من أجل حقوق بسيطة وعظيمة في آن، أقواها إنسانيةً السماح للأهل، والأمُّ هي الأهلُ والسهل، بزيارتهم في السجن مرتين في الشهر فقط، ربما يتاح أيضا أن تمسك أمٌّ بيد إبنها، وتشمّ رائحته، ويحطّ وجهه على صدرها وتأخذه بالحضن أخذَ الحبيب للحبيب. إنهنّ يا سيدي الأمهات. هكذا رأيتهن معتصماتٍ في الخيمتين، وخجلت منهن ومني ماذا بوسعي أن أفعل من أجلهن، لَعيْبٌ عليّ أن أذرف الدمعَ أمام فيض حزنهن، لا أعرف كيف أخبئ وجهي، أغضّ بصري لأقف كالمشلول، كالأبله أمام عجزي، أمامهن، هُنَّ الفلسطينياتُ، الصابراتُ، الأبيّات، الجالسات منذ ١٩٤٨، حاضناتٍ خريطةَ فلسطين.

ليس سهلا أن تعيش فلسطينيا وأنت في أرضك، ما تبقّى منها، الممنوح، أو المتاح، المراقب وأنت فيه. هي سماؤك. للتراب والبيّارات ولِحاء الأشجار وجدران البيوت القديمة لونُ بشرتك، لكن عليك أن تخرج هويتك في أي لحظة لتثبت أنك أنت ولن تثبت. اليهودي القادم من أصقاع الدنيا كلها هو من له الحق» الشرعي» في منحك الإسمَ والصفةَ والوضعَ القانونيَّ لإقامتك أو إبعادك، حتى لو كنتَ حفيدَ المسيح أو جدك هو من بنى المسجد الأقصى، فلست. كن حلزونا، يُملي عليك. بمعنى أن تدور في حلقات في الدائرة الواحدة لتصل إلى بيتك. صر نملةً تدِبّ. سَحليةً. وإن استطعت جرذا لتحفر تحت الأسلاك والحيطان عالية الأمتار. ستتعلم وأنت فلسطينيٌّ أن تمشي في المتاهة، في بلد قُصقِصَ وفُصِّل ليتبعثر فيه جسد الشعب بل الفرد أطرافا، أنت تمشي غالبا بين سياجات الأسلاك، وما خلفها أرضك، كانت، يمينا وشمالا، تمشي في الوسط بينهما، في ركن الزاوية، في قمقم مرتفع، عند منحدر، ليخرج لك الجندي الإسرائيلي كالجن، يدخل في لحمك عظمك يسبح في دمك، هه: من أنت؟ الغريب أن تستغرب. الفلسطينيّ لا يستغرب، كَفّ عن هذا الهراء، ولا قِبل له بهذا الترف. يبحث الروائي العربي عن الغرابة والتغريب والتهويل، يفتعل أجواء الكافكاوية والتهويمات للخروج عن مألوف الواقع وتصعيده، ليتميز، أما الفلسطيني ففي غنى عن هذه الحذلقة، لا بدّ يسخر أو يشفق على من ينهج هذا، لذا أدعوكم لقراءة قصص زياد خداش وجيله واللاحقين لتتعلموا كيف تكون فلسطينيا وضعك الطبيعي أنك غريب، منفي في بلدك، تعيش تحت الإحتلال ولا تستسلم، تحيا وترفض أن تموت، تعشق وتحزن، وإن كنت تعيش في أرض الشتات تعود أخيرا لتسلم الروح في وطنك، وكذلك أنا سأعود، أعود، أبدا نعود.

أوراق ثقافية

الروائي المصري يوسف القعيد

«الربيع العربي» أخذ منّا واقعاً لم نكن نريده، ولم يعطنا الواقع الذي حلمنا به

تصريحات يوسف زيدان حول الأقصى مبنية على تصور يصل حد الانتحار

حاورته بديعة زيدان

يعد الروائي المصري يوسف القعيد، أحد أعمدة الرواية المصرية منذ ستينيات القرن الماضي، فهو نصير «الغلابة»، واللاذع حد المنع، والعدو اللدود للرقابة على مدار عقود، بينما يعترف، وهو الصديق المقرب من نجيب محفوظ، أن لا عدو له إلا «العدو الصهيوني»، معبرا عن خشيته بأن لا يخرج جيل من المبدعين الفلسطينيين الجدد في الأدب كما كان محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد .. معه، كان لـ«أوراق فلسطينية» هذا الحوار:

لنغير من نمطية الحوار، أو لنقلبه، وعليه سأسألك من جديد، مصر تعبر منذ سنوات، تحديدا منذ ٢٥ يناير ١٩١١، تحولات عميقة شملت كل شيء تقريبا، كتابتك كانت دائما تأتي من النجوع والأحياء الشعبية .. ما الذي تكتبه الآن؟

انظري، التغيرات الدرامية التي حصلت في مصر منذ يناير (كانون الثاني) ٢٠١١ وحتى الآن، جعلتني ككاتب روائي وليس كشاعر أو كاتب مقال، اتروى، لقناعتي بأنني بحاجة إلى أن تستقر الأمور على أرض الواقع، لأبدأ الكتابة عنها .. في ظل التغييرات الرهيبة التي حصلت في هذه البلد (مصر)، أعترف أنني أضعت البوصلة، أو تاهت مني.

على سبيل المثال، توفيق الحكيم كتب رواية «عودة الروح» عن ثورة ١٩١٩ في العام ١٩٢٨، أي بعد تسع سنوات، ونجيب محفوظ كتب الثلاثية: بين القصرين، وقصر الشوق، والسكّرية في العام ١٩٤٨، أي بعد حوالي (٢٩) سنة من الثورة، كما أن أول معالجة روائية لثورة ١٩٥٢ كانت رواية «السمّان والخريف» لنجيب محفوظ في العام ١٩٦١.

كان لديّ العديد من المشاريع الروائية التي أعمل على إنجازها، لكني توقفت، والآن أحاول استكمالها أو بعضها، لكن ما حدث في البلد، بما له وما عليه، لم أقترب منه حتى الآن، حتى بت أفكر بالاقتراب منها

لكن بعيداً عن شكل الرواية التقليدي، تلك الرواية الكلاسيكية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، وكأنه تحقيق أدبي، وهذا النوع من الكتابة بات يستهويني، حيث إنه لا يندرج في إطار الكتابة الصحافية، كما أنه ليس كتابة أدبية، بل أقرب الى التحقيق الأدبي.

الآن أقوم بـ»تبييض» (إعادة ترتيب) رواية كنت بدأتها قبل يناير ٢٠١١، وتوقفت بعد الأحداث .. عدت لاستكمالها، واقتربت من الانتهاء من آخر فصولها، إنما ماذا سيأتي بعدها، حقيقة لا أدري، لأننا في مصر نخرج من مأزق فندخل في آخر، ونتجاوز مشكلة فتواجهنا أخرى، والوطن يتوه منّي.

الكتابة بالنسبة لي فيها قدر كبير من الالتزام، وهذا فهمي للأدب، وإن هاجمني البعض باعتباره أدباً سياسياً، فليس بإمكاني صياغة قصص حب منفصلة عن الواقع الذي يغلفها، لست من المبدعين أو من صناع أدب الهروب من مواجهة الواقع، وهذا لا يعني أن ما يكتب في هذا النوع من الأدب ليس بجيد، بل بعضه قد يكون أدباً خالداً، لكنه لا يستهويني.

"مدام بوفاري" لجوستاف فلوبير، التي هي واحدة من أهم الروايات، لم تقترب من السياسة .. لا أعرف ما هي طبيعة الظروف السياسية التي كانت تعيشها فرنسا في ذلك الوقت، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، لكني أحدق كثيراً بما يحصل في الواقع .. كتاباتي واقعية لدرجة أنها يمكن أن تزعج القارئ، وفي الواقع هناك حاكم ومحكوم .. المحكوم نكتب عنه، دون إغفال ظلال الحاكم على الواقع.

ما حصل معي أنني استفقت كغيري في يوم وليلة على مصر أخرى .. هذا ليس بكاء على ما كان موجوداً قبل الثورة، بل على العكس فما كان سائداً قبل يناير ٢٠١١ كان سيئاً، وكان لا يمكن استمراره، لكني وكما كتبت في مقال لي بصحيفة "الأهرام" المصرية مؤخراً، وتحديداً في ذيل المقال «الثورات يحلم بها الفنانون والشعراء، وينفذها الأبطال، لكن التاريخ يحتقر تماماً الأوغاد الذين يقطفون ثمارها»، وهي جملة شهيرة لنجيب محفوظ في ثلاثيته حين كان يتحدث عن ثورة العام ١٩١٩.. هذا ما حصل في هذه الثورة، فهدم ما كان قائماً قبلها لم يتم بالكامل، وبناء البديل لم يتم على الإطلاق.

يحدث في مصر الآن

البعض يرى أن روايتك «يحدث في مصر الآن» تصلح لكل زمان .. لو أردت كتابتها الآن هل ستتركها على حالها، أم ستغير فيها؟

الرواية تحولت إلى فيلم سينمائي بعنوان «زيارة السيد الرئيس»، ولا تزال تلقى رواجاً بين القراء، حتى إنني في طبعتها الرابعة كتبت مقدمة أسميتها «الآن، وسألت فيها نفسي وقارئي عن «الآن»، التي وجدت بعد الانتهاء من كتابة المقدمة أنها مستمرة، فرواية «ما يحدث في مصر الآن» تتكلم عن الحلم الأميركي الذي حمله رئيس الولايات المتحدة السابق ريتشارد نيكسون حين زار مصر في يونيو (حزيران) العام ١٩٧٤، وتم

الترويج على أن هذه الزيارة تدشن لـ«زمن جديد»، و«عهد جديد»، حتى إن المفكر السياسي البارز د. فؤاد زكريا قال بهذا .. «الآن» الذي كان حينها يونيو ١٩٧٤ مستمر، ولم ينته، وكما هو، وبالتالي لن أنقص أو أزيد على الرواية أي سطر لو كنت سأكتبها «الآن».

الرواية تحولت إلى عمل سينمائي .. غالبية النقاد، وأنا أرى، أن الأعمال السينمائية وحتى الدرامية عادة ما لا ترقى إلى النص الروائي المقتبسة عنه .. ما رأيك؟

هناك فرق بين تحويل الرواية إلى مسلسل تلفزيوني أو إلى فيلم، فالمسلسل يقدم الرواية في ثلاثين حلقة أي ثلاثين ساعة، لكن الفيلم عادة لا يزيد عن ساعتين، وفي الحالتين يحدث تصرف ما بإطالة أو حذف أو ما يسمى معالجة درامية، قد تكون مضرة ببنية العمل الأدبي.

من أعمالي الروائية صنع ثلاثة أفلام ومسلسل تلفزيوني، لم أكن سعيد الحظ بهم .. أعتبر أن سعيد الحظ الوحيد في لعبة السينما هذه كان نجيب محفوظ، ففي زمنه توفر له كتاب سيناريو أضافوا إليه، ومخرجين أضافوا إليه أيضاً، وممثلين أضافوا إليه كذلك، إضافة إلى الزمن الذي خرجت فيه تلك الأعمال الدرامية أو السينمائية المقتبسة عن إنتاجاته الأدبية، وأعني «مصر الناصرية»، وفي وقت كانت الدولة تنتج أعمالاً سينمائية .. بالأمس كنت أقرأ عن شادية، واكتشفت أنها قدمت أربعة أفلام عن أعمال لنجيب محفوظ: "حميدة" في "زقاق المدق"، و"زهرة" في "ميرامار"، وغيرهما، وهذه الأعمال برأيي لا تقل جمالاً عن العمل الأدبي، فالمصريون شاهدوا محفوظ عبر السينما أولاً، وبدأ غالبيتهم بقراءته بعد حصوله على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٨٨.

من ميزات تحويل العمل الأدبي إلى عمل سينمائي أو درامي، أنه يشهره في الغالب، وبالتالي يأتي بمزيد من القراء، وفي بعض الحالات يمكن أن يضيف إليه، ويمكن أن يوسِّع رقعة المتابعين شريطة احترام العمل الأدبي، وان لا يكون نقيض النص الذي من المفترض أنه يتكئ عليه، ويستند إليه.

رواية «يحدث في مصر الآن»، وكما أشرت تحولت إلى فيلم «زيارة السيد الرئيس» لمنير راضي .. الرواية هذه بقيت حبيسة أدراج الرقابة لعشرين عاماً حيث رفضت الرقابة تحويلها إلى فيلم سينمائي، رغم أن مستشارة الرقابة في ذلك الوقت كانت الناقدة القلماوي، وهي من قدمت روايتي الثانية .. أخبرتني أن قوانين الرقابة مختلفة عن تعاطي النقاد، فالرواية تسيء حسب وجهة نظر الرقابة إلى علاقة مصر بالولايات المتحدة الأميركية، وأنها لا يمكن أن توافق على تحويلها إلى فيلم.

الرواية الثانية كانت «الحرب في بر مصر»، وأصر صلاح أبو سيف عندما حولها سينمائياً على تسميتها بـ«المواطن مصري» .. أعتقد أن اسم روايتي أفضل بكثير من اسم الفيلم، كما أعتقد أن الأصرار على الاستعانة بعمر الشريف كبطل للعمل وزيادة مساحة دوره خالف النص الأدبي، لم أكن موافقاً ولا سعيداً، وذلك بسبب مواقفه السياسية التي أختلف فيه معه، وأمور أخرى شخصية لا أريد الحديث عنها .. قبل عمر الشريف لعب

الدور المحوري في العمل، رغم أن منتج العمل فلسطيني هو حسين القلا، وهو منتج عظيم، فلو كان في تاريخ السينما المصرية عشرة أفلام ممتازة لوجدنا أن تسعة منها من إنتاجه، كما أن المخرج صلاح أبو سيف أحد أهم المخرجين العظماء في السينما المصرية، وأعتبر نفسي دخلت تاريخه لكون هذا الفيلم كان آخر أفلامه، ولكن ما أثار حفيظتي هو أن عمر الشريف عمد إلى التدخل في النص، والتغيير فيه.

هل تتدخل في سيناريوهات الأفلام المأخوذة عن رواياتك؟

حاولت، خاصة في فيلم «المواطن مصري» المأخوذ عن روايتي «الحرب في بر مصر»، لكنهم لم يستمعوا لي، بل أخذوا برأي عمر الشريف القائم على توسعة مساحة دور «العمدة» الذي سيجسده، على حساب دور «مصري» الشاب الذي حارب في «اكتوبر» باسم شخص غني، لكونه كان يريد الدفاع عن مصر تحت أي مسمى.. قام بتقليص مساحة هذا الدور المحوري لحساب دور عمر الشريف، الذي كان يفترض أن يقدم دوراً صغيراً، وقدمه بشكل لم يرق لي (مش حلو) .. تدخلت، لكن الغلبة كانت لرأي عمر الشريف، وليست لرأيي.

كقروي، السينما بالنسبة لي أحد رموز المدينة، وبت أواظب على متابعة الأفلام في دور السينما، لكن في زمني لم تصنع أفلام سينمائية تخلد في تاريخ السينما المصرية.

الكتابة من أجل السينما

يؤخذ على العديد من الكتاب والروائيين المصريين الآن أنهم يكتبون وعينهم على تحويل نصوصهم إلى أعمال درامية أو سينمائية، حتى بات القارئ لهذه الأعمال كأنه يقرأ سيناريو وليس عملاً روائياً؟

دعيني أقول شيئاً .. بعض الشباب الآن من الكتاب يذهب إلى عادل إمام، على سبيل المثال، وهذه وقائع حصلت، ويخبره بأنه كتب رواية ما (مخصوصاً) لتحويلها إلى عمل من بطولته، وهو كاذب .. عادل إمام اكتشف أنه لو انهمك في قراءة الأعمال الروائية، إن جاز تسميتها كذلك، التي يقول أصحابها أنها «مفصلة على مقاسه» لن يكون لديه الوقت ليقوم بأي عمل آخر، ولذا كلف شخصاً آخر بالقراءة له، وهذا يأخذ أجره من المؤلفين، وهذه حالة سخيفة وبلا معنى، لأن للكتابة قواعدها الخاصة.

لو كانت الكتابة، وقبل الشروع فيها، معدة مسبقاً لتكون عملاً درامياً أو سينمائياً، فإنها ستسقط كنص أدبي .. حين كتبت «الحرب في بر مصر» لم يكن في ذهني لا «المواطن مصري»، ولا صلاح أبو سيف، ولا أي شيء آخر غير الكتابة، والكتابة عن الواقع.

ربما ذلك لكوني كنت مجنداً في الجيش المصري في الفترة ما بين العام ١٩٦٥ والعام ١٩٧٤، أي بواقع تسع سنوات، وهي الدفعة التي قال عنها عبد الناصر إنها لن تغادر الجيش قبل تحرير كامل التراب الوطني،

فشاركت في حرب يونيو (حزيران)، وحرب أكتوبر (تشرين) .. ما لاحظته عن حرب اكتوبر، أن من قام بها كان حريصاً أن يحصد عائدها بسرعة .. وجدت أن هذه الحرب تحرك القضية، ولا تحرر كامل التراب الوطني، بدليل أن سيناء عادت إلى مصر بعد ذلك بالتفاوض وليس بالتحرير.

في «الحرب في بر مصر» لا يريد الغني التجند في الجيش وخوض الحرب، فيرسل شاباً فقيراً عوضاً عنه وباسمه، ويستشهد وتحدث معركة على مستحقاته المالية .. منذ شاهدت مباحثات «الكيلو ١٠١» مع الإسرائيليين، وسفر السادات إلى فلسطين المحتلة .. قلت إن ما كتبته هذا يصل إلى حد النبوءة، ويا ليتني نشرت الرواية قبل تاريخ نشرها، ولذلك منعت في مصر، ونشرت في بيروت عبر دار ابن رشد لصاحبها سليمان صبح، بعد أن منعتها الرقابة ورفضت نشرها جميع دور النشر المصرية، لكنها دخلت مصر في العام ١٩٨٥، وتحولت الى فيلم العام ١٩٩٢.

أول ما رأيت بأن الأمور تتحول باتجاه التوجه إلى إسرائيل، وخطاب السادات في الكنيست، أدركت صحة رؤيتي للحرب بأنها حركت القضية ولم تحرر كامل الوطن، وللأسف الأمور تسير باتجاه الأسوأ.

لدينا مثل في قريتنا وفي الريف المصري عموماً يقول «الكحكة بإيد اليتيم عجبة»، وبالتالي مجد أكتوبر الذي نتغنى به لم يكن إلا لتحريك القضية، وأقول هذا أنا ابن المؤسسة العسكرية المصرية لتسع سنوات، وخضت اثنتين من أبرز حروبها مع العدو الإسرائيلي .. لا أحد يمكن أن يسيء للحرب وللتضحيات التي تمت فيها، لكن الاستثمار السياسي لها كان سيئاً، سيئا للغاية، فهو لم يحترم دماء الشهداء، ولا أي شيء آخر.

ما الذي ينتقص مع العمل الإبداعي الأدبي برأيك إذا كان مكتوبا وعين كاتبه على جائزة ما، أو سينما أو دراما، أو غيرها؟

الإبداع يجب أن يكون إبداعاً صرفاً .. أنا من «بتوع الورقة والقلم»، بمعنى من القلة التي لا تزال تدوّن أعمالها على ورق، وليس على الحاسوب، والمحمول، والتقنيات الجديدة، حتى إن د. شاكر عبد الحميد، وكان وزير ثقافة، أعد رسالة دكتوراه عن العمل الأدبي، واستعار مني مخطوطات رواياتي، حيث أن رسالته كانت عن أصول علم الإبداع من وجهة نظر علم النفس، وخلص إلى ما أنا مقتنع فيه، بأنه لو تدخلت أية عناصر خارجية على عمليات الإبداع هذه ستفسدها.

نجيب محفوظ، وهو صديق حميم جداً لي، قال أمامي عبارة أعتبرها قانونا من قوانين حياتنا .. قال «عندما أكتب لا أعبأ بشيء»، وهذه هي القاعدة الأساسية لمن أراد أن يكون مبدعاً حقيقياً، ففي لحظة الكتابة عليه أن يضع نصب عينيه ما يكتبه فحسب، وألا يلتفت لأي شيء آخر مهما كان، مع أن محفوظ على المستوى الإنساني كان حذراً وملتزماً وتقليديا، لكنه في الإبداع كان شخصاً آخر، وكان يعيش بشخصيتين أحداهما تكتب، والثانية تعيش الحيوات الأخرى.

إذا اهتم المبدع بغير إبداعه، وموضوعه، وأفكاره، و«الحدّوتة» التي يكتبها، سيفقد بوصلة الإبداع .. حزين على مستقبل مصر الثقافي لأنني أرى أن غالبية الكتاب من الشبان والشابات إما يكتبون روايات الرعب أو روايات خيال علمي، علماً أن هذين الصنفين من الكتابة أصعب على الاتقان من غيرهما، فكاتب الخيال العلمي لابد أن يكون دارساً للعلوم، أو عالماً، وهذا نوع من الاستسهال المخجل .. أستغرب حين يتم تقديم شاب في الحادية والعشرين من عمره على أنه له أكثر من عشرة روايات.

الأجيال الجديدة وتسليع الثقافة

هل ترى أن الاستسهال سمة طاغية، مع بعض الاستثناءات، لكتاب الرواية من الأجيال الجديدة او الشابة في مصر خاصة والدول العربية عامة؟

جميع الأجيال السابقة، أو القديمة، وانا منها، حكمت على الأجيال الجديدة بمثل هذه الأحكام، ونحن حين كنا شباباً في ستينيات القرن الماضي، انتقدنا من سبقونا .. ربما هذه مجرد تجارب، وقد توصلهم هذه التجارب إلى شيء ما ذي قيمة، ربما، لكن ما أراه لا يبشر بخير مستقبلي، مع قناعتي بأن الرواية، حسب الدراسات في كافة معارض الكتب بالعالم، هي الكتب الأكثر مبيعاً، فهي الفن الأول من حيث القراءة والمتابعة، ولا يسبقها صنف أدبي آخر، لكني لا أدري ما هو مستقبلها، وإلى أين تذهب، أو يذهبون بها؟!

في هذا الإطار ما رأيك بظاهرة «الأكثر مبيعاً»، أو «البست سيلر»، وفي عالمنا العربي تجدها منتشرة في مصر أكثر من غيرها؟

هي مسألة تجارية بحتة .. يصادفني في بسطات الكتب بالشارع خلال تجوالي هنا وهناك روايات مكتوب عليها «الطبعة السابعة»، على سبيل المثال، وهنا أقول لأصحاب دور النشر التي تصدر عنها هذا الروايات، ولأصحاب الروايات نفسها، بأن «الأيام» لطه حسين، وهي رواية صنفت على أنها من روائع الأدب العربي، طبع العام منها الماضي الطبعة ٥٢، ولولا انها كانت مقررة على المدارس لربما لم تشهد هذا العدد من الطبعات، مع أنه رقم متواضع قياساً بعدد السنوات الذي يبعد بنا عن صدورها للمرة الأولى، وهي المنشورة في العقد الثاني من القرن العشرين، أي مرّ عليها قرابة قرن.

هذه مسألة تجارية كما أسلفت، أحياناً هم أنفسهم من يشترون الطبعات، وأحياناً يكذبون على القراء في رقم الطبعة دون رقيب أو حسيب، خاصة أن هذا الأمر من الصعب كشفه، وإثبات صحته من عدمها، بل إن بعض دور النشر تبرم اتفاقات مع الموزعين .. أحدهم يعرفني جيداً يعمد على الدوام لإغرائي بشراء نسخة من رواية ما بالترويج على أن كافة نسخها التي بحوزته نفذت، وأنه خبأ لي واحدة «على جنب» .. هذا عمل تجاري لا علاقة له بمغامرة الكتابة، أو الإضافة لها، أو هموم المثقف.

في هذا الزمن تحدث أمور غريبة .. فلم يعد الوزير رجل دولة، ولم يعد الكاتب مثقفاً .. كان منصب الوزير من أركان الدولة المصرية، ومع ذلك أجد أن وزراء عدة لا يستحقون الوزارة، وكتاب كثر لا يستحقون أن يطلق عليهم لقب كاتب، لكونهم لا يملكون ذلك البعد الثقافي الحقيقي الذي يؤهلهم لفكرة أن يمسك قلماً ويشرع في عملية كتابية إبداعية، لكون هذا العمل يعتبر مسؤولية كبيرة، بعيداً عن مبدأ «رواية لكل مصري».

هناك طفرة في بروز عدد هائل من الروائيين والروائيات على المستوى العربي .. ما سر ذلك برأيك؟

في معرض القاهرة للكتاب قبل عامين، حصل أن أحد الشبان كان له حفل توقيع كتاب، وكان اللافت أن كمية المحتفين به من أصدقائه شباناً وشابات أحدثت أزمة حقيقية في المعرض، وهو مطرب بالأساس، وحدث أن أغمي على بعض الفتيات من فرط الإعجاب فيه، وخاصة حين كان يهديهن بخط يده ما أسماه كتاب شعر لأغنياته .. لا يحضرني اسمه حقيقة، لكنه ليس من المطربين المشهورين جداً على العموم، مع أنني اشتريت نسخة، ولم أجد في هذا الكتاب ما يقرأ على الإطلاق، لكنه يقولون إن الاسطوانات التي يصدرها تحقق مستويات جيدة جداً من المبيعات.

هذا نموذج من عدة نماذج تؤدي إلى تسليع الثقافة .. وهنا أسأل نفسي: هؤلاء الذين قابلتهم، وتعاملت معهم من رموز الأجيال السابقة على المستوى الأدبي ماذا كانوا سيفعلون الآن في مصر، كطه حسين، أو نجيب محفوظ، أو العقاد .. أعتقد لو أنهم لا زالوا على قيد الحياة لماتوا كمداً وهم يشاهدون هذه الانقلابات في الذائقة بهذا الشكل المريع .. سيجدون أن ما قدموه من فكر وإبداع حقيقي ناجم عن سنوات من العمل والاجتهاد والعناء لا يوجد من يقدّره أو يهتم به.

أتمنى أن تسألي هؤلاء الشباب «اللي طالعين اليوم»، لمن يقرأون، أكاد أجزم أن إجاباتهم ستكون إنهم يقرأون لبعضهم البعض في إطار أجواء مسمومة بالمجاملات، وهذه محنة هذا الجيل الحقيقية على المستوى الثقافي، إلى جانب رواج فكرة الأدب الذي لا يطرح أو يعالج هموماً اجتماعية.

***لكن بعيداً عن النظرة هذه، والتي قد يراها البعض واقعية، ويراها آخرون سوداوية، ألا يوجد نماذج إيجابية في كتاب هذا الزمن .. نقول بالدارجة الفلسطينية «إن خليت بليت»؟**

ربما .. أقرأ أحياناً لكتاب شباب يحصلون على جوائز أدبية عربية، لكني أرى أن أغلب أعمالهم لا تصل لمستوى يؤهلهم لهذه الجوائز، مع أنني أرى في الجوائز الأدبية ظاهرة جيدة، لكننا لو تابعنا الحالة الثقافية للمواطن العادي في مصر سنجدها مرتبطة بالدراما التلفزيونية، فتذكرة السينما الآن تتكلف خمسين جنيهاً أو يزيد، وهذا مبلغ كبير بالنسبة للأسرة المصرية، ولكن حتى الدراما التلفزيونية لا تعتمد على النص الأدبي إلا في حدود نادرة جداً.

قد يكون لإجابتي هذه علاقة بواقع الكتروني أجهله، فهناك من يقول بأن ثمة مبدعين يكتبون عبر مواقع على الإنترنت، ولا أدري إن كان الإنترنت سيكون حاضنة لأدب المستقبل .. حقيقة لا أعلم، وليس لديّ

إجابة على ذلك .. يقابلني شبان يكتبون على مواقع التواصل الاجتماعي ليخبروني بأن مرتادي صفحاتهم على الإنترنت بالملايين، وهذا يجعلني أقوم بمقارنة سريعة مع كتب نجيب محفوظ التي كل ما طبع منها جميعاً لا يصل إلى الملايين الثلاثة التي حدثني عنها هذا الشاب.

نحن الآن نعيش في زمن يغلفه الضجيج .. ضجيج لا يعجبني بل يزعجني، ولكن أتمنى أن ينتج عنه شيء ما ذا قيمة .. نحن نعيش حالة من الصخب السلبي تقلب المفاهيم، فالأدب من العادة أن يؤثر بصمت، والقراءة كما نعرف عادة فردية على عكس المسرح، والسينما، والاستماع للغناء، ومتابعة الدراما التلفزيونية .. القراءة فعل إنساني فردي يخص القارئ وحده.

هذا الصخب مبهم النتائج ناجم عن واقع اجتماعي يمرّ بتغيرات مخيفة جداً، ف«الربيع العربي» أخذ منّا واقعاً لم نكن نريده، ولم يعطنا واقعاً لا زلنا نحلم به إلى الآن.

الجوائز

هل ترى في الجوائز الأدبية وتبعاتها نعمة أم نقمة .. سلبية أم إيجابية؟

الجوائز برأيي أمر مهم، كون أن المبدع في لحظة معينة بحاجة لأن يشعر بأن مجتمعه أدرك أهمية ما يقوم به، وقرر أن يتوقف للحظة ويشكره على أفعاله هذه، والتي هي بالضرورة تندرج في إطار الإبداع، هذا هو التلخيص الدقيق لفكرة الجوائز.

في التاريخ المصري هناك جوائز أدبية ارتبطت بالأثرياء، فأول جائزة حصل عليها نجيب محفوظ كانت من عائشة التيمورية، حفيدة أحمد تيمور باشا، وهي جائزة باسمها وتمنحها بنفسها، ثم جاءت جوائز الدولة .. الحاصل الآن واقع مختلف كلياً، فلكل دولة جوائز، ولكل حاكم في الغالب جوائز باسمه، والكثير من التجار ورجال الأعمال يمنحون جوائز أدبية تحمل أسماءهم.

عبده وازن كتب في جريدة «الحياة» أن العديد ممن تقدموا لجائزة «كتارا» التي تمنحها قطر، غيروا عناوين روايات سابقة لهم، ليتقدموا لهذه الجائزة التي تمنح مبالغ مالية كبيرة، وأنه تم استبعادها، ولكن لربما مرّت بعض هذه الروايات، وقد تحصل على جائزة ربما .. لقد تم تحويل الجوائز إلى ما يمكن وصفه بالكوميديا البشرية، على الرغم من أن جوائز الدولة في مصر لا تزال تحافظ على أصالتها إلى حد كبير، وعيبها الوحيد أنها تمنح للمصريين فقط، وهذا ينطبق على كافة الجوائز العربية.

كوني عضواً في البرلمان المصري، وبعد ان قدم قانون الجوائز، اقترحت أن تخصص إحداها بمبلغ كبير يصل إلى نصف مليون جنية لتكون جائزة عربية، وتم اعتماد هذا الاقتراح، وبرأيي هذا سيضيف الكثير لجوائز

الدولة في مصر، على أمل أن تكون الأسس التي يتم الاختيار بناء عليها سليمة.

نجيب محفوظ

عندما صرح أحد أعضاء البرلمان محرضاً على نجيب محفوظ، قلت بأنه تعرض لمحاولة اغتيال جديدة ؟

منذ بتّ عضواً في البرلمان، يشغلني أمران: "ازدراء الأديان"، وأعني تلك المادة القانونية التي تتحدث عمن يدان بتهمة ازدراء الأديان بالحبس لثلاث سنوات، وممن سجنوا على هذه التهمة إسلام البحيري، وهي التهمة التي تهدد فاطمة ناعوت، والثانية تتعلق بمادة قانونية صادرة في العام ١٩٣٨ وتتحدث عن ما يسمى «خدش الحياء العام»، وهي مادة كانت في واقع لم يعد له وجود.

القصة لها علاقة بأن أحد النواب وخلال نقاش المادة المتعلقة بـ«خدش الحياء العام» قال «سأسجن كل من يقوم بخدش الحياء العام"، فسأله زميل لنا "حتى لو كان نجيب محفوظ"، فأجاب بردة فعل "أنا أطلعه وأسجنه وأنزله تاني"، وهو ما اعتبرته اغتيالاً جديداً لنجيب محفوظ من شخص برلماني، كون هذا العربي الوحيد الحاصل على جائزة نوبل للأداب هو واحد من أكثر الناس إخلاصاً للأدب، ومن أكثرهم تأثيراً في مجتمعاتهم، وحول أدبه ومن وحيه أنتج ما يزيد عن خمسين فيلماً.

هل من مواقف لا تنسى مع نجيب محفوظ؟

أتذكر أنه حينما فاز بنوبل، وكان لديه مركبة خاصة، أشار عليه البعض بضرورة كتابة رسالة شكر ما في دفتر القصر الجمهوري، كون أن الرئيس السابق مبارك هنأه بالهاتف وكرمه وما إلى ذلك .. في المساء، أخبرني أنه ذهب بالفعل إلى «الرئاسة"، فسألته كيف، فأجابني بأن استقل مركبة عمومية (تاكسي)، وهذا يعكس بساطته وتواضعه، وبالفعل كان أكثر أبناء جيله إخلاصاً لفكرة الكتابة.

تعلمت من محفوظ الكثير، فهو يكاد يكون المبدع الوحيد الذي يمتلك تجربة حقيقية كنت أتمنى أن تعرفها وتتطلع عليها الأجيال الجديدة من الكتاب، ومنها أنه لم يكن يتحدث قط عن عمل له قيد الكتابة، كان يقول «إحساسي ومشاعري التي أريد تضمينها الرواية لو تحدثت عنها لنضبت ولن يتبقى لي ما أكتبه»، فكان يفاجئنا بأنه انتهى من عمل أدبي ما، كما أنه كان يقلل من قيمة ما يكتب.

أتذكر أنه حين انتهى من رواية «المرايا»، وهي عبارة عن رسم بالكلمات لبورتريهات شخصيات عرفها، كان حزيناً بأن يمر عام دون أن يخرج بعمل جديد، فخرج بالمرايا التي قلل من أهميتها باعتبارها تركيب لشخصيات وجدها فائضة من روايات سابقة، وتمثلها .. وحين تابعنا العمل بعد كذلك وجدنا أنه عمل مهم، ففي بورتريه سيد قطب اكتشفنا أنه كان ممن بشروا بنجيب محفوظ، وروج لأهميته الإبداعية في

وقت لم يكن يعرف نجيب أحد، وكان هذا قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة ويعود ليصبح منظر الأخوان المسلمين الأول والأخير، فهو من وضع يد الإخوان على العنف، بل إنني أرى أن «داعش» تنتمي بشكل أو بآخر لفكرته في تكفير الآخر، وأن الدين عند الله الإسلام .. حين قلت له بأن سيد قطب موجود في «المرايا»، أخبرني أنه زاره قبل إعدامه في زمن عبد الناصر، لكونه دبّر فكرة إغراق الصعيد بمياه النيل.

محفوظ وحول الزيارة الأخيرة لقطب، قال شعرت بأن عينيه باتتا عيني قاتل، وحين نقلت ما قاله لي نجيب محفوظ غضب مني .. كان له تجربة مهمة، ويحزنني أنه لم يدوّن مذكراته، وحين ناقشته في الأمر أحالني إلى كتاب حواري حول حياته لجمال الغيطاني، وآخر مع رجاء النقاش رحمهم الله جميعاً.

في روايات نجيب محفوظ الكثير من شخصيته، وخاصة الثلاثية، ف»كمال عبد الجواد» هو نجيب محفوظ كما رأيت، ولكنه قال بأنه يعبر عن أزمته الروحية وليس هو، لكني على قناعة بأن شخصية كمال هي ذاتها شخصية نجيب محفوظ، وهناك شخصيات أخرى لا أحب الحديث عنها.

حول الغلابة

يعرف يوسف القعيد بكتابته عن «الغلابة» .. وربما «الغلابة» فقط؟

أنا من أسرة فقيرة، بمعنى أنا واحد من هؤلاء «الغلابة»، ومن الطبيعي أن أنتصر إليهم ولنفسي فيما أكتب .. هذه إجابتي باختصار.

مؤخراً، استفزني قرار ترامب «المجنون» بخصوص منع الفقراء من عدة دول عربية ومسلمة من دخول أميركا، هذا قرار يستهدف فيه الفقراء قبل أي شيء آخر، والدليل على ذلك أنه لم يأت على منع مواطني دول عربية أو مسلمة ثرية، علماً أن بعض الدول البترولية الغنية هي من تصدّر الإرهاب .. الدول التي منع رعاياها من دخول أميركا لا يجمعها إلا كون غالبية مواطنيها هم من الفقراء، وهو تصرف "همجي، وبربري، ومنحط"، وكأن المشهد العالمي "جميل للغاية"، ولم يكن ينقصه إلا هذا "المجنون".

اللافت، أن أكثر الكتب مبيعاً الآن في أميركا، رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، وتبيع بأرقام مهولة في الولايات المتحدة هذه الأيام، وتشير الدراسات إلى أن السبب الأساسي لتنبه القراء الأميركيين لها، سلوكيات ترامب .. هذه ردة فعل، فالرواية صادرة العام ١٩٤٨، في عام نكبة فلسطين، ومع ذلك هناك إقبال عليها لكونها تتحدث عن شمولية الحكم، فالشقيق الأكبر المسيطر على مقاليد الحكم قادر حتى على قراءة الأفكار، ومعرفة ما يدور في أذهان الناس وحتى ما يحدث معهم في أحلامهم، وهذا يبدأ بالسياسة وينتهي عند المشاعر الخاصة .. لست متنبئاً سياسياً، ولكن إقبال الأميركيين على هذه الرواية قد يكون مؤشراً لبدء

انهيار الولايات المتحدة بانفصال بعض الولايات عن أميركا، أو أن تكون فترة حكم ترامب هي بداية فترة صعود اليسار في أميركا، وليس بالضرورة اليسار بمعناه الشيوعي، بل بمعنى الاتجاه بالواقع نحو الأفضل، بل قد تحدث تشققات داخل الجبهة الغربية، خاصة أن رئيس وزراء بريطانيا والمستشارة الألمانية انتقدوا قرارات ترامب في الفترة الماضية، لكن انتخاب هيلاري كلينتون كانت ستكون عواقبه أشد سوءاً، فهي تسير على منهج أوباما في خلق تحالف سني في مواجهة إيران والشيعة، وبالتالي دخول العرب والمسلمين في حروب تستمر سنوات طويلة، وعليه تحييد إسرائيل، وربما استبعادها كعدو.

التطبيع وفلسطين

التطبيع كلمة مطاطة .. كيف يفهم يوسف القعيد «التطبيع»، ويعرفه؟

خدمت في الجيش المصري، كما أشرت تسع سنوات، وليس لي أعداء إلا العدو الصهيوني، وهذا كان ينطبق على المصريين جميعاً، أو الغالبية العظمى منهم، وهذا هو واقع الحال في سنوات الحرب وسنوات السلم أو اللاحرب.

أتذكر أنه يوم تم انتخاب نتنياهو في إسرائيل للمرة الأولى، هاتفتني فاتن حمامة مطولاً، ووصفت نتنياهو بزائغ النظرات، وعبرت عن مخاوفها من سياساته، وأثبتت الأيام أن مخاوفها لم تأت من فراغ، فلا ثبات داخلي لديه برأيي.

للأسف، القضية الفلسطينية تراجعت في وجدان الناس بمصر لأسباب تتعلق بالواقع العربي الجديد، كما أن هناك مسؤولية تقع على الفلسطينيين، وأخرى على الثورات وتبعاتها.

بوضوح، لو وجهت دعوة لي، حتى لو من جهة فلسطينية لزيارة رام الله لن ألبي هذه الدعوة .. أعلم أنني قد أعاقب الفلسطينيين الذين لا ذنب لهم، ولكني لا أستوعب أن تكون زيارتي مرهونة بموافقة العدو .. أتذكر أن الناشر محمد مدبولي رحمه الله، صاحب مكتبة مدبولي لبى قبل سنوات دعوة وزارة الثقافة الفلسطينية وشارك في معرض الكتاب برام الله، لكنه ما لبث أن رجع بعد أن أخبروه أن البيع والشراء سيكون بالعملة الإسرائيلية (الشيكل) .. قال: تشل يدي قبل أن أمسك هذه العملة، وغادر المعرض عائداً إلى مصر.

ما رأيك بتصريحات يوسف زيدان حول المسجد الأقصى؟

لا يستحق التعليق .. هناك وهم لدى كثير من المثقفين العرب، بأن نجيب محفوظ حصل على جائزة «نوبل» في الآداب بسبب موقفه المؤيد لاتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل ومهادنته مع الإسرائيليين .. محفوظ صديقي، وفي مرضه الأخير جاءه مندوب السفارة الأميركية وأبلغه بأن السفير الإسرائيلي يريد زيارته وأن إسرائيل مستعدة لتقديم كل إمكانياتها الطبية لعلاجه، ورفض ذلك.

تصريحات زيدان مبنية على تصور يصل حد الانتحار، فعدد من المثقفين العرب يرون الوهم حقيقة حين يعتقدون بأن تل أبيب هي بوابة العالم، وأقول لهؤلاء: لو كانت إسرائيل هي من تتحكم بجائزة نوبل للآداب لفاز فيها كاتب إسرائيلي، خاصة أن لديهم كتاباً مشهورين على مستوى العالم .. صحيح أن يهوداً كثر حازوا جائزة نوبل للآداب، لكني أتحدث عن إسرائيل وليس عن ديانة الفائزين بالجائزة، ولو كان نفوذ إسرائيل لدى القائمين على الجائزة بالحجم الذي يتوهمه بعض الروائيين والمثقفين العرب لفاز عاموس عوز أو غيره من كتاب إسرائيل بالجائزة.. هذا وهم ضائع.

ماذا عن يوسف القعيد والأدب الفلسطيني؟

قرأت في السنوات الأخيرة ليحيى يخلف، وإبراهيم نصر الله، وليانة بدر، أما محمود درويش فكانت تربطني به علاقة شخصية، وكذلك سميح القاسم الذي رافقته بجولة في القاهرة عند زيارته الأولى لمصر، وكان لي لقاء بإيميل حبيبي الذي طلب مني مرافقته لضريح جمال عبد الناصر في ذكرى رحيله ذات مرة، وبالفعل توجهت إلى حيث كان يقيم في احد فنادق القاهرة، وذهبنا سوياً بمركبتي إلى ضريح عبد الناصر، حيث وضع إكليلاً من الورد عند الضريح، وكتب كلمة في دفتر زوار الضريح وقتها.

أسمع، ولا أدري مدى صحة ذلك، بأن نسبة الذكاء والتفوق العلمي في غزة من أعلى المستويات عربياً، لكني على قناعة بأن شعباً مر ولا يزال بأطول محنة في التاريخ هو شعب متجدد، ولكنني أتخوف من عدم ظهور كتاب جدد بمستوى درويش وسميح وتوفيق زياد صاحب «أشد على أياديكم»، كما أخشى أن تخرج في فلسطين أجيال تذوب القضية في وجدانهم، أو تفقد رموزها المادية لديهم .. الكارثة الحقيقية أن تموت فلسطين في وجدان الفلسطينيين، كما توشك أن تموت لدى عرب ومسلمين كثر انشغلوا بمشاكلهم عنها.

أخيراً .. ماذا تقول لأهل فلسطين؟

سأستعير تعبيراً لجمال عبد الناصر بما معناه أن قضية فلسطين هي أهم قضية في القرن العشرين، والأستاذ محمد حسنين هيكل له كتاب بعنوان «نار في الأراضي المقدسة»، وقال فيه بأنه لولا أحداث العام ١٩٤٨ لما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، لأن الضباط الأحرار هم من شاركوا في حرب ١٩٤٨ بهدف تحرير فلسطين .. الفكرة اختمرت في «عراق المنشية» بفلسطين، والتي حوصر فيها جمال عبد الناصر، ولولا فلسطين لما قامت ثورة الضباط الأحرار بمصر. أقول لشعب فلسطين: قضيتكم هي أنبل قضية، وارضكم كانت منبت ثورة يوليو ١٩٥٢ .. اعتبروا الوضع الراهن من حولكم كبوة عابرة، فأنتم أصحاب الحق والأرض، وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح

إبراهيم عبد الستار:
توثيق مبكّر للشعر الفلسطيني في ثورته القومية

جهاد أحمد صالح

إبراهيم عبد الستار، كاتب فلسطيني لا تتوفر المعلومات الكافية عن سيرته الذاتية، لكننا ونتيجة البحث عن سيرته الأدبية، اكتشفنا أنه ولد عام ١٩١٧م، وقد راسل جريدة «الأديب اللبنانية» ونشر في عام ١٩٤٤م، مقالاً حول المسرح الفلسطيني، أورده الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه «حياة الأدب الفلسطيني الحديث – من أول النهضة – حتى النكبة»، كتب فيه أن إبراهيم عبد الستار كتب تقريراً عن الفن المسرحي في فلسطين العربية، قال فيه «لأول مرة في فلسطين تألفت فرقة تمثيلية، وقامت بعرض رواية اجتماعية كبيرة لشكسبير – هملت – وهي من تعريب الكاتب طانيوس عبده، وإخراج الأديب جميل إلياس خوري ... ولقد سبق أن قام بعض شبان النوادي والمدارس الوطنية بتمثيل عدة روايات في أنحاء البلاد، لكنهم لم يصلوا إلى المستوى الذي وصلت إليه «فرقة الكرمل التمثيلية» وعلى رأسها الممثل إسكندر أيوب، ولقد قامت في فلسطين فرق تمثيلية، إلاّ أنها كانت بإشراف أجنبي... ولأول مرّة يمكننا أن نقول: إن فرقة الكرمل هي الفرقة العربية التي استطاعت القيام بأدوار تمثيلية «هملت» المعقدّة ونجحت فيها... ومن بين أفراد الفرقة سيدات ممثلات أجدن أدوارهن، كأسماء خوري وثريا أيوب.. ومن بين مناظر التمثيل ألقى الشاعر الفلسطيني محمد حسن علاء الدين قصيدة عصماء وضعها خاصة لحفز النهضة التمثيلية في البلاد... وعلى الجملة فقد كان تمثيل «هملت» افتتاحاً رائعاً لوجود تمثيل عربي قومي في فلسطين العربية» وقد نشرها في جريدة الأديب جزء ٧ السنة الثالثة.

ومرّة ثانية يستشهد الدكتور ياغي بما كتبه إبراهيم عبد الستار عن حياة حركة النقد وسلسلة من الردود، تدور كلها حول الدفاع عن الشعر والشعراء، وعن الأدب والأدباء. وعن الحياة الأدبية في

فلسطين، بمقالة كتبها عبد الستار في جريدة الأديب، الجزء الرابع السنة الثالثة لعام ١٩٤٤م، كتب فيها: «عن شعراء فلسطين ثم كتب عن أدبائها.. كما كتب كتاباً يحمل هذا الاتجاه عن «شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية». وكان كتابه عن «شاعر الضفتين» تقريضاً مفتوناً للأستاذ الشاعر الفلسطيني محمد حسن علاء الدين».

ويبدو أن علاقة قوية كانت تربط إبراهيم عبد الستار بالشاعر محمد علاء الدين، فيذكر أنه بينما كان الأخير مسجوناً بين قضبان السجن المركزي في عمان، صدرت دراسة أدبية عنه بقلم إبراهيم عبد الستار بعنوان «شاعر الضفتين».

ويؤكد فاروق وادي في كتابه «ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية» إشارة أخرى أوردها إبراهيم عبد الستار في مقالة «لمحة عن أدباء فلسطين» نشرها في العدد التاسع، أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤م، في معرض حديثه عن رواية «على سكة الحجاز» لجمال الحسيني فهي «مأساة لترحيل قرية عربية كاملة من موطنها في اللواء الشمالي ورسم ظروف عائلات تلك القرية وأنواع الارتباك والمتاعب التي استولت على أفكارهم وحياتهم المعنوية والمادية عندما هوجموا بانذار الحكومة وقد تعودوا أن يعيشوا من محصولهم كل عام، وفي سكة الحديد وصف للروح الوطنية المؤزرة بعناصر التضحية في نفوس الشباب العربي الفلسطيني، فإلى جانب تلك القصة مأساة حزينة شجية هي أيضاً مليئة بالتشوف والإطمئنان إلى مبادئ وأعمال وطنية انشائية».

لكن ضياع هاتين الروايتين، يبقى حائلاً دون وضعهما الدقيق في موقعهما كنتاج قد يكون متميزاً في إطار العطاء الروائي الفلسطيني لتلك الحقبة. إلاّ ان ما يتوافر حولهما من اشارات، يظل قادراً على تكون انطباع أولي عنهما: فهما في موضوعهما وهمومهما لم تستنكفا ولم تغتربا ولم تخنا، بل ظلتا ملتصقتين بواقعهما ومخلصتين في استلهامه والتعبير عن الأكثر جوهرية من قضاياه.

وفي هذه الإشارة التي أوردها فاروق وادي، يسعدنا أننا قدمنا بعض الشروح ومقتطفات من هاتين الروايتين لجمال الحسيني في موسوعتي «روّاد النهضة الفكرية والأدبية وأعلامها في فلسطين الجزء الثاني» (أنظر الجزء الثاني ص ٧٨٦ – ٧٩٩).

قراءة في كتاب: «شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية»

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٧م، عن دار الإخاء العربي – بحيفا، في فترة مبكّرة من توثيق التراث الأدبي الفلسطيني، أهداه مؤلفه «إبراهيم عبد الستار»: «إلى قلب العروبة الخفاق وركنها الركين، فلسطين الثائرة وأحرارها المناضلين...».

ويكشف هذا الإهداء عن جملة حقائق، أهمها:

رؤية الكاتب للمؤامرات التي تدور حول وطنه فلسطين، وأهمية تسجيل ما له من آثار ومكانة في الحقل الأدبي الشعري.

إن النتاجات الإبداعية والفنية، التي استشهد بها، ليست سوى طائفة من الشعر، لشعراء جعلوا قضية الوطن مجال إبداعهم.

ان هذا الاستنتاج المبكّر، ورغم وضع فلسطين في مقدمة إبداعه، إلاّ أنه في روحه ومضمونه امتداد لمسيرة الشعر العربي، بمفهومه القومي.

تأتي أهمية هذا الكتاب، بأنه تسجيل لبعض إبداعات الشعراء الفلسطينيين قبل نكبة عام ١٩٤٨م، بعد أن قامت العصابات الصهيونية بحرق المكتبات الفلسطينية العامة والخاصة، كما أنها صادرت جميع مقرات الصحف الأدبية وأحرقت محتوياتها، ما جعل هذا الكتاب مرجعاً لمن سجّل دور الشعر الفلسطيني في دفع مسيرة النضال.

لقد أورد إبراهيم عبد الستار غالبية هذه القصائد، قبل أن تطبع وتنشر أعمال هؤلاء الشعراء الذين استشهد بهم، الأمر الذي جعل هذا الكتاب بمثابة مرجع لغالبيتهم، وتحديداً في أشعار: مطلق عبد الخالق، وعبد الرحيم محمود اللذين طبعت أعمالهما بعد وفاتهما بفترة طويلة.

الأمر الذي جعل الكاتب «إبراهيم عبد المجيد حمّاد» بأن يشير إلى هذه الأمور، في مقدّمته المختصرة، فيقول:

«ليس هذا الكتاب إلاّ توطئة لتاريخ الحركة الأدبية وأقطابها من الشعراء المجلين الذين ساهموا في بعث الحياة الوطنية وهزّ الوعى القومي وحض الشعب على العمل المجدي والذود عن الحمى. وليس هذا سجلاً شاملاً يبحث الكاتب فيه أو ينقّب عن مآثر جميع شعراء الثورة في مواقفهم الخطابية وأعمالهم الأدبية، ولكنه مجمل لكتاب شامل مفصل، ومرجع لمؤرخ الأدب العربي في ثورة فلسطين القومية.

ولئن تناول المؤلف موضوعاً كهذا في هذا الظرف العصيب، فنِعمَ ما تناول في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الأدب الثائر لا المتخاذل المتمايع، ونحن في أمسّ الحاجة إلى تمجيد الثرى الذي درج عليه النبيون والمصلحون والذائدون عن الوطن، ناهيك أيها القارئ عن تجديد ذكرى ثورة فلسطين الدامية، وناهيك عن إحياء الروح الوطنية الخالصة، وتخليد من استشهدوا في ساحة الجهاد من أولئك الأبطال المغاوير الذين تركوا قبساً من نور اليقين، يقين الأيقاظ نستنير به في دجوات الأيام المظلمة.

اننا إذ نقدّم رئيس هذا النادى الأستاذ إبراهيم عبد الستار في هذا الكتاب، نعتقد جازمين أننا بلا فخر قد قدّمنا واجباً سديداً مجدياً لتراث أدبنا العربي، وشعرنا الذي هو واحة الآداب العربية المكرمة».

يقع الكتاب في ٨٠ ثمانين صفحة من القطع المتوسط، قدّم لها المؤلف بمقدمة طويلة حول ما يدور على الساحة الفلسطينية من أحداث، يقول فيها:

«نرى فلسطين الآن وفيها أنوار تتلمس الحقيقة واليقين، وفيها تحفز إلى تيار الحياة يرسو بسفينتها على شاطئ من المثل الأعلى- نرى فيها صراعاً بين أمواج الظلام الاستعماري، وظلام القوى الرجعية الجامدة المتحجّرة أمام دوافع الفكر من ناحية، وبين قوى النور الهادف إلى بعث حياة جديدة تتواتى مع مثل العالم المنشود، الذي يضع لكواكبنا رواسي راسخة من الحياة الثرية في مثلها وفي وئامها. وإذا رجعنا نحلل الوضع كما نراه الآن في هذا القطر، نجد أن الأسباب التي دعت إلى وجود هذا الصراع تعود إلى مسببات هي في مجموعها تدل على أن الحكم الحالي، وهو الحكم البريطاني، عندما جاء إلى فلسطين وجد تركة له تريّحه من أعباء العمل على إضعاف نفسية الشعب العربي في هذا الثرى. فقد أتى هذا الحكم إلى فلسطين بعد أن خلف الأتراك تركه موبوءة، إذ إنهم كانوا يعملون على تقييد المرأة، وعلى تشجيع طبقة من الأمة هي طبقة الذوات فحسب، وكان تشجيعهم لها تشجيعاً لتيارات المادة والتكالب على أوضار الحياة، لأنهم يعلمون أن في تشجيع هذا التيار تلويحاً لجموع الشعب، بأن هذا هو هدف الحياة رغم أنهم لا يستطيعون أن يصلوا إليها.

فهم بذلك يقهقرون الشعب في حياته المادية ويضعون أمامه مُثلاً لا تمت إلى المثل العليا بأية علاقة.

فأربعمئة عام مضت على هذا الرحاب الفلسطيني وهو مدقع في حياته الثقافية، حتى ليكاد ينسى لغته وآدابه وسجاياه، ولا يمكننا أن نغفل أمر الإشارة التي أتت من الأستانة في أواخر ذاك العهد، تأمر بتتريك العناصر العربية، وكانت تلك الإشارة تتعلق بالعمل على تحويل القومية العربية إلى قومية تركية عن طريق نشر اللغة والآداب التركية، وعن طريق نشر العادات التركية والفكر التركي وإحلال جميع ذلك محل تراث العرب في ما هو من ذلك الحقل... السجايا والفكر واللغة.

ونعود قليلاً هنا إلى ما قبل هذه الفترة، فترة جمعية الاتحاد والترقي، التي حملت لواء تتريك العناصر العربية، لترى ملوك بني عثمان يشجعون الرشوة ويتمسّكون بأهداب الأغنياء والمترفين في فلسطين العربية، ليتحكم هؤلاء الأغنياء والمترفون بجموع الشعب، من عامل وفلاح تحكماً يتيح لهم أن ينصبوا المشانق على معابر الطرق، يقضون بها على حياة الأفراد الكادحين، لأنهم لم يدفعوا الضرائب التي يفرضونها على الأحياء والقرى والمدن فالرشوة والمحسوبية والعائلية والطائفية كل هذه الجراثيم الفتّاكة في جسم أمة عريقة تريد حياة اجتماعية نابضة – كل هذه الجراثيم

الاجتماعية استطاع الأتراك، أن يتركوا لها جذوراً في رحاب فلسطين العربية، وعندما تسلّم هذا القطر أو هذا الرحاب حكم آخر، بقوة الحديد والنار كان شأنهم في ذلك شأنهم في أي قطر عربي آخر، فهم كانوا يهدفون في الأقطار العربية الأخرى إلى محو القومية العربية، وكانوا يهدفون إلى إيجاد جراثيم الانحلال الاجتماعي.

ولا يفوتنا أن نذكر ههنا أن الأتراك في تمكنهم من إيجاد جراثيم الانحلال الاجتماعي، كانوا يستمدون عوناً في تمكنهم هذا، من أنهم هم أنفسهم كانوا في مستقر دولتهم وعواصمهم منحلين اجتماعياً، يسودهم حكم فيه الكثير من التقهقر والمحسوبية والعائلية والطائفية وإفناء حرية الشعب. لكن الفرق بينهم وبين الشعوب التي يحكمونها في الأقطار العربية وفي الأقطار الأخرى، كأقطار البلقان مثلاً – هو أن الأتراك كان بينهم فريق لامع يعمل خفية على قلب الوضع بالنسبة إلى أمتهم. بينما الأقطار التي كانوا يحكمونها لم يكن بينهم مثل هذا الفريق، رغم وجود حركة بادرة من هنا، ومن هناك، بين الفينة والفينة، لكنها ليست بالحركة المطلقة إطلاقاً يقينياً فهي حركة عابرة لا تمت إلى جذور حياة الشعب لتبعثه بعثة قوية، ينهار إثرها بنيان الظلم والظلام، وهذا ما كان يقصده فريق النهضة في الوطن التركي ذاته، سواء أكان أفراد هذا الفريق في الآستانة أم في الريف التركي أن لا يوجد مثل هذا الفريق في الوطن العربي وفي فلسطين العربية على وجه الخصوص، جعل مجالاً. لعناصر الارتداد والإنهيار سواء أكانا اجتماعيين أم سياسيين، وسواء أكانا يتعلقان بحياة الفن أم بحياة الثقافة على وجه عام، جعل مجال تلك العناصر يؤثر على تهديم وإبادة مزايا القومية والحياة النابضة في فلسطين العربية وفي الأقطار العربية الأخرى.

فشعب لا يعرف حرية المرأة، ولا يمارس حرية الفلاح والعامل، وشعب تكبت فيه كبتاً دائمياً نبضات الفن القومى الحر الذي يفجّر ينابيع الانعتاق والدأب شطر المثل الأعلى لا ينتظر منه أن ينتج إنتاجاً قومياً سواء أكان هذا الانتاج في حقل الآلات والمعادن أم في حقل الزراعة والحدائق أو في حقل الفنون والمعارف والعلوم والثقافة. وقد ذكرت هذا الحقل في المرتبة الثالثة لا لأن قيمته أقل من الحقلين الأولين، بل لأجعل أسلوب الحياة الذي كان يعيش أجدادنا في هذا الرحاب، ماثلاً للعيان في مظاهره من الشارع إلى المعمل إلى هيكل الثقافة. وهيكل الثقافة قبل كل شيء هو الدافع الأول والأخير وهل تتحرك الآلة الجامدة بلا فن وبلا ثقافة؟

مرّت فترات الحكم التركي الطويلة، فتركت ما تركت من انهيار بقي أثره حتى عامنا هذا، لم يجد كما ذكرنا الحكم الذي تلا الحكم التركي أية صعوبة في تأصير قيوده، وإحكام هذه القيود في أيدى شعب يعانى من انهيار كاد أن يصبح طبيعة ثانية له.

***

وندع هذه الفترة لنرجع قليلاً مع موكب تاريخ هذا القطر إلى عصر لقي ألواناً من الحياة تترنح بين المجد وبين قوة من الانقسام الداخلي في الأمة العربية، فهو عصر كان فيه خصوم الأمة العربية منها وفيها. وإن كانت عناصر من القوميات الأخرى غير العربية قد ساعدت أيضاً على إيجاد باعث على الانهيار؟ لكن هذه العناصر لم تكن وحدها هي العاملة فيما يتعلق بذاك، بل وجدت بادئ ذى بدء بين جموع الشعب العربي طوائف وفرق يرجع عهدها إلى آماد وآماد من الزمن، وأتمكن من تحديدها أو تحديد بدئها بعصر عثمان بن عفان؟ فإثر الفتنة التي سببتها محسوبية عثمان في سياسته في الحجاز ونجد، والأقطار العربية وفلسطين العربية على وجه الخصوص – إثر تلك الفتنة انقسمت الطبقة الحاكمة في الشعب العربي إلى علويين وأمويين. وفيما بعد انقسمت الطبقة الحاكمة في الشعب العربي إلى ثلاث فئات وهي الفئة العلوية والفئة الأموية والفئة العباسية، نقول هذا رغم أن التقارب بين الفئة العلوية والفئة العباسية كان ذا نصيب يعتد به إلى حد أن أحد الخلفاء العباسيين وهو المأمون صمم على مبايعة علوي بالخلافة، ليحل مكانه بعد انقضاء مدة خلافته. ولا يغررنا هذا المظهر بحال من الأحوال؛ لأن ما قام به المأمون لم يكن سوى نزعة طارئه بالنسبة إلى السياسة الدائمية التي كان يجرى عليها الخلفاء العباسيون، فهم في سياستهم تلك لم يكونوا إلاّ وجلين من طروء النفوذ العلوى فقد تناسوا بل نسوا فعلاً تأثير علاقة النسب في تسيير دولاب الدولة، وأصبح للتراث السياسي هدف قائم بحد ذاته وهذا الهدف يأتي في عناصره الأولى أن لا تضيع الخلافة من أيدى العباسيين، متسربة إلى أية سلالة أخرى ولو كانت السلالة الفاطمية. وكون العباس جد السلالة الأول، كونه عم النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي العربي القرشى لم يحل دون أن تكون هذه السياسة مقصودة لذاتها ودون أن يضع خطوطها خلفاء عباسيون، هم على تلك الغرابة في النسب من فئة خصومهم الثانية.

إذن فالأمة العربية بفلسطين والأقطار العربية الأخرى، وقد كانت قبل الفترات الأخيرة من العصر العباسي تترنح أو تتأرجح بين دوافع سياسية متعددة، لكنها تحصر، كما ذكرنا، في دوافع ثلاثة، ووسط هذه الدوافع تقدم إلى ميدان العمل السياسي رجال من جموع الشعب لكنهم عندما تقدموا عن طريق الفئات الحاكمة، فهم متوائمون مع الفئات الحاكمة في بدء الأمر، منفذون لما تأمر به تلك الفئات. لكن ما يهدفون إليه شيء آخر. ويختلف هذا الشيء بمقدار ما يحظى الرجل منهم فيما يتعلق بعالم الضمير القومى والثقافة القومية والميل الكاد الدائب إلى الإصلاح الاجتماعي.

ففي هذه الفترات من الزمن التي أتت في زمن تقهقر الخلافة العباسية، نرى رجلاً كصلاح الدين الأيوبي ينهد إلى إنقاذ الأمة العربية وإلى إنقاذ فلسطين العربية في فترة سياسية من أحلك الفترات التي مرت بها الأقطار العربية وفلسطين العربية. فينقذ الموقف وتعود إلى الشرق العربي ميزاته

الثرية في عالم السجايا، وأقل ما يمكننا أن نقول: إن صلاح الدين الأيوبي استطاع أن ينقذه من حياة الشعب العربي في فلسطين العربية والأقطار العربية الأخرى، هو أنه أثبت أن هذا الشرق العربي يمكنه إذا أراد أن يرد طعنة المغير. إلا أن صلاح الدين عالج الموقف سيفاً ولم يعالجه قلباً وفكراً .

وهذا لا يجعلنا نقول إن صلاح الدين الأيوبي لم يكن عصره مزدهراً في عالم الفنون والفكر، إذ إن الشعب العربي في عصره، مارس ما لا يقل عما كان يمارسه في أي عصر من عصور الخلفاء العباسيين في ما تتعلق بذاك أي بالفن والفكر. لكن صلاح الدين لم يوطّد للملك بعده كما وطّد الخلفاء العباسيون، وكما وطد قبل العباسيين الأمويون والراشدون، لا لأن الرجل تنقصه القدرة في هذا الحقل؛ بل لأن أعباءه كانت أكثر من أن يضطلع بها فرد واحد له قدرة هي قدرة فرد من أفراد كوكبنا عندما يتوفر على عمل خُلقَ له. فتلك الأعباء لا يضطلع بها فرد من أفراد كوكبنا هذا، كما ذكرنا له تلك القدرة، وله إلى جانب تلك القدرة الشيء الكثير من مزايا السجية والضمير والعقل؛ بل يضطلع بها أفراد نادرون يجود بهم الزمن في كل الف عام مرة. ووجودهم ندرة من الندر فهم أعلى من مستوى أفراد كوكبنا هذا إذا ما وجدوا، ولا أشك في أن الزمن جاد به ولكن على هذا الوجه الذي أذكره، وهو أنهم كانوا ندرة الندر. فصلاح الدين الأيوبي لم يكن مقصراً إذا ما قورن بخلفاء العرب وملوكهم. ولو أن الرجل أحاطت به زمرة من الأمة العربية في عصره، فأصّلت خططه وجعلت لها قابلاً من الزمن يجعل منها إنارة لطريق في الحياة، جديد كل الجدة، يسلك الأمة العربية إلى قلاع من حياة متينة مراكزها موطّدة في نواحي الشعب- لو وجد ذلك لكان من المؤكد أن تزدهر في الأمة مدنية لا تدع لعناصر مثل عناصر المماليك والأتراك متسعاً لأن يتسربوا إلى بنيانها. وأن يعملوا على اجتثاث العناصر في دفعها شطر حقول المثل العليا والعمل الدائب لكيان القومية.

وفي هذا العصر، عصر صلاح الدين الأيوبي نرى رجل الموقف، وهو صلاح الدين، يتقدم بخضوعه ولو اسماً للخلافة العباسية، وفي الزمن ذاته كانت الدعوة الفاطمية قد بدأت في القسم النائي من أفريقية، ولا بدّ من تقدير هذا الظرف السياسي الذي انوجد وسط ظرف صلاح الدين للوقوف على نوع من الصعوبات التي كانت تجابهها معاركة في الأقطار العربية ذاتها؟ فهو عندما كان يقاوم جيوش الأوروبيين في فلسطين العربية، كان في الوقت ذاته يلقى جوا في رحابه، ليس بذاك الجو السلس الذي يتيح له كل ما يريد من خطط قومية دون عرقلة تبدو من هنا ومن هناك.

نرى في عصر صلاح الدين تموجاً عربياً صدر عن رجل شرقي أتى ليصد غارة الغرب على الشرق، وعلى وجه الخصوص غارة الغرب على فلسطين العربية في المرتبة الأولى، وعلى الأقطار العربية في المرتبة الثانية. والرجل كان ذا مبدأ ديني أكثر منه ذا مبدأ قومي، إلاّ أن الصدف جعلت من مبدئه

مساعدا على حفظ القومية العربية. فالذي كان يقصده صلاح الدين في كيانه الضميري هو الذود عن الشرق المسلم. إلاّ أن اتجاه الموجة الغربية وتصميمها على إبادة القومية العربية جعله - دون أن يقصد - كبير التأثر بإنقاذ قطر هو قسم من الشرق المسلم وإن كان في قولنا قسم من الشرق المسلم، شيء من التجاوز على الدقّة العلمية، اذ أن فلسطين هي قبل كل شيء قطر عربي قبل أن تدخلها العقيدة الإسلامية وبعدما، ففلسطين هي محط رحال أزد القبيلة العربية التي نزحت قبل ميلاد السيد المسيح بمائة عام من أطراف الجزيرة العربية الجنوبية، بل من اليمن ذاتها، ذلك القطر الذي نبعت منه كل قومية الجزيرة العربية فهو منمى قبيلة قحطان، وقحطان هي المردّ الأول لتسلسل الشعب العربي. فلولاها لما كان عدنان، ولما كان من خلف عدنان من قبائل، بفلسطين العربية تخلصت من الخطر الغربي الذي كانت تقصد إليه شعوب أوروبا والممالك الغربية التي تأسست على رحاب فلسطين إثر الغزوات التي قامت بها جيوش الغرب في عصر صلاح الدين وقد تقوضت واحدة بعد الأخرى.

ونعود الآن إلى تاريخ الحركة القومية بفلسطين إلى العصر العباسي، فنجد في أثنائه فلسطين العربية قطراً يساهم في حياة مجموع الأمة العربية المساهمة ذاتها التي كان يساهمها في العصر الأموي، فالقطر يمارس حياة قومية فيها جميع العناصر التي نراها في أي قطر عربي آخر في أثناء ظل الدولة العباسية. وإذا عدنا إلى عصر الدولة الأموية نرى فيه فلسطين العربية ماضية في حياة هي بين السلم والحرب شأن الأقطار العربية الأخرى، التي كان يتسابق المتسابقون من رؤساء الفرقاء الثلاث، والتي كان مصمماً كل منهم على أن تكون له السيادة في الأقطار العربية أجمع. وهم فريق علي بن أبي طالب وفريق معاوية بن أبي سفيان، وفريق رجال العباس بن عبد المطلب. على أن فلسطين العربية في ذاك العصر مضت في الاحتفاظ بقوميتها وسط المؤثرات المتباينة. وهذه المؤثرات لم تكن لتحول دون قومية فلسطين، كما لم تحل مؤثرات أخرى أشرنا إليها في العصور التي تلت العصر الأموي والعصر العباسي.

ونهدف الآن، أو نعود للمرة الثالثة إلى القومية العربية بفلسطين في أثناء المدنية العربية الأولى، أي في العصر الذي لم تكن فيه العقيدة الإسلامية قد نشرت دعوتها بين ربوع الأقطار العربية، فنرى أزد تستقر في هذا القطر وتنشئ لها طرازاً من الحياة في التنظيم والدولة والحقل الاجتماعي والشؤون العمرانية وكل ما يمت إلى حياة أمة عريقة، وهذا الطراز دأب على تكوين أفراد أزد إلى أن أصبح كياناً خاصاً له ميزاته التي يتميز بها عن أي طراز آخر، مع وجود تقارب في مقومات هذا الطراز القومي في العراق وفي نجد وفي أوساط اليمن والبحرين والحجاز، فالقومية في ذلك العصر الذي امتد ما يقرب من ست مئة عام، كانت متينة الجبهة في هذا القطر العربي. وتأثره بمدنية الرومانيين

كان تأثرا منسقا يجعله يذوب في المقومات العربية ولا يذيبها. فنرى القطر يعتز بسجاياه وبأدابه وثقافته مؤثراً إياها جميعاً على ما يراه من سجايا الرومانيين وآدابهم وثقافتهم، ونرى دلائل بينة على وجود حياة عربية كاملة نابضة بمحفزات المجد بالمفاخر التي استطاعت الأقطار العربية أن تكون متاحة لها في أثناء تلك الأعوام.

ففلسطين العربية كانت ذات قومية راسخة وقد يساعد على فهم هذه الناحية من القومية العربية في فلسطين، من يريد الوقوف على الدوافع القومية التي تجعل من مواطني هذا القطر الآن ذواداً عنه، وحماة له، لا يستهينون بشبر منه. كما أن ما مرّ على هذا القطر من كوارث قومية سياسية، مما أشرنا إليه في هذه المقدمة، يساعد على فهم ترخص بعض الأفراد فيما يتعلق بضياع هذا القطر، لكن الكفة راجحة مع القسم الذائد لا القسم المستسلم، وستبقى راجحة بل سيزداد رجحها. ولا ريب في أن الحياة الثقافية وأخص فأقول: لا ريب في أن الحياة الفنية ساعدت على تأجيج نزعات المحافظة في نفوس الشعب العربي بفلسطين، وما سيطلّع عليه القراء من منتخبات شعرية في أثناء استعراضي لجهاد شعراء الثورة، يدل على ذلك أبين دلالة، ويشير إشارة لافتة إلى أن الفن العربي الفلسطيني والشعر بنوع خاص، اضطلع بما يضطلع به الفن الباعث المنقذ. فكما ذكرنا سيجد القراء هذا في صفحات هذا الكتاب الذي أقدمه إلى أفراد الأمة العربية في فلسطين وفي الأقطار العربية الأخرى، ليروا ما هو في وسع الفن أن يوطّده في حقل القومية المتمسكة بأداء رسالة يتمادى تأثيرها على مدى العصور والأجيال.

شعراء الثورة

يختار إبراهيم عبد الستار، مجموعة من الشعراء الذين أطلق عليهم «شعراء الثورة» كمقدمة لمشروعه في توثيق إنتاج شعراء فلسطين في الدفاع عن قضيتهم، واعداً بطباعة الكتاب الثاني في هذا المجال، لكن ظروف النكبة قد وقعت، فضاع ما جمعه الكاتب من آثار، يقول في تقديمه لشعراء الثورة بأن «عام الف وتسعمئة وستة وثلاثين، عام لا شك في أنه فاصل في تاريخ فلسطين العربية من جميع نواحيه، ما كان منها متصلاً بالآداب، أو بالعلوم، وما كان منها متصلاً بالاجتماع والسياسة.

إنما هنا نحن معنيون بالالتفات إلى موضع الفصل في ذلك العام بصدد الآداب العربية في ذلك القطر العربي، وبتعبير أدق بنوع من تلك الآداب في ذلك القطر وهو الشعر. فهل يمكننا أن نقول: إن فلسطين العربية أظلت شعراء للثورة، الجواب: «نعم، وبكل تأكيد، إذ إننا لو قارنا بين فلسطين وغيرها من أقطار العربية بصدد ما أنتجه شعراء كل بلد لتطوير الشعب شطر ثورة جامحة، ذات

هدف تفك عنه أغلال الماضي، لما رأينا إنتاج الشعراء في هذا القطر يقلّ في الكيف أو الكم عن إنتاج شعراء الأقطار الأخرى.

والأمر يختلف هنا بين شاعر وآخر من شعراء فلسطين بصدد المقدار الذي ساهموا فيه بحركة الثورة العربية في بلادهم. فمنهم من كان يعمل دائباً قبل اندلاع نيران الثورة على إيقاظ الوعي القومي الوطني على وجه مشخص بين مصرّح تصريحاً لا غموض فيه. ومنهم من كان يلفت الأنظار إلى الأخطار المحدقة بالوطن، أما العلاج الوحيد لقضية فلسطين هو الثورة والثورة لا غير. ومن بين هؤلاء أو بتعبير أدق الشاعران في ذلك القطر اللذان سلكا هذا السبيل هما محمد حسن علاء الدين وإبراهيم طوقان، ونحن شديدو الأسف عندما نتكلم عن هذين الشاعرين بهذا الصدد، وأحدهم لا يتمثل في هذا العالم؛ إذ إنه قد انتقل إلى العالم الآخر بعيد أعوام الثورة وهو إبراهيم طوقان، أما أولهما فهو يعيش بين ظهراني وطنه وحماه حتى هذه اللحظة وهو محمد حسن علاء الدين».

وعلى الرغم، من أننا سبق وأشرنا إلى مسيرة هذين الشاعرين، ومعظم الشعراء الآخرين الذين استشهد بأشعارهم، إلاّ أننا سنضع بعضاً منها، حفاظاً على السياق العام، الذي طرحه إبراهيم عبد الستار في هذا الكتاب.

ففي الأعوام التي سبقت الثورة كنا نرى في الصحف الفلسطينية والعربية بوجه عام إنتاجا شعرياً كثيراً إما يكون بعيداً عن الجو الوطني الذي تتطلبه فلسطين العربية، وكثيراً ما يكون نائياً عن الاصلاح الوطني المنشود في قلب هذا القطر.

فبينما كان الشاعر محمد حسن ينشر في الدفاع قصائده الوطنية في أعوام ١٩٣٢م و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ مهيباً فيه وطنه وحماه فلسطين العربية شطر أفق من الحرية ثمنها التضحية وبذل الأنفس. وبينما كان يعارك في جو الحاضر القاتم اشباح الرحيل التي كانت تتراءى له عندما يلقي بنظره إلى وضع فلسطين العربية، كان إبراهيم طوقان في الوقت ذاته يهيب هو بدوره أيضاً لمواطنيه إلى تدفع من الإباء وتمزيق القيود الأجنبية التي تكبل وطنه وحماه فلسطين العربية، فالأول يقول مثلاً في قصيدته (شبح الرحيل):

إن لم تثريا شعب ثورة ذائد　　فلأنت حقاً جلمد بجبال

ويفتح الشاعر هذه القصيدة بهذه الأبيات:

شبح الرحيل خسئت من تمثال　　يزجى إلى قلبي رؤى الأهوال

شبح الرحيل أما تكف عن الأذى　　شبح الرحيل أما تني تغشى لي

ما الذنب ذنبك يا خيال وإنما هو ذنب شعب موغل في القال

كم ذا أدار من الكلام سلافة وارتد منصاعاً لدى الأفعال

إن لم تثر يا شعب ثورة ذائد فلأنت حقاً جلمد بجبال؛

إلى ما هنالك من أبيات هذه القصيدة التي كانت هي من منتجات الشاعر محمد حسن علاء الدين في ذلك العهد، تثير أجواء جديدة في خلد أبناء عروبته كبارا وناشئين، فتراهم يتناولونها ويشيرون إليها محسين بوعى ودون وعى أن في الإنتاج الشعري شيئاً قيماً يضرب على وتر فيه شفاء لقضيتهم التي كان يتنازعها المرض إذ ذاك.

وهنا يخلق بنا أن نشير إشارة واضحة إلى قصيدة مجد الخلود في ديوان (أثير)، فهنا اتجاه آخر في هز الوعي القومي على تراث فلسطين العربية، وهو يهدف فيها إلى ما هو أبعد من ثورة على الوضع السياسي كمظهر من مظاهر الحكم ويتغلغل إلى أصل الداء في تضعضع كيان الحمى إذ يقول.

أين الزعيم لأمة عربية أين الحكيم له يروح مساعدا

راحت أويقات الزعامة والحجى وغدا القطيع عن الكلام متباعدا

يا ويح شعبي من طويل سباته أيان يا شعبي تهبُّ مجاهدا

وما الجهاد الذي كان يقصده الشاعر محمد حسن في هذه القصيدة سوى جهاد ثورة دموية جامحة، تقضى على التدخل الأجنبي، لكنها أعني هذه، ليست هي الناحية التي أردت أن أدلل عليها في السطور الأخيرة. ففي البيتين الأولين من هذه الأبيات المتمثل بها ثورة على وضع الزعامة في الوطن العربي الكبير المنشود، والذي تكون فلسطين جزءاً منه لا يتجزء؛ فهو يفتقد الزعامة العربية الكبرى التي هي العلاج الوحيد لإنقاذ قضية فلسطين العربية ثم في هذه القصيدة تصريح بين الحاجة التي يحسمها الشاعر في وطنه العربي الكبير وفي فلسطين على وجه الخصوص إلى الزعامة الحقة الشاملة فيقول:

كم ذا أودلكم زعيماً مرشدا كم ذا أود لكم حكيماً ناقدا

ما هم كل منهما إلاّ العلا لجموع شعب قد تمطى راقدا

أقدم بربك يا زعيم مخلصاً وانثر على الشعب المصيخ شواردا

أقدم إليه وفي فؤادك وجفة من حبه تغدوا لهيباً واقدا

ولدى حجاك مناهج رقراقة تشتف فيها النجح يدلف وافدا

أقدم إليه ففي قدومك راحة للشعب إن كنت الصفي الزاهدا

فأنظر هنا إلى التشوف المتحفز الوعى الى زعامة جديدة حقاً، تفرض احترامها على أبناء الوطن وعلى البعداء عن هذا الوطن. وانظر إلى تهكّم كمين بين بالزعامة الزائفة في البيت الأخير اذ يقول:

أقدم إليه ففى قدومك راحة

للشعب إن كنت الصفى الزاهدا

هذان مثلان وإلاّ فالأمثلة في شعر محمد حسن تتشعب وتتعدد إذ ننبسط في هذه الناحية فهو إذ يلقي إثر اضطرابات فلسطين العربية قصيدة في احتفال جمعية الطلبة العرب بالجامعة الأميركية في القاهرة يستهلها بهذا البيت:

شجتني فلسطين شجاً هاج مابيا من الشوق والتحنان شطر بلاديا

إذ به يضع نشيداً قومياً لمؤتمر طلبة العرب في فلسطين يستهله بهذا البيت:

أنفس قد شاقها أسمى مرام يزدهيه المجد في أزهى قوام

وهذه أبيات من القصيدة ولا ريب في أنها ستصدر كاملة مع أخواتها من وطنيات الشاعر في ديوان (نور من الشرق). ويمر عام بعد اضطرابات فلسطين في عام ١٩٣٣م، ويأتي موعد ذكرى شهداء فلسطين العربية في تلك الاضطرابات التي اشترك فيها الشاعر بيده، فرأى الشهداء يتساقطون إلى جانبه في ساحة الشهداء بيافا، تتساقط أوراق الخريف، لكنها هذه الأوراق لم تكن صفراء، وفي الذكرى ذكرى أولئك الشهداء، يقف الشاعر في منتدى جمعية العروة الوثقى قائلاً في مناجاة الشهداء.

ذكراكم نار تلظى في الحشا وهي المدامع تغمر الوجنات

ذكراكم نور يفيض على الدنى وهي المشاعل تمحق الظلمات

إلى أن يقول: ذكراكم يا اخوتى نبع الأسى متفجراً من أعمق الحسرات

إنى ادعيت إخوة وأنا هنا حيران بين سفاسف الغايات

يا ليتنى آثرت مثكلما ... النوى ورضيت عيشاً مثلكم بممات

ونزحت عن هذى البطاح مخلفاً ذكرى تفيض بأعبق النحفات

وفيها يقول:

وممول أثرى بما قد باعه من أرض موطنه بنزر هبات

المال تيّمه وتيمّ لبه، صوت النقود لديه كالنغمات

تبا له من مجرم أنفاسه مسروقة من أنفس رحبات

لكنه مع كل هذا مفلت من ربقة القانون والشبكات

أيعد هذا سيداً متفضلاً ويساق سارق حفنة الليرات؟

وفي نهاية القصيدة يقول الشاعر هذا البيت:

متم فألحدناكم في ذا الثرى هل إن قضينا نوهب الحفرات؟!

فأنظر إلى هذا البيت الأخير كم من معنى فيه من معانى الخشية على مستقبل الوطن وتسربه إلى أيدى الدخلاء، فهو يخشى أن يأتى يوم لا يجد فيه العربي في فلسطين أشباراً يثوى فيه تحت أطباق الأرض كمدفن له، إذن فالشاعر كان في هذه الفترة التي سبقت الثورة العربية الفلسطينية الكبرى دائم التخوف من مستقبل قاتم السواد إن لم تتحفز الهمم إلى العمل الوطني الملئ بالتضحية، دائم الإيقاظ لنفس العربي الفلسطيني. هذه أمثال على إنتاج شاعرنا محمد حسن قبل عهد الثورة فهو إنتاج موجه للوطن شطر ذروة الثورة المنشودة، وإذ تأتي تلك الثورة الحمراء ينقلب الأسى فخراً، والشؤوم تفاؤلاً، ويتحول الحفز النقاد إلى مباركة لأعمال الوطن وحث على المثابرة والمضي. ومثال على انتاج الشاعر في هذه الفترة قصيدته (وقفة على ضفاف الأردن)، وهي من وحي عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين ويفتتحها الشاعر بهذه الأبيات:

وقفت على الأردن وقفة من سرى إلى خلّه من بعد نأي تجبرا

جرى دمعه عند اللقاء وطالما جرى الدمع فياضاً لدى القرب أنهرا

دموع النوى كم ذا يخبئها الأسى ليوم يعود الشمل فيه مؤصرا

وإن يدمع القرب معنى يخاله أخو اللب لحنا أو شعاعاً مبعثرا

وقفت وما في النهر همس لنابس سوى خرة يعلو بها متكسرا

يوقعها والليل مرخ سدوله كان به شجوا كشجوى مؤثرا

وإن خرير النهر شجو موقع وفن به لحن السماء تحدرا

حظيت بمن يا نهر، يصفى وداده ومن لا يني يهدي خليلاً محيرّا

وهناك وقفة أخرى من وقفات الشاعر على ضفاف الأردن سيراها قراء العربية في ديوان (نور من الشرق) وهي من وحي ذاك العام، والقصيدتان نشرتا في العام نفسه والثورة قائمة والاضراب شامل

في جريدة اللواء، وفي باب الشعر القومى بتلك الجريدة، ويشيد الشاعر أيضاً بعد هاتين الوقفتين بثورة بلاده وحماه فيقول في قصيدة فجر الحرية:

أرسل شعاعك واغمر الأرواحا وانفح سرائرها هدى وسراحا

ثم ينتقل إلى جو من الحرية الكبرى، حرية النفس كأنه يريد أن يسير بشعبه إلى آفاق جديدة من حرية ترتكز على أساس إنساني، أي إنه يريد أن يتكنّه حماه فلسطين معنى الحرية على وجهه الحق، مبتدئاً بهذا البيت:

تلك السرائر كم ضوت مسجونة القيد يطمس وقدها اللماحا

ثم يثقول:

تلك السرائر وهي أثمن ما حوى هذا الوجود أبت سواك مراحا

إلى أن يقول:

تلك السرائر أتت من معجز لو أن فجراً للتحرر لاحا

فجر التحرر طال ليل دامس أو ما تطل مبددا أتراحا

وفي النهاية ينتقل الشاعر من الحرية الإنسانية الشاملة، القائمة عليها حرية حماه القومية إلى حرية التخلص والتفكك من التدخل الأجنبي، والإشادة بعمل مواطنى فلسطين القومى لإنقاذ بلادهم فيقول:

وإذا طلعت فربما وافيتنا فوق الجبال نؤججن كفاحا

أو في السهول نضيئها بقلوبنا ونحيل موحش ربعها وضاحا

ما القصر قصر إن تلفع بالخنى إن الفلا إذ ذاك أكرم ساحا

وإذا كنا قد قدّمنا، سابقاً، دراسة حول شعر إبراهيم طوقان، فإننا نقدّم هنا بعض ما قدّمه إبراهيم عبد الستار في التعريف بالشاعر وشعره فيقول:

«ونحن نقف عند تذكار شاعر آخر قدّم من قبسه هو الآخر نوراً في نهضة هذا الثرى الأدبية، ذاك هو المرحوم الشاعر إبراهيم طوقان، وبينما كان محمد حسن علاء الدين وراء أرغنه يتذمر من الوضع الاجتماعي مرة، ويشيد أخرى، نرى الشاعر إبراهيم طوقان يتذمّر هو بدوره أيضاً من المرّات ويشيد أخرى، وإن كان أسلوبه الاجتماعي في التذمّر والإشادة يختلف عن الشاعر الأول ذاك أن إبراهيم لا يتلفت كثيراً، فهو عندما يسيء الظن لا مجال لمحو فكرته بصدد تيك الإساءة إلاّ

بكد الأنفس وهو كذلك في إحسان الظن. أما الشاعر الأول فهو يتلفت كثيراً تلفتات رزينة يمحو بها كثيراً مما التقط في ذهنه سابقاً، وثبت من الجديد ما يستحق الإثبات. ومن صيحات إبراهيم المليئة بالحق صيحته الشعرية ناعياً على نوع من الزعامة فيقول:

وطن يباع ويشترى وتصيح فليحيا الوطن

هذه وقفة لا بد منها عند شاعر الساعات الثلاث التي رثى فيها أبطالاً ثلاثة من ثوار هذا الوطن، عندما كان هذا الوطن يحلم بالثورة ولا يحققه، ومن هؤلاء الأبطال الثلاثة فؤاد حجازي الشاب الذي كرس حياته وقدمها قربانا لحياة الوطن الخالدة.

وفي الثلاثاء الحمراء أسى مرير وشجى أليم تبرز في كل شطرة وقافية منها عواطف الشاعر الكئيبة المصطبغة بأحزان البشرية، حيث يستهل موشحه بهذا اللون الزيتى الخالد مستعرضاً أروع استعراض مآسى الإنسانية في دمائها ودموعها بقوله:

لما تعرّض نجمك المنحوس وترنحت بعرى الحبال رؤوس

ناح الآذان وأعول الناقوس فالليل أكدر والنهار عبوس

طفقت تثور عواصف وعواطف والموت حينا طائف أو خاطف

والمعول الأبدي يمعن في الثرى ليردهم في قلبها المتحجر

ويمضي في تحليله واستشهاده بأبيات هذه القصيدة إلى أن يقول:

هذه هي الثلاثاء الحمراء، فما إن يمرّ عام أو بعض عام على نوى أولئك الأبطال العرب الأقحاح من أبناء ثرى فلسطين، نواهم عن حماهم الذي فدوه بأعمال هي ذروة في التضحية والذود عن القومية والعروبة – ما إن يمر على ذكراهم أمد من الزمن حتى تنفجع الأمة من صمت رهيب. فقد سقط أولئك الأبطال في حومة الشرف إلى جانب من سقط، وجاء شاعرنا إبراهيم طوقان ليخلّدهم في هذه الدمعة التي ذرفها عند أطلال العام الجديد على ربع فقد حفنة كريمة من أبطاله العاملين.

وقصيدة المرحوم إبراهيم طوقان في التفاؤل والتشاؤم لون جديد زاخر بالتهكم والسخرية، مليء بالمرارة والألم، جامع بالأحاسيس والعواطف، يرسمها هذا الفنان وهي تتدافع من نفسه وقلبه وروحه، منصبّة على أدعياء الوطنية والرجال الخاملين والحيارى المضللين ممن ختم الله على قلوبهم وأبصارهم وماتوا وهم أحياء يرزقون – تنصبّ عليهم انصباب الشلالات المنهمرة حين يقول:

أفنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن

وقعدت مكتوف اليدين تقول: حاربنى الزمن

ما لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن؟

***

ويمضى الشاعر في سخرية لاذعة، يتطرق فيها إلى الجدل والنقاش:

كم قلت (أمراض البلاد) وأنت من أمراضها

والشؤوم علتها فهل فتشت عن أعراضها

يا من حملت الفأس تهدمها على أنقاضها

اقعد فما أنت الذي يسعى إلى إنهاضها

وانظر بعينيك الذئاب يلغن في أحواضها

وينقلب في هذه القصيدة التشاؤم تفاؤلاً حين يلتفت إلى عنفوان الشباب وتضحياتهم، إلى آخر هذه الأبيات التي شاعت في الأوساط الأدبية، وأصبحت مضرب الأمثال. هذا ولم يأل إبراهيم في التغني بحماه والإشادة بأبناء ذاك الحمى وشمائلهم بأناشيده الوطنية، التي كان يضعها في مناسبة. وبدون مناسبة وقطعة موطني تنبض بالحياة والشعور الفيّاض حيث يستهلها بالأبيات الأربع الأولى:

الجلال والجمال والعلاء والبهاء – في رباك

والحياة والنجاة والهناء والرجاء – في هواك

هل أراك – سالما منهما وغانما مكرّما

هل أراك – في علاك تبلغ السماك

هذا وان لصاحب حديقة العشاق، مواقف وطنية مشرقة قمين بنشء العروبة أن يأخذ عنها المثل السامية في التضحية والذود عن الوطن وأن يقدس مبدأ الشاعر في قوله.

إن قلبي لبلادى لا لحزب أو زعيم

غايتي خدمة قومي بشقائي أو نعيمي

فالوطن في عرف هذا الفنان نغمة تكفي لأن يقع رشاش شلاله القيثاري على أذنه، ليتدفق من نفسه من خافتة من ضميره من أعمق الأعماق في أقداس خيالاته، تراتيل من التشوّق والتشوف والألم المبرح والتفكير الساهم.

والوطن كلمة لها في أذنه أبعاد وأبعاد في أجواء وأجواء، موسيقى الحمى البائس القوي رغم بؤسه، الحمى المتحفّز، لحمى الحافل بطبيعة هي من سحر الطبيعة، وبسحر هو من طبيعة السحر.

كم ناجى أبناء الحمى للذود عن حياض الوطن بنبذ الزعامة والاقتتال عليها، وكم طالبهم بجمع الشمل والالتئام، وكم تشكك وتردد في إيجاد العلاج الناجع لداء الحزبية المقيتة فيقول:

وطني أخاف عليك قوماً أصبحوا يتساءلون من الزعيم الأليق

لا تفتحوا باب الشقاء فإنه باب على سود الحوادث مغلق

والله لا يرجى الخلاص وأمركم فوضى، وشمل العاملين ممزق

و(الشهيد) قطعة شعرية ذات لون خاص تجيش في نفس الشاعر الثائر، كما تجيش في كل نفس ثائرة عاصفة بالموت عصفها بالحياة؛ كل بيت بل كل شطرة منها تزخر بالأدب القوي النابض حيث تتفق الأبيات في نبرة صادقة ومتانة سامقة. والقصيدة من الرثاء الخالص إلا أنها أبعد ما تكون عن الندب والنحيب، ففي هذين البيتين تبدو طريقة إبراهيم واضحة جليّة:

لا تقل أين جسمه واسمه في فم الزمن

إنه كوكب الهدى لاح في غيهب المحن

وكان المرحوم كثير التأمل دائم التفكير في مصير هذا الوطن من عبث العابثين، فيرسم لنا ما يساوره وما سيحدق بقومه وحماه من مآس وشرور نتيجة بيع الأراضي وتسرّبها إلى أيدي الدخلاء، ويشير إلى البائع مخاطباً إياه أن احذر عواقبك الوخيمة وعدم احتفالك بالنتائج وجنايتك على الأحفاد واغترارك بالأصفر الرنان، مسدياً له النصح كيما يترك لقبره مكاناً يثوي إليه إذا ما مات... أجل إلى هذا المنحى يتجه الشاعر عند مخاطبته بائع الأرض فهو يقول:

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تعلمت أن الخصم خداع

لقد جنيت على الأحفاد والهفي وهم عبيد وخدّام وأتباع

وغرّك الذهب اللمّاع تحرزه إن السراب كما تذريه لماع

فكر بموتك في أرض نشأت بها واترك لقبرك أرضاً طولها باع

حملته على زعماء البلاد العابثين وهزءه اللاذع السالق. ففي كل قطعة صورة حية نابضة بروح شاعرنا التهكمية، أليس هو القائل:

أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحالمون عبء القضية

أنتم العاملون من غير قول — بارك الله في الزنود القوية
(وبيان) منكم يعادل جيشا — بمعدّات زحفه الحربية
و (اجتماع) منكم يرد علينا — عابر المجد من فتوح أبيّه
ما جحدنا أفضالكم غير إنا — لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد — فاستريحوا كي لا تطير البقيه

وهل هناك من يجهل بعد وقفات الشاعر النقادة... ألم يعترف بعبقريته الشعرية أدباء الأقطار الشقيقة.. ألم تشهد له مواقفه اللامعة هذا الحماس وذاك الإخلاص؟. أجل إن فلسطين العربية لم تألف شاعراً كابراهيم في تهكمه وسخريته، فهو بحق شاعر السخرية الأول وشاعر التهكم الجريء وإن لغط اللاغطون من حسّاده وأعدائه. ولنعد إلى جو آخر من أجواء هذا الشاعر قبل أن ننتقل إلى غيره، فقد سطت على حياته جزر من سعادة الحياة ومد من مآسي القدر... وعانت هذه النفس اليعربية الأبية ألوان الكآبة والألم، فصمدت وصاولت أمام إغراء الطاغوت، وإذا بأولئك الذين يفني ذرات مشاعره بإيقاظهم من مهاوى الطاغوت، وإنقاذهم من حبائل الأفتيات الغاشم إذا بهم يتحاربون ويتقاتلون فينهد إلى تنبيههم بالخطر المحدق خطر الصهيونية قائلاً.

ما لكم بعضكم يمزق بعضا — أفرغتم من العدو اللدود
اذهبوا في البلاد طولا وعرضا — وانظروا ما لخصمكم من جهود
كل هذا استفاده بين فوضى — وشقاق، وذلّة، وهجود

وحول الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» يقول إبراهيم عبد الستار ما يلي:

«هو عبد الكريم الكرمي الشاعر الذي طبقت شهرته أفاويق الأقطار العربية الشقيقة منذ أمد ليس بالقريب. ولم يبلغ الشاعر من الشهرة والمكانة إلى ما بلغ عن طريق عبقريته الشعرية، أو مكانته الأدبية بقدر ما بلغه عن طريق تعلقه برسالته الاشتراكية الخالصة وثورته على أرباب المال والجاه والسلطان.

ومهما يكن من أمر هذا الشاعر فإننا لا نرى له من شعر الثورة سوى قصيدته الدالية التي تعتبر بحق من أروع القصائد الثورية. وإن كنا لا نذهب معه في النيل من كرامة ملوك العرب والتنقص من شأنهم بالذم والسباب. ومهما يكن ففي الأبيات التي سنوردها دليل ساطع على حيوية هذه النفس الجياشة بالشعور الوطنى الفياض».

وقد وضعها الشاعر لدى مصرع الشيخ الوقور «فرحان السعدي» عندما قضت السياسة الاستعمارية البريطانية بإعدامه رغم تجاوزه سن السبعين من العمر.

ولا يسعنا هنا إلاّ الاعتراف بشاعرية أبي سلمى وأن نقف إكباراً وإجلالاً لهذا الاستهلال المليء بالحق الصارخ:

انشر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد

شكوى يرددها الزما ن غداً إلى الأبد الأبيد

ويمضى في رسالته الخطابية في ذم الاستعمار وأذنابه، ومن لفهم من سماسرة الغرب، كما يذم ملوك العرب الواحد بعد الآخر لمواقفهم الجامدة كل هذا في وصف شائق رائع من الناحية الفنية. وقمين بنا أن نلمح في معرض الإبانة والبحث عن تنكبه سبيل الهجاء اللاسع والسخرية اللاذعة، عندما يعوّج أبو سلمى على العراق في هذه القصيدة المشهورة. فلسنا ندرى لماذا يتعلق شعراء هذا الثرى وأدباؤه بالعراق وأبناء العراق إلى هذا الحد، ولكن الذي ندريه هو أن الدافع الأساسي إلى هذا التعلق والإشادة بمفاخره، حماسة أبناء الرافدين في تأزيز قضية فلسطين وتأييدها، هذا التأييد الذى يقف شعراؤنا وأدباؤنا حياله عاجزين عن تقديم فروض الامتنان والشكر الجزيل.

هذا بالرغم من أن الوشائج الأدبية والروابط الاجتماعية تكاد تكون معدومة أو هي في حكم المعدومة، كما أن التبادل الفكري قليل باهت ينمو حينا ويتقلص أحياناً ولست أدري إلى أي مدى تتأصّر العلاقات الأدبية والاجتماعية والسياسية إذا تحققت رغبة العاملين لتمتين التبادل الثقافي بين البلدين او تكتيلهما. ولكن الذي أجزم فيه وأقطع به، هو أن أبناء فلسطين العربية يقدّسون جهاد الفراتين ويمجّدون تراثه الخالد سواء أكان ذلك في ماضيه الغابر أم حاضره المتوفز – أقول جازماً إن حبهم وتعلقهم بالعراق، أبنائه وبناته، يفوق حبهم أي قطر آخر، ذلك أن العراق يبذل من التضحية المادية والمعنوية في سبيل نصرة فلسطين أكثر من أي قطر عربي.

ولست هنا بصدد التعليق – بحسب إبراهيم عبد الستار - عن هذا الموضوع في هذا الآن، وليس هذا مكان لسبر غور الموضوعات الشبيهة بهذه، والتي تمسّ أوضاعنا السياسية مسّاً مباشراً، كما لا أرغب في إثارته على هذا الوجه ولكنى ملزم بالتلميح عنه على الأقل للتدليل عن نفسيات شعرائنا الكبار.

وفي مستهل تهجمه العنيف يوجه خطابه الشديد اللهجة الى ملوك العرب كما أبنت في السطور القريبة، ملفتا انتباههم إلى ما يدور بين ربوع هذا الثرى وجنباته في أبياته الرنانة وكلماته النارية فيقول:

إيه ملوك العرب لا كنتم ملوكاً في الوجود

وفيها يقول:

قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد

قوموا انظروا (فرحان) فوق جبينه أثر السجود

يمشي إلى حبل الشها دة صائماً مشي الأسود

سبعون عاماً في سبيل الله والحق التليد

خجل الشباب من المشيب بل السنون من العقود

قوموا انظروا الأهلين بين الوعد ضاعوا والوعيد

فانظر إلى هذا التحريض البليغ وهذا الوصف الذى يفتت الأكباد ويبلغ القمة فيه عندما يلتفت إلى الشهداء والمساجين والأرامل والأيتام ويلفت الأنظار إليهم:

ما بين ملقى في السجون وبين منفي شريد

أو بين أرملة تولول أو يتيم أو فقيد

أو بين مجهول يرى عصف المنون من النشيد

قوموا انظروا الوطن الذ بيح من الوريد إلى الوريد

تتزاحم الأجيال دامية الخطى حول اللحود

ويسير في هذا النفس المتصاعد الجبار سيراً يدفع بالنفوس العربية الثائرة إلى قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية. وإننا لنلمس في هذه المعلقة روحاً تحررية مخلصة، ونفساً تقدمية صادقة، تثور على الملكية وسلطانها وما أتى به هذا السلطان من قيود وأغلال يكبل الشعوب العربية الناهضة. وهو إذ يرسم لنا هذه اللوحات الفنية بتشخيصه للحوادث الدامية، واستعراضه استعراضاً حافلاً لما كان يجري ويدور في أجمل وصف، وأصدق عاطفة وأسلس عبارة، نراه يناشد الشعوب العربية ويحرّضها على العمل، فهم معقد الرجاء ومبعث الأمل، وهم الذين يتحملون على عاتقهم تبعة تحقيق الأهداف، كما يتحملون وزر تقاعسهم وتخاذلهم إذا تهاونوا في بذل ما يتطلبه الوطن:

إيه شعوب العرب انتم مبعث الأمل الجديد

وأثر تبيانه هذا التبيان يتجه الشاعر في دفاعه من حدود بلاده إلى الرحاب العربية المنكوبة، ويتعرض لآلام الوطن العربي الكبير:

فلذ تقطّعها سيا ستهم من القلب العميد

إسكندرونة نبتة حمراء من زرع حصيد

سيروا على الترب المخـ ضب والثموا أثر الجدود

حرية الإنسان بالد م تشترى لا بالوعود

أجل حرية الإنسان بالدم تشترى لا بالوعود، نراه هنا يرسم لنا سبيل الوصول إلى الحرية المرموقة، حرية فلسطين العربية يرسمها لنا في شجاعة وجرأة نادرتين، ويسترسل دون مبالاة واحتفال بالحياة موجها خطابه إلى أبناء هذا الثرى:

إيه فلسطين اقحمى لجج اللهيب ولا تحيدى

لا تصهر الأغلال غير جهنم الهول الشديد

حلفت دماء الثائرين على العلوج بأن تسودى

والثورة الحمراء تطعمها الجسوم مع الكبود

هذه هي ملحمة الملاحم أو خاتمة الملاحم، كما أسر إلي الأستاذ أبو سلمى، وصرّح بأنه سيضعها في آخر كتابه الشعرى عن الثورة العربية الفلسطينية، التى أشعلت فكره وروحه وقلبه حينا من الدهر. وسيكون هذا الكتاب الشعرى بمثابة تأريخ جهاد فلسطين العربية منذ اليوم الذى استشهد فيه الشيخ عز الدين القسام إلى نهاية الثورة، وهو لعمرى عمل أدبي خليق بالدرس والتمحيص. وأسر إلي أيضاً أن لها مقدمة من الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى والقائد العربي فوزي القاوقجي.

وشاعر الهوى والأحلام إنساني اشتراكي المبدأ وكيف لا يكون الشاعر إنساناً بأوسع ما في الكلمة من معنى، يتمرد على الظروف السياسية القاهرة أشد التمرد، ويسخط عليها أشد السخط، إلا أنه يمتاز عن الشعراء الاشتراكيين بنزعته التحريرية ومذهبة التقدمي ونقمته على الأثرياء الجامدين والمحافظين الرجعيين، فهو إذن شاعر الشعب الكادح يصور آلامهم وآمالهم وينادي بتحطيم الفوارق الاجتماعية والنظم البالية. وأبو سلمى قبل هذا وبعده، يهدف إلى الشعب في مخاطبته اياهم، فالشعب في عرفه هو المرجع الأول والاخير:

يا أيها الشعب النبيل أمنت من شر العثار

أنت الذى تهدى السبيل من اليمين إلى اليسار

قرر مصيرك أنت لا مـ ن يبصمون على القرار

وبعد حديثه عن بعض القصائد والمواقف، يختم قوله عن أبي سلمى بقوله:

«ونحن لم نعثر على قطعة من وحى الثورة على كثرة ما نشر، وإن كنّا نجزم بأنه شاعر ثائر سواء أكانت ثورته على السياسة الاستعمارية أم الأوضاع الاجتماعية أو قيود العادات البائدة والتقاليد السخيفة».

وحول الشاعر برهان الدين العبوشي، يقول إبراهيم عبد الستار في كتابه، من شعراء الثورة الفلسطينية القومية ومن خطبائها البارزين، في شعره شعلة من اللهب المصطخب، وقبس من العراك النفسى والجسدي، كما أن في شطراته وألفاظه هدير المدافع وزئير الأسود وزلازل الأرض ورواعد السماء، وفي أبياته تلمس العز والذل والشجاعة والجبن والكرامة والهوان إلى جانب الدم والدينار والوطن والدين إلى غير هذا وذاك، من ألفاظ شاعر مجاهد لا يعرف السياسة والديبلوماسية أو يعترف بهما ولا يؤمن بالمعاهدات والمفاوضات، فهو رجل الحرب وجندى الوطن ولا غرو في ذلك فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن لا حلّ لقضية البلاد إلاّ عن طريق الثورة والثورة لا غير.

وبرهان الدين العبوشي في ثورته الصاخبة يتعلق بين الكآبة والأمل واليأس والرجاء والضعة والزهو، فليس هو بالشاعر المؤمن بقدرة الشعب واضطلاعه بما يسند إليه من مهام، ولا هو بالشاعر الكافر بالحياة، المتشائم من رهطه وعشيرته... فمثيراً ما يقع بين الحيرة والارتباك ويتخبط تخبط عشواء، فمن زهوة بالماضي وفخره بالمآثر إلى القلق واليأس والحيرة فالإيمان. وكما يتغيّر وينقلب بين الفينة والأخرى كذلك يتحول ويتبدّل بين بيت وآخر. ودليلنا على قلقه هذا أبياته التالية في قصيدته النونية التى يستلهم فيها المجد الأثيل والعز الغابر مخاطباً بها صلاح الدين الأيوبي:

غدا سترفع رايات الفداء على هام الجبال فيا مرحى لحطين

قم يا صلاح فقد حمّ القضاء بنا قم يا صلاح فلن نبقى على الهون

قم يا صلاح فذا مسرى النبي غدا ملجأً الذئاب ومعدى كل مأفون

ويمضى في تقديم النصح مذكراً النشء العربي بواجبات وفروض، واجبات الصمود إزاء أمواج الظلم وعواصف الطغيان، وفروض التكتل وتوحيد الشمل وتأصيرها، مشيراً إلى أن مكان الشعب في ذرى الجوزاء فاقتحموا بطون الفضاء، كما يشير إلى إخوان لهم في الجهاد على أتم الاستعداد لمؤازرة أبناء هذا الرحاب في نضالهم الخالد.

لكم ببغداد إخوان تظاهركم همو أسود الوغى شم العرانين

فشاعرنا يجمع أحاسيس الرجل المحارب في ألفاظه ومعانيه وشطرات قصائده في مخاوف ذاك الرجل وشجاعته، إحجامه وإقدامه. وهو وإن استعمل الضرورات الشعرية والمجوزات شأن الشعراء الذين لا تواتيهم الكلمات والقوافي، فله مواقف متأججة في هذا الحقل، وليس له قصيدة واحدة في حقول الفنون الشعرية الأخرى.

وفي (الوطن المبيع) التي ألقاها في الاحتفال الوطنى بناء على طلب لجنة صندوق الأمة العربية بحيفا، في هذه القطعة ينهج الشاعر إلى تقديس الثرى وتمجيده، ويعجب فيها أشد العجب ممن يبيعون ديارهم المجبول بالدم القاني، ويفدى وطنه بدمه وبما ملكت يده، ويحث الشعب على بذل المال والمهج إلى أن يقول.

قد شردوا العربي عن أوطانه　　قد جردوا العربي من أثوانه

لا تعذلوا الشعب الفتي فإنه　　آوى الشريد فراعه بحرابه

لا تعذلوا الشعب الفتي فإنهم　　دسوا له سماً بحلو شرابه

ومن قصيدة مهداة إلى القائد العربي الكبير فوزى القاوقجي إثر ثورة فلسطين القومية، يقول في جرأة وصراحة منددا بملوك العرب وأصحاب السمو، لترددهم في تأزير قضية فلسطين، هذا القطر الذى يحتل مكان القلب من الجسد من حيث موقعه الجغرافي من الأقطار العربية من حيث حضارته الضميرية (الدينية) وقيمتها إلى العالم أجمع:

قسموا البلاد كأنما هي ملكهم　　وكأننا فيها متاع المشتري

منحوا صعاليك اليهود ثغورنا　　ورروموا إلينا بالصعيد المقفر

يا شعب غيرك لا يحل قضية　　لعبت بها الأهواء خمسة أدهر

باعوا حماك وأنت تنظر والدما　　تجري وعيشك كالظلام الأكدر

وهذا وقد كانت ولا تزال أحاسيس الشاعر الوطنية أبداً الملهمة، كما كان هذا الثرى بأرضه وسمائه، شيبه وشبابه، أبداً الموحي الأول والأخير لشاعر الثورة القومية.

وفي المهرجان الشعبي بذكرى الثورة العربية الكبرى، يشيد الشاعر بقدسية هذه البلاد والبلدان الشقيقة حاثاً أبناء جلدته على الدأب في العمل، مهدداً من يخون تراثه ويعمق حماه في هذا الأسلوب.

هذه أرضنا وهذى سمانا　　شاع فيها الندى كريا الورود

فاملأ الصدر من أريج بهاها وأرسل العين في فضاها المديد

تَرَ جيشاً من العراق ونجد زاحفاً كالجبال تحت الحديد

قوق خيل كأنها برق ليل عودتها الوغى اقتحام السدود

وحول الشاعر عبد الرحيم محمود، الذي كتب عن شعره قبل أن يستشهد في معركة الشجرة يقول:

«لا مناص هنا من الإشادة إلى أننا لم نقف على جميع ما انتجه هذا الشاعر في غضون الثورة العربية الكبرى، وفي غضون الثورات التي سبقت عهد الثورة عام ١٩٣٦ – وعدم وقوفنا على إنتاجه الثوري لا يمنعنا من الإشادة باسمه ولو في الأبيات القليلة المنشورة له في مناسبات متباينة. كما وأن قسماً من قريض الأستاذ برهان الدين العبوشي لم يكن من وحي تيك الثورة، وإن كان كل إنتاجه موجها شطر الثورة الفلسطينية بلغة الثورات المقبلة كما لمحنا ذلك في أكثر من قصيدة واحدة.

هذا وقد كانت ولا تزال أحاسيس الشاعر عبد الرحيم محمود الوطنية أبداً الملهمة، كما كان هذا الثرى بأرضه وسمائه، شيبه وشبابه، أبدا الموحي والأخير لشاعر الثورة القومية.

فالشاعران الثائران ساهما في بعث الهمم واستفزاز الشعور مساهمة كبيرة، وإن كانا يختلفان في المبدأ والنزعة، فالأول ناري في تفكيره وأدبه وفنه كما ألمعنا في السطور القريبة، وهو إلى جانب هذا لسان حال جمعية الشبان المسلمين والجمعية المشار إليها لا تقل في طائفيتها ورجعيتها عن جمعيات الإخوان المسلمين، والهيئات الطائفية المنبوذة. والثاني اشتراكي النزعة ذو مبدأ ومذهب في الحياة الإنسانية وهو إلى جانب هذا معلم الأدب العربي في كلية النجاح، وشاعر ثائر من شعراء هذا الوطن، وأديب مطبوع حفز الجيل العربي الجديد إلى تدفع الأذى الناشب في كيان حماه، كما حفز النفوس في إيقاظ الغفاة، وتنبيههم شطر خطر كبير يهدد كيانهم، إذا هم لم يبادروا إلى العمل فهو يناشد الشعب من عامل وفلاح وناشئ وكهل، كما يناشد حملة الأقلام ورجال الفكر والقلم إلى أن يشقوا طريقهم في الحياة بجرأة وصراحة في قوله:

خذوا ريشة الفن خطوا لنا سهول البلاد ووديانها

من الدم خطوا رؤوس الجبال وهام الروابي وكثبانها

من العرق العذب رووا السهول وروض البلاد وبستانها

هو الغد لوحتكم يا شباب فخطوا من العزم عنوانها

غد لوحة في إيادى الشباب فلا تسلموا الأمر عميانها

وفي (أنشودة التحرير) في يوم القادسية بحيفا، في هذا المهرجان الشعبي يفتتح شاعرنا قصيدته الرائية وهي من وحى الثورة، ثورة التحرير الكبرى.. وفيها يتطرق إلى معركة القادسية والغزوات العربية التي قام بها الأجداد لإحقاق الحق وإزهاق قوى الظلم والظلام، مبرئاً الفتح العربي من الاستعمار ووصمات الاضطهاد ومناشداً أبناء وطنه إلى تتبع خطى أولئك الأماجد، ففي مطلعها يتغنى بالمجد الأثيل مغرداً ميت الأماني بهذا القول:

إن أيامنا ابتسامة ثغر لم يدر مثلها بثغر الدهور

نشرت ميت الأماني وأحيت أملاً عارماً بقلب كسير

فرح الكوخ حين لاحت على الدهر وريعت ممردات القصور

ذاك أن الظلوم يكره فجر الحق كي لا يزول ليل الفجور

قوم طه بين الخلائق قوم قد أعدوا لكل أمر خطير

قوم حرية أعدهم الله ليتلوا رسالة التحرير

في عبيد يصب كسرى عليهم سوطه ظالماً وجام النكير

واستجار الحق المضيع بالعرب فكانوا الغياث للمستجير

ويمضى في هذا الكم وعلى هذا النحو من تبرئة الغزوات العربية من التهم، فالفتوحات كانت لتحرير الشعوب لا لاستبعادها وإذلالها، والشاعر يستشهد بالتاريخ الحافل بالمآثر كما يستشهد بروايات الأزمنة:

صرفت شدة الجوارح فيهم في الطريق السوي تقوى الصدور

فروى عنهمو الزمان حديثا ضمخته فعالهم بالعبير

لم تك القادسية الشهيرة غير السطر في سفر عن شهير

وينتقل إلى مخاطبة أبناء الحمى:

واجتماع القلوب أضمن للأمر المرجى من الشتيت النثير

عبرة ليتنا قد قبسنا النور منها في مدلهم الأمور

حين صرنا إلى الخلاف فقدنا سر بنا صلة لسوء المصير

وحول الشاعر مطلق عبد الخالق، يقدمه في كتابه كصحفي وشاعر وأديب فيقول:

«ولد مطلق عبد الخالق قبيل الحرب العالمية بأعوام أربعة واستشهد في حادثة القطار وهو يسعى إلى تحرير المساجين العرب في معتقلهم بصحبة الأستاذ وديع البستاني، كان رحمه الله مشعلاً من مشاعل هذا البلد، وشمعة احترقت لتضئ إلى أبناء العربية سبل الحق والخير والعراك، وهو كصحافي وشاعر وأديب عمل في غضون هذا العمر القصير ما لم يعمل مثله من أبناء هذا الوطن، الاّ العدد القليل وكان المرحوم يعالج الأدواء ويستحث الهمم ويبعث النفوس الراقدة إلى الحياة والعمل، وإن كان ميزانه الاجتماعي في الإشادة بالخالدين أو وصف الأوضاع أو رسم الخلجات أقل دقة من ميزان الشعراء المتقدم ذكرهم وفي فلسطين مسقط رأسه يقول الشاعر:

فلسطين الشهيدة لن تضيعا ظألم تصبغ مرابعها نجيعا
ألم يسقط بها قتلى وجرحى ألم تستقبل الخطب المروعا
دعت أبناءها للموت جمعاً فلبى الجمع دعوتها سريعا

ويسترسل في وصف الإضراب العام الشامل على هذا النحو المؤثر:

فلسطين الشهيدة ما عراها ولم تخطو إلى الجلى سريعا
وتأبى في نعيم الذل شبعا وترضى في جحيم العز جوعا
ولم تبني على هام الضحايا صروحاً باذخات أو قلوعا

ويمضي صاحب «تحية الشهداء» و «يوم الهوان...» في فتح القدس، يمضى كما ذكرنا في وصف الإضراب العام الشامل الذي استغرق ستة شهور على هذا النحو المؤثر:

هي الحرية الحمراء تسقي فتنبت بالدم – الشرف الرفيعا
وتورق في ظلال الموت مجداً أثيلاً باذخاً، حياً منيعا
فداك الروح يا وطنى المفدى ونحن فداك يا وطنى، جميعا
وكيف تضيع يا وطناً عشقنا ونحن بنيك نأبى أن تضيعا
يدافع عنك ثوار كرام وشعب دأبه ألاّ يطيعا
مشى في حلبة الأقدام شوطاً بعيداً يدفع الخطر الذريعا
وأمضى، لا يني، مئة وعشراً وخمساً ليس يأبه أن يجوعا
ولم يعر الزعامة.. أي هم ولم يحفل أصولاً أو فروعا

فإن لم يستطع دفعاً لأمر فأقصى همه أن يستطيعا

لقد أقدمت يا شعب المعالي ولم تحجم فأحسنت الصنيعا

وفي قصيدته (دمعة على الوطن) يمزج الدماء بالدموع في عواطفهم الحارة، ونفحاتهم المتضوعة في قصيدة (ضحايانا) دليل آخر على ما ينتاب شاعرنا من المآسي المفجعة والآلام المبرحة والأحاسيس المضطرمة والمشاعر الثائرة على القيود والأغلال، يرسلها مطلق تحية تقدير وتبريك:

شباب العرب بوركتم شبابا أباة الضيم في الجلى غضابا

وبوركتم من الآساد أقوى قلوبا في الوغى وأحدّ نابا

وبورك ترب سوريا ترابا حواكم يا ضحاياها الشبابا

فأنتم خالدون وإن لقيتم مناياكم ولاقيتم صعابا

إلى أن يعبر عن حبه الخالص وتعلقه الأصيل فينشد عن استعداده في تقديم الفداء لحياة الوطن الخالدة:

أنا أفديك يا وطنى بروح ثائر ... أشر

ويختتم هذه القطعة في تقديس الوطن وتمجيده، بهذا الشعور وهذا الإحساس:

متى ألقاك يا وطنى وهلاً ينتهي عمري

متى قد طال منتظري متى قد عيل مصطبري

أنا في هذه الدنيا غريب الدار والوطر

أجل فقد اختتم قصيدته بهذا الشعور وهذا الإحساس، في حيفا، عند قمم الكرمل الخضراء اللامعة، حيث كان يبلو في ظرف من ظروف حياته العملية، إنما كان قائماً على رئاسة تحرير مجلة «النفير» في حيفا – كان يبلو نوعاً من الشقاء لم يكن الأول من نوعه، فهو أبداً يحسّ بأنه غريب عن هذا العالم بكائناته الناطقة، وبأن ذاك العالم بتلك الكائنات غريب عنه.

ويقول إبراهيم عبد الستار في كتابه عن فدوى طوقان، ما يلي:

«أما الآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان شقيقة شاعر فلسطين الكبير المرحوم إبراهيم طوقان، فقد فرغت هذه الحياة إلا من إبراهيم والشعر كما تقول. ومعظم شعرها في الرثاء، وقد أكسبها هذا اللون الحزين مسحة شعرية رائعة تتفطر لها القلوب، وتتشرخ لها الكبود، وللأديبة الشاعره قصيدة ميمية تتفجر ألماً وحزناً نشرت في مجلة الرسالة الأدبية عام ١٩٣٨ بعنوان (أبي...) مهداة إلى

النبراس الذى يضيء أفق حياتها، إلى ذلك العزيز «الذي يتململ الآن على فراش المرض في ظلمات السجن، الى ابي» وفي هذه القصيدة تتطرق إلى حياة الوطن بعد مناجاتها لوالدها فتقول:

وطني، بي مما عراك شجون وبقلبي عما دهاك كلوم

الرزايا حلت بساحك والأيام جارت والبؤس فيك عميم

الأيامى، ويا لبؤس الأيامى خضب الأرض دمها المجوم

رفرفرت حولها فراخ مهازيل يراها الشقاء فهى رسوم

وتمضي في وصفها إلى أن تخاطب ضحايا الثورة من جبل النار وتختتم الإشادة بعملهم في الأبيات التالية:

يا ضحايا الجهاد في ذمة الله لظاها ولو وعاها لريع منها الجحيم

قد تركتم في مصحف المجد ذكرا هو باق على الزمان مقيم

سطرته لكم مواقع حمر صبغتها جراحكم والكلوم

ولها بعد هذا وقبله، مراثٍ رائعة منها في تأبين فقيدة الأدب العربي مي زيادة، وداود حافظ طوقان وغيرهما. ومن شعر الثورة قصيدة لها بعنوان «الله فيك وفي بنيك» وهى لا تتعدى عن مناجاة للوطن، إلاّ في الأبيات الأخيرة حيث تستحث الهمم وتستفز الشعور بعد أن تستعرض معالم الأندلس وتعوج على سيشل والصيد الكرام بها، وبعد أن تعبّر عن شكوى الأقطار العربية لكلوم فلسطين وتألمها لجرحها وألمها:

شكواك شكواه وجرحك جرحه تؤذيه إن طافت بك الآلام

بغداد مصر والحجاز كلاهما والمسجد الأقصى هم والشام

قد ألفت ما بينكم لغة وإن شطت ديار أو نأت أجسام

هتف البراق بشجوه لما رأى للبغي أركاناً عليك تقام

وبعد أن تقول:

المسجد الأقصى تضام حماته الصيد الأعزة حوله وتسام

والأفرخ الزغب التي خلّفتم فلق حشاها هدها الإيلام

بعد كل هذا تبعث الهمم وتحفز العزائم فتقول صارخة في وجه الظلم إلى الجهاد... والى النضال:

يا ابن البلاد إلى الجهاد ولا تهن أنت الرقيب على الحمى القوام

ان الشباب عزيمة وبطولة فانهض ولا يقعد بك الإحجام

فلكم عددنا من بروق وعودهم ولكم رجونا أن يجود غمام

وعن سيف الدين الكيلاني، يقول إبراهيم عبد الستار في كتابه:

«وللأستاذ الشاعر سيف الدين الكيلاني قصيدة عنونها «بالوحدة الكبرى»، والفكره كما تبدو لي من قطعته، هي شغل لأشواق الشاعر الوطنية وأفكاره الشاغلة. وهو يرى فيها تحقيقاً لإثبات وجود وطنه العربي الكبير تحت الشمس، فلقد مضى جيل ونهد جيل من الشباب العربي في ريعانه الماثل، والشاعر يطلب منه تأدية كبرى أمام القومية العربية، أمام المدنية العربية، بل أمام مدنيات العرب أو المدنيات الإنسانية المقبلة وفي (الوحدة الكبرى) يضع الشاعر أهدافاً ويشيد بسجايا ويتلمس نوراً من جديد من أنوار (العربية) المتماسكة المتضامنه - يضع تلك الأهداف وهو يناجي كوكباً من كواكب الليل المتألقة الساجية بنورها الدري، ومطلع هذه القطعة الشعرية بيت لا يستسيغه الفنان الأصيل فهو يقول:

دع حب ليلى اليوم أوطان إنى بوحدتها صب وهيمان

ذلك أن ليلى وتر لا يحفز الفنان إلى نسيانها، وما دام الوطن هو ينبوع الحب الأصيل لكل جمال، وليلى من الجمال، لا بل من قلب الجمال وجمال القلب، من أجواء الشعر المدوى من عالم الاستشفاف والفداء والموموق، مهما يكن فقد أراد الشاعر أن يسلو عن ليلى ويتعلق بالوطن.

وليس هذا من شعر الثورة، ولكنى وقفت عند أمنية كبرى تسامر فكر الشاعر فهو يرمي إلى بعث المجد التليد وبناء إمبراطورية إسلامية من الهند إلى إلعراق إلى مصر إلى الجزائر فمراكش، ومن السودان في الجنوب إلى فلسطين إلى سوريا إلى تركيا فدول البلقان الإسلامية، وهي لعمرى أمنية لا يتمنى تحقيقها الأدباء المفكرون والشعراء الثائرون. فقد انقضى عهد الإمبراطوريات والسلطنات كما أصبحت الدول الاستعمارية منقضية أو في حكم الانقضاء، ويبلغ الشاعر من الإيمان بهذه العقيدة حتى يقول محددا هذه الوحدة:

يا وحدة العرب أنت اليوم قبلتنا تهفو إليك «فلسطين» و «لبنان»

ملكت قلب شباب العرب قاطبة هذى الجزيرة تنشيها وعمان

وأرخصت شهداء المجد أمتنا فما ونت مصر فى الجلى وتطوان

تسابقوا عصبة يبنون وحدتهم وفي الطليعة سوريا وبغدان

المجد رائدهم والدين قائدهم تعتز بالضاد قحطان وعدنان

تآلفت منهم الأرواح واتحدت أهلة في سما العليا وصلبان

يظل العلم الخفاق وحدتهم كأن خفقته شدو وألحان

ويتوجه الشاعر إلى المغفور له الملك فيصل بن الحسين باعث الوحدة الكبرى مخاطباً إياه أن يطمئن إلى رجال العرب فقد وثب الشيب والشبان حتى:

لو كان في فلك الجوزاء مطلبها لطار منها لها في الجو عقبان

بناء وحدة قومي منتهى أربي عقيدة دونها الأرواح قربان

هذه وقفة لا بد منها للتدليل على شاعرنا الكيلاني، إذ إننا لم نقف له على قصيدة واحدة من وحي الثورة الفلسطينية الدامية... ولعل هذه القطعة تنوب عن وقفة أو وقفات له بهذا الصدد، ففيها رسالة تحفز الرجال والناشئين على العمل المثمر والتضافر والاتحاد.

وعن الشاعر عصام حماد يقول إبراهيم عبد الستار ما يلي:

«ولم يكن الأديب الشاب عصام حماد من شعراء الثورة، وإن تفجّرت شاعريته الخصبة في مناجاة والده الذى خر صريع الواجب في ميدان الجهاد عام ١٩٣٦ حيث قال:

إذا كان دمع العين أصبح عاصياً سأجعل قلبي في الجوانح باكيا

خلت منك داريا أبي قد عهدتها أضاءت بها أركانها والنواحيا

وأقفرت الدنيا من الجو دو الندى وأصبح ورد الفضل بعدك ذاويا

وفيها يقول:

حرام علينا الدم والحزن يا أبي إذا لم نُدق كأس الهلاك الأعاديا

حرام علينا الشعر إن نحن لم نعد نقدم للماضين إلاّ المراثيا

حرام علينا النوم إن نحن لم نسر لثأر ووعور الرّبا والفيافيا

حرام علينا العيش أن نحن لم نعد إلى العرب هاتيك القرون الخواليا

أجل، ان هذه القطعة ألهمتها أحاسيس الشاعر عقب فجيعته بأبيه، ولئن كان يافع العود أزغب الريش لا يستطيع أن يحلق إذ ذاك، فحسبه فخراً أن يكون وليد الثورة، لا بل رضيع الجهاد، حيث اصطلى هو وأبوه باوار ذاك العراك والشاعر لم يأل في إمداد الشعب العربي الفلسطيني باقات

أشعاره، وعصير أفكاره في هذا الآن. ولنا عودة إلى هذا الفنان الشاب عندما نتناول شعراء العربية في فلسطين على وجه أوسع.

ويختم إبراهيم عبد الستار كتابه «شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية» بالتأكيد على أن فلسطين أظلت شعراء ثائرين لعبوا أدواراً متباينة في تأجيج الثورة الوطنية، وساهموا مساهمة فعّالة في ترميم ما هدمته العصور المظلمة، وقوضته السياسة الاستعمارية من كيان الأمة العربية بوجه عام وفلسطين العربية بوجه خاص.

ولئن أبنت في لمحات خاطفة عن حياة فلسطيننا السياسية والاجتماعية والتاريخية في المقدمة، واستعرضت صوراً من الأدب القومي الخالص والشعر النابض بالحياة، فما أتيت بسجل أدبي شامل يضم بين دفتيه فيما يضم جميع مواقف هذا الرعيل، ولا جئت بتأريخ كامل لحيوات شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية... ولكنى أتيت بشيء جديد يصلح أن يكون أساساً لعمل أدبي كبير، ونواة لتاريخ الحركة الثقافية والأدبية في هذا الرحاب المتوثب.

وإنه لمن معززات الأمل أن تظلل فلسطين شعراء آخرين لم يساهموا في أثناء أعوام الحرب الأخيرة والعامين الماضيين فحسب، بل كان لهم نصيب في الثورة الفلسطينية الكبرى، كما كان لهم سهم وافر في تطوير الوعي القومي في مناسبات مختلفة لا ينكرها إنسان، إلاّ من تجرد من إنسانيته – وأخص بالذكر منهم: الأستاذ الأفغاني ومحمود الحوت وعبد المنعم الرفاعي قنصل شرق الأردن السابق في سوريا ولبنان وحسن البحيري وديا ب ربيع وسعيد العيسى ومحمد العدناني وإسكندر الخوري البيتجالي.

وسوف نتناول ترجمة حياة كل منهم مع عدد آخر لم أتطرق إلى ذكرهم في هذا الكتاب – إذا وافونا بقصائدهم – عندما نضع سجلاً حافلاً بأعمال شعراء العربية في فلسطين، ولن يكون هذا بعيداً.

المصادر

١. إبراهيم عبد الستار: شعراء فلسطين العربية في ثورتها القومية، حيفا ١٩٤٧م.
٢. نزيه أبو نضال وعبد الفتاح القلقيلي: الكاشف - معجم كتاب وأدباء فلسطين، المجلس الأعلى للتربية والثقافة (م.ت.ف)، رام الله ٢٠١١م.
٣. يعقوب العودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، دار التوزيع الأردنية، عمان ١٩٨٧م.
٤. د. عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث – من أول النكبة .... حتى النكبة، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله ٢٠٠١م.

إسماعيل شموط ..
التأريخ البصري السردي للنكبة الفلسطينية وما تلاها

يوسف الشايب

نظمت كل من مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومؤسسة عبد المحسن القطان، ندوة «أعمال وسيرة الفنان الراحل إسماعيل شموط»، لمناسبة صدور كتاب الفنانة تمام الأكحل «اليد ترى والقلب يرسم» عن الأولى، وهو عبارة عن سيرة تمام الأكحل وإسماعيل شموط، وذلك في المسرح البلدي بدار بلدية رام الله، مؤخراً، بمشاركة الروائي اللبناني إلياس خوري (عبر سكايب)، والفنان سمير سلامة، والفنان خالد حوراني، والقيّمة ريم فضة، وبمداخلات عدة من بينها مداخلة للفنان نبيل عناني، وأخرى للفنان سليمان منصور.

إلياس خوري: وعاء إسماعيل شموط و«عطش اللد»

في هذا اليوم الثالث عشر من تموز ٢٠١٧، يكون قد مضى على مسيرة العطش والموت التي دفع إليها سكان مدينة اللد، تسعة وستون عاماً وثلاثة أيام .. إنه زمن لا يقاس بالوقت، كأنه الأمس أو اليوم، فعطش النكبة له مذاق خاص ينحفر في الروح ولا ينمحي، ففي اللد التي خرج منها إسماعيل شموط ماشياً تحت شمس رصاصية لا ترحم، لا يزال العطش مرسوماً بحبر الصمت الذي سوّر حياة الناجين، الذين مضوا إلى مجهول التيه، تاركين وراءهم الجثث مكدسة في جامع دهمش، والبيوت المهجورة، والطرقات، وفي الوعر الذي ابتلع الضحايا.

لم أفهم لوحات شموط الصارخة في واقعيتها إلا عندما قادتني الحكاية إلى اللد، وفي اللد اكتشفت عطشي إلى الكلمات السجينة في الغيتو الذي سوّره الإسرائيليون الغزاة بالأسلاك الشائكة .. تحوّل الغيتو إلى تمرين على العطش والصمت .. عطش إلى الماء، وعطش إلى الحياة، أما الذين وصلوا إلى

نعلين فحملوا معهم ميراث العطش إلى أقصى المنافي، وهذا ما تحدث عنه رجائي بصيلة الذي روى في مذكراته التي تصدر قريباً باللغة الإنكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، حكاية الموت اللداوية التي تلخص حياة شعب وجد نفسه محكوما بوحشية التاريخ.

إسماعيل شموط لم يبق في الغيتو، بل مشى في مسيرة التيه والذل، حيث مشى عشرات الألوف من سكان المدينة واللاجئين إليها تحت الرصاص .. في تلك المسيرة الرهيبة كان ينحني على عطشه، أما الذين نجوا فحملوا معهم ذاكرة العطش إلى كل الينابيع التي نضبطت في أرض العرب.

لا أدري إذا كان إسماعيل شموط قد التقى بجورج حبش في تلك المسيرة، لكن ما أعرفه هو أن حكاية اللد مرسومة على جبين كل من عبرها إلى تيه اللجوء والمنافي.

إن إسماعيل شموط، وهو يلون لوحاته، كان يرسم هذا العطش، الذي صار عنوان حياة اللاجئين وهم يبحثون عن ماء رمى به جندي إسرائيلي أرضاً، أو لوث قميص لاجئ سقط في بركة .. كان شموط، وهنا أستعير كلمات الفنان كمال بُلّاطة، الموهبة القائدة لجيل انطلق من المخيمات، وصارت أعماله نموذجاً لجيل كامل من الفنانين اللاجئين الذي علّموا أنفسهم بأنفسهم.

حين روى شموط عن النكبة أخبرنا قصة وعاء الماء الذي أمره الجندي الإسرائيلي برميه أرضاً، وحين رسم مسيرة الموت، رسم العطش بأشكال مختلفة، لعل أكثرها تعبيراً هو مشهد القميص المبلل الذي يتحلق الناس من حوله ليشربوا ما علق به من فتات ماء.

واقعة شموط كانت جزءاً من عمل ثقافي تأسيسي أراد من خلاله تحويل النهاية إلى بداية .. هذه هي لعبة الفلسطينيات والفلسطينيين مع نهاياتهم.

عام ١٩٤٨، عندما اجتاحت «الهاغاناة» و«البالماخ» اللد، وفي سكرة الموت والوحشية التي صنعتها مذبحة المدينة، وهي المذبحة الأكبر التي جرت عام ١٩٤٨، اعتقد الإسرائيليون أنهم كتبوا النهاية بحبر الجريمة .. لم يكتفوا بالقتل والطرد، بل حولوا الطرد إلى مكان للانتقام والموت، وجعلوا من مثلث الجامع الكبير والمستشفى والكنيسة «غيتو» للفلسطينيين يعلن أن الإسرائيلين حولوا الفلسطينيين إلى يهودهم.

لكن هذه النهاية كانت بداية، والبداية لها اسمان العطش والصمت، ففي العطش رسم إسماعيل شموط، ومن بعده توالت أجيال الفنانين الفلسطينيين الذين جعلوا من الألوان والأشكال مياه ترتوي حين تروي، وفي الصمت تفتق الكلام وكتبت سميرة عزام، وغسان كنفاني، ومحمود درويش، وإيميل حبيبي، وجبرا إبراهيم جبرا، وسميح القاسم.

ومن تجاويف الصمت ولدت الحكاية من جديد .. لا لتخبرنا عن الماضي فقط، بل لترسم أفقاً يجعل منها حكاية تصلح لكل المضطهدين.

في ثنائية العطش والصمت رسمت النكبة حكايتها، وهي حكاية عن الحياة، وليس عن الموت، فالحي يولد من الميت، والبداية ترتسم في النهاية.

مشكلتكم مع إسماعيل شموط أنه ليس هنا، ففي رحلة الألوان والأشكال، كان الرجل يرسم طريقه من اللد وإليها، لذا لم تجدوا في لوحاته سوى معالم الطريق إلى المدينة المنكوبة، واؤكد لكم أنكم لن تظفروا به إلا إذا ذهبتم إلى هناك، إلى اللد، كي تلتقطوا الأنين الذي لا يزال يحوم حول الموت، وتمسحوا الدماء والأوجاع عن وجه المدينة المنتهكة بالاحتلال، والمنكوبة في تجاويف لغو المستعمر الجديد التي لا تستطيع أن تتهجى أحرف زيتونها وزيتها وليمونها وبرتقالها.

هناك، تتمثل أيقونة الخضر منتصبة كشاهد على الجريمة، وسنستمع إلى تمتمات متصوفها ذي النون المصري التي تهجس بها الشوارع.

أعرف أن العطش الذي احتل اللد، يحتلنا جميعاً، ليس في فلسطين وحدها، بل أيضاً في هذا العالم العربي المحكوم بالمستبدّين والقتلة، لكن ما أعرفه هو أن عطشي الذي ولد مع النكبة لن يرتوي إلا حين يلتقط إسماعيل شموط وعاء الماء ويشرب .. عندها فقط تستعيد اللد اسمها، ويستعيد المنسيون ماءهم وحكايتهم.

خالد حوراني: «بورتريه لم يكتمل»

كنت أعددت بحثاً عن إسماعيل شموط نشر في مجلة الكرمل العام ٢٠٠٦، ولكن ما سأقدمه مقتطفات من هذا البحث أو هذه المقالة بعنوان «بورتريه لم يكتمل».

الدخول إلى عالم الفنان التشكيلي إسماعيل شموط أشبه ما يكون بجردة حساب مع التاريخ، ومراجعة لأحداث وقصص شعب لم تكتمل مسيرته في الاستقلال ونيل حريته، فعالمه عالم مليء بالحكايات والمعاني، ويتقاطع فيه الفن ويتصارع مع السياسة، وهو عالم إنساني يمتزج فيه الألم والفرح مع المقاومة .. وبهذا المعنى لا يمكن قراءة أعمال شموط بمعزل عن شرطها التاريخي، فاللون والشكل عنده وضربات الفرشاة والتخطيط والموضوع ليس بحثاً فنياً شكلانياً محضاً، بل هي حالة تعبير متصل بواقع زماناً ومكاناً، حيث أنتجت أعماله ضمن سياقات سياسية واجتماعية، أو دللت بالضرورة على هذه السياقات، ليس بسبب الظروف المحيطة به فقط، وإنما بسبب خياراته الواضحة أيضاً.

إننا، ونحن نشاهد لوحات شموط لا نستطيع الفكاك من كونها سلسلة متصلة تفضي إلى سيرته كفنان، وإلى سيرة الشعب الذي ينتمي إليه، ولهذا وتلك دلالات تستحق البحث والعناية دون إغفال الصلات العميقة التي تربط حياته كفنان بالحيز الذي تحرك فيه وعايشه، بالإشارة إلى التاريخ والحياة التي تلف

أعماله، بل وتفيض عنه .. تلك الأعمال والآثار التي تتميز بالوفرة والتمدن.

وربما ينطبق عليه كفنان، أكثر من أي فنان آخر، قراءته بالسياق الاجتماعي والسياسي، نظراً لطول تجربته وفرادتها، فالرجل عاش وعمره أكبر من عمر الدولة التي تسببت في مأساته ومأساة شعبه، بينما تكاد تكون أعماله وثائق وسجلات لهذه المعركة الممتدة منذ النكبة وحتى يومنا هذا بمحطاتها المختلفة.

ما نحن بصدده إذاً، نصف قرن وأكثر من حياة فنان، منذ أطلق شموط محاولاته الأولى في الرسم على يد معلمه الأول داود زلاطيمو، ومع الوقت تطور وعيه وتطورت تجربته الفردية الأصيلة لتنتصر على الزمن والمكان، وتجعل منه فنان فلسطين الكبير.

بقي شموط متجذراً في مكانه وموضوعه فلم ينتم إلى أوطان أخرى، ولم تغره التيارات الفنية المتجاذبة، وحقق تآلفاً نادراً ما بين الذات والموضوع .. دأب على الكفاح من أجل رؤيته كرسام وناشط ثقافي مارس دوراً ريادياً في مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية منذ تأسيس دائرة الثقافة والفنون فيها، وترؤسه لها، حتى خروج منظمة التحرير وقيادة الثورة من بيروت العام ١٩٨٢، حيث ساهم في دعم مواهب كثيرة، وحقق انتشاراً للفن التشكيلي المرتبط بالموضوع الفلسطيني، وساهم في تحقيق التبادل والتواصل الفني مع المحيط العربي والعالمي.

وقد كان خلال ذلك كله مستغرقاً في فنه إلى جانب عمله في الدائرة .. وشموط كشاهد على عصره، وكمتشبث بجذوره الثقافية، حرص أن يكون الفلسطيني الحارس لهويته المهددة بالأخطار وفقدان الذاكرة، ففي محاولته لرسم وتصوير هويته وهوية شعبه عمد إلى تقديم نسيج متكامل بغض النظر عن الهزائم والنكسات، مقدماً في لوحاته خيطاً بين الماضي والحاضر مشدوداً بالروح بين نقطة البداية في مدينة اللد، وحتى يوم غيّبه الموت في أحد مشافي ألمانيا.

تبرز في مجمل أعمال شموط شخصيته الحيّة واضحة المعالم، والتي تجمع ما بين المحافظة والثورة، وما بين الحركة والإيقاع السريع كما في أعماله الأخيرة «السيرة والمسيرة»، وبين البساطة والهدوء والصبر كما في أعماله السابقة.

وإن كان انحيازه الدائم لصالح قضايا شعبه دون أية محاولة لنقده أو لومه، فقد ساهم في تكريس صورة الضحية وصورة المكافح في فنه، كثنائية ليس فيها بين بين، وقدم المرأة والرجل والطفل بصورة بهية وملامح نموذجية متشابهة تدعو للإعجاب والتعاطف أكثر مما تدعو للشفقة أو البكاء على حالهم.

الهوية الوطنية في أعمال شموط واضحة وصريحة، وتأتي في مواجهة عالم مهدد لثقافته، والوطن في ذاكرته يعيش حيواته الخاصة، فهو على وجه الخصوص ركز على ترحيله القسري وإبعاده عن وطنه الأم فلسطين .. الهوية والوطن لمتأمل مثله، وعاش ويعيش خارج وطنه، يعكسان دلالات جميلة

وصافية ورومانسية مجردة من الشوائب.

علاوة على ذلك، تبرز في أعمال شموط ظلال شعرية، وهي محملة بطاقة تعبيرية وجمالية ليست في ملامح الشخصيات فقط، وإنما في موضوعاتها، بالرغم من أنها أعمال تتمحور حول المعنى الرمزي، فهو عندما يرسم الأمومة والطفولة والأعراس والناس، وظلال عيونهم، يحرص على ملابسهم، والنباتات، والأثاث، في لوحات تخلو من المباشرة والشعار، فبمقدار ما في أعماله من سهولة بالتعبير وبساطة وتوضيح بمقدار ما تتمتع بفائض من الملمح الشعري الذي يطغى على التفاصيل المجردة للواقع.

مما استفدته من دروس عبر أعمال شموط، هو ما تراءى لي بأن شموط كما لو كان رسم لوحة واحدة لمسيرة حياته، عبر أعمال متشابكة تطورت بتطور السنين، وهذا يحتاج إلى عرض مصور لتوضيحه، فالطفل الذي رسمه شموط في خمسينات القرن الماضي كبر في لوحات ثانية، وهكذا بالنسبة للمرأة والرجل والمسن، وكأنه يرسم مسيرة حيواتهم، فالشخصيات هي ذاتها، تنمو، وتظهر في مواقع مختلفة، وكأنها تتحرك في فضاء مسرحي، ولها عمرها الافتراضي، وتحولاتها تبعاً للظروف المتغيرة .. سيرة إسماعيل شموط مستمرة، وستستمر.

ريم فضة: في منزل إسماعيل شموط

سأتحدث عن تجربتي الخاصة مع إسماعيل شموط وتمام الأكحل .. ولدت في الكويت، وعشت فيها، ومنذ صغري كنت أعلم أنني ذاهبة إلى الفنون، وشجعتني في المدرسة بعض المعلمات، كما شجعتني عائلتي التي كانت تربطها بعائلة شموط والأكحل علاقة شخصية، وخاصة والدتي والفنانة تمام الأكحل في اتحاد المرأة الفلسطينية، ولذلك، وبعد أن لمست موهبتي، توجهت لديها لتدريبي لديها في «الاستوديو» الخاص بها في منزلها وشموط بالكويت.

كنت في الخامسة حين بدأت التوجه إلى منزل تمام الأكحل وإسماعيل شموط، وأجلس لساعات طويلة في «الاستوديو»، وحين كان يستبد بي المرض في بعض الأحيان، كانا هما من يعتنيان بي.

أتذكر مشاهد كثيرة لهما، وهما يرسمان لوحات باتت شهيرة، وأتذكر أن أول معرض أشارك فيه كمتفرجة كان معرض «جداريات إسماعيل شموط» في الكويت .. لا أتذكر الكثير من التفاصيل عنه، لكني أتذكر خالي حين سألني عن المفاضلة ما بين أعمال تمام وإسماعيل، وإجابتي السريعة المنحازة إلى لوحات إسماعيل شموط لكبرها وألوانها.

مرت السنوات، وبت طالبة في جامعة بيرزيت، وكانت من بين أول المواد التي أدرسها تلك التي

تتناول التاريخ الروائي، ولكوني منحازة للبصريات استذكرت الرواية البصرية للتاريخ الفلسطيني التي رسمها إسماعيل شموط.

وقتها قمت بزيارتهما في منزلهما بحي الرابية في العاصمة الأردنية عمّان، حيث وثّقت شهادتهما، وشموط على وجه الخصوص .. حين بدأت أسجل هذه الرواية، كان يسير إسماعيل شموط معي بين لوحاته واحدة واحدة في مقتنيات المنزل، وعندها شاهدت روايات النكبة بعيون إسماعيل شموط، وألوان لوحاته، في مشاهد حيّة، حيث لم تكن هناك أفلام تروي النكبة منتشرة .. أعتقد أن اللغة البصرية المتينة في لوحات شموط من أوائل الروايات البصرية حول النكبة، وفيها تأريخ بصري روائي بلغة نوعية، وتبقى شاهداً على هذا التاريخ.

وبعد سنوات، بت أعمل كقيّمة فنون في متحف بأبو ظبي، وبدأت أدرس تاريخ الفن، وأبحث عن علاقة إسماعيل شموط وتأثيره على الساحة العربية والمشهد الأوسع، واكتشفت زخم هذا التأثير .. اكتشفت أن ثمة زخماً حقيقياً لهذا التأثير، فمثلاً عبد القادر الريس، الذي يعتبر الفنان الأبرز في الإمارات (أب الفن التشكيلي الإماراتي)، هو ممن تتلمذوا على يد شموط في الكويت، وكان متأثراً كثيراً بشموط لدرجة أن موضوعاته لم تكن فقط إماراتية، لدرجة أن بعض لوحاته تناولت الشأن الفلسطيني، وخاصة لوحاته حول الانتفاضة.

أتذكر لوحة «إلى عين» التي تحدث عنها الفنان سليمان منصور حين شاهدها للمرة الأولى في معرض بدمشق في ستينات القرن الماضي، وتحدث عنها أيضاً خالد الحوراني وغيرهما .. شاهدتها في منزل شموط والأكحل، وهي لوحة ذلك الرجل، الذي قد يكون شاباً، لكنه يبدو كهلاً، ويحمل أطفاله على ظهره في رحلة النكبة، وربما هي الإرث التي أرى من خلاله «جمل المحامل» الشهيرة لمنصور .. هذا الحمل والثقل الكبير لرحلة الشقاء الفلسطيني.

ما يميز لوحات إسماعيل شموط، الحركة الدائمة فيها عبر ألوانه، إضافة إلى المشهدية فيها، كالرقص، والتجوال، وغيرهما، فالحراك سمة ترافق ما يبدعه شموط حتى على مستوى «البورتريه» .. أختلف مع خالد حوراني فيما يتعلق بنمو الشخصيات، فمنذ بدايات شموط كان هناك حضور لذلك الشاب الكهل، فكأنه في لوحاته يعوّل على الذاكرة الشابة الحية، وهذا يعد رصيداً للوحاته.

قد يتساءل البعض عن أهمية هذه اللوحات المثقلة بالصور، وبالسياسة، وبالمجتمعيات، البعيدة عن التجريد .. وهنا أقول باختصار أن ثمة في مسيرة إسماعيل شموط الفنية شيء حقيقي ما أثر على مستوى تجاوز فلسطين إلى العالم العربي، بل أثرت على مسيرة ثقافة العالم الثالث، التي أسهمت في ثقافة بناء الفن المعاصر المتصل بالسياسة والمجتمع، وهذا ليس بالأمر الهيّن على مستوى الإنتاج.

سمير سلامة: النقابي شموط

كيف تعرفت إلى إسماعيل شموط؟ .. سأبدأ من هنا .. في بداية حياتي الفنية، وكأي طفل أو يافع «يخربش» لوحات لها علاقة بالطبيعة الصامتة .. كان ذلك في بداية ستينات القرن الماضي، في معرض دمشق الدولي .. كان هناك لكل دولة جناح، وكنا نحن الفنانين الشباب نبحث عن فرصة للعمل في أحد الأجنحة، كمساعدة مهندسة ديكور، أو الدهّان، أو غيرهما .. كنت أبحث عن فرصة عمل هناك، ولمحت أن ثمة جناحاً لدولة فلسطين، ولاحظت أنهم يرسمون على جدران الجناح من الداخل رسومات، ويخطون كتابات، وبينها لوحات، كانت إحداها لإسماعيل شموط، وكنت شاهدتها من قبل.

من عرفني إلى إسماعيل، صديقه في الدراسة بإيطاليا محمود حمّاد وكان عميداً لكلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق، وصديقه الثاني أدهم إسماعيل .. هذان من تحدثا لي عن شموط، لكني لم أكن أعرفه شخصياً، بل من خلال بعض أعماله التي شاهدتها عبرهما، وكانت بالأسود والأبيض .. في الجناح، شاهدت الأعمال، وبدأت أبحث عنه، وأسأل عنه، وحين التقيته كنت سعيداً جداً، كطفل شاهد شخصية كارتونية، فهو هذا الفنان المعروف بالنسبة لي، وصاحب الأعمال العظيمة لفلسطين، وكنت مرتبكاً وغير قادر على التعبير، لكنه كان اللقاء الأول بيننا.. كان ذلك في العام ١٩٦٤.

واستمرت اللقاءات المتتالية بيني وبين شموط، كلما قدم إلى دمشق حتى العام ١٩٧٤، حينما توجهت للدراسة في فرنسا .. في هذه الفترة كانت هناك أنشطة كثيرة ومتعددة، وخاصة ما يتعلق بالنشاط النقابي على المستوى العربي، حيث كانت وقتها تتشكل اتحادات للفنانين وجمعيات ناشطة للفنون التشكيلية في الدول العربية .. ما بين الأعوام ١٩٦٤ إلى ١٩٧٠، كنت قليل اللقاءات به، كونه كان يقيم في بيروت، ولم يكن عليّ الأمر سهلاً كفلسطيني بالوصول إلى بيروت في تلك الفترة، لكنه حين يتواجد في دمشق كنت ألتقيه، ومنه تعرفت على كفية تأسيس نقابة أو تجمع للفنانين، خاصة أننا الفلسطينيين، ومنذ قيام الثورة، ازداد إحساسنا وشغفنا بالتنظيم، بالمفهوم العام للمصطلح .. عرفت وقتها إسماعيل كنقابي جديد، وليس كتشكيلي مبدع فحسب، حتى وصلنا إلى المؤتمر التأسيسي لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب مطلع السبعينات في دمشق، على ما أذكر العام ١٩٧١، وأنتخب أميناً عاماً له.. كان وقتاً صعباً، ولكن بالنسبة لي، وإن كنت صغيراً حينها، مفيداً جداً، وإن كنت لا أنام الليل في عديد الأحيان خشية الفشل.

رغم المآسي التي عاشها شموط، كانت حياته الشخصية عاطفية، وكان الحس الداخلي له فيه نزعات إلى المرح، حتى إنه كان صاحب نكتة في بعض الأحيان، وفي أحيان كثيرة قديراً بخفة ظله على قلب

الأجواء المتوترة والدرامية إلى ما يشبه الكوميديا، فيصبح الضحك سيد الموقف، عوضاً عن المواقف المشدودة بين هذا وذلك في هذه الجلسة أو تلك.

ذات مرة ذهبت إلى مكتب منظمة التحرير في شارع المزرعة، حيث كان يعمل إسماعيل شموط، التقيت بشخص يدعى ميشيل نجار، وكانت مولودته البكر أنثى، ثم ولدت له زوجته أنثى ثانية، وعقب عودته إلى المكتب، جاءنا إلى حيث كنا أنا وإسماعيل، وكان شفيق الحوت في مكتب مجاور .. دخل ميشيل يصيح كنوع من الغضب على البنت الثانية، وخرج شفيق الحوت على صوته، وحاول تهدئته بمخاطبته ساخراً: لا تقل «صار عندي بنتين»، بل قل «صار عندي بنت وبنت»، وساد جو من الضحك .. أتذكر أن إسماعيل احتضنه، وساهم كما الحوت في تهدئته حتى بات في الأجواء نوع من المرح عوضاً عن الغضب والدراما الذي كان يعتري ميشيل، وكان يشتهر إسماعيل بحبه للموسيقى.

كنت أرى الأشياء مغايرة بالفن، وأحياناً كنت أطالبه بتغيير نمطه في الرسم، وأصفه بتعميم الكآبة، وكان يقابلني بسخرية ويصفني بالجاهل، وإن لم يقلها صراحة، كأن يقول «شو بيفهمك إنت» .. كان يتقبل خلافاتي ومشاكساتي له بصدر رحب، حتى لو تكن ذات طابع ساخر.

في ستينات القرن الماضي، أتذكر أنني قرأت رواية «زوربا» لكازانتزاكيس، وبعد سنوات تحولت الرواية لفيلم من بطولة أنطوني كوين بالأسود والأبيض، وكان لي فرصة مشاهدته، فاختلفت الرواية قليلاً بالنسبة لي (في رأسي)، ومن ثم شاهدت الفيلم مرة أخرى في باريس واختلفت بدرجة أخرى، فقمت قرأت الرواية مجدداً لأجدها تختلف عن المرة الأولى التي قرأتها فيها .. الرواية لم تتغير، ما تغير هو منطق تفكيري تجاهها، وإحساسي بها.

هذا ما كان تماماً مع إسماعيل شموط، فالمرة الأولى التي شاهدت فيها أعماله بالأسود والأبيض تفاجأت، وبعد أن عشت معه ولوحاته في دمشق، ثم في بيروت لأربع سنوات كنا نلتقي فيها يومياً أو بشكل شبه يومي، بحضور أصدقاء لنا، كان من بينهم ناجي العلي وأخرون، تغيرت علاقتي مع أعماله بعض الشيء .. كان يعزف الموسيقى في هذه الأمسيات، وكان يهتم كثيراً بعائلته وأبنائه، وكما أشرت الآن أنا أنظر لأعمال شموط بطريقة مغايرة.

نبيل عناني: الدرس الأول

برز إسماعيل شموط عقب النكبة مباشرة، وكان الفن التشكيلي الفلسطيني ما قبله، إلى حد ما، يميل إلى المحاكاة والفنون اليدوية الحرفية، وبالتالي خرج بشكل مفاجئ، وأثر على الشعب الفلسطيني بشكل عام، وبدأ معه يدرك العامة أن للفن الفلسطيني دوراً نضالياً، على عكس من سبقوه، وبالتالي

فتح إسماعيل بوابة قدم من خلالها إلى العالم، وعبر لوحاته، القضية الفلسطينية، وساهم في تعريف العالم بحكاية الشعب الفلسطيني، ومعاناته ونضالاته عن طريق الفن.

كان لشموط شعبية طاغية، فلا أحد في فلسطين لا يعرفه، وبات مشهوراً إلى حد كبير على مستوى فلسطين والعالم العربي، والعالم، خاصة ألمانيا والدول الإشتراكية.

تعرفت إلى إسماعيل شموط في العام ١٩٦٥، وكنت شاباً دون الثامنة عشرة، وكان هناك مكتب لمنظمة التحرير في بيت حنينا، وكان عمي، ولكونه ضابطاً سابقاً مع البريطانيين يعمل في القسم العسكري في المكتب، الذي توجهت إليه برفقته ذات مرة .. في المكتب شاهدت لوحات لإسماعيل شموط، الذي كنت أسمع باسمه، والتقيته هناك، وتعرفت إليه .. كان متواضعاً جداً، وبدأ يشرح لي عن لوحاته.

وكنت أساله عن لوحاته وطريقة رسمه، وكان يقدم لي النصائح للخروج بلوحات أفضل .. تعلمت منه الكثير، وكان هذا اللقاء بمثابة أول درس لي في الفن قبل الدراسة الأكاديمية .. بعدها التقينا مراراً في بيروت، وعمّان، وغيرهما.

سليمان منصور: «روح النكتة»

للأسف، يعاني الفن الفلسطيني من حالات قطع بين فترة وأخرى، فالعديد من الفنانين يعتقدون أنهم نقطة البداية في مسيرة الفن الفلسطيني، وبالتالي جميل الاعتراف وتقدير الفنانين السابقين، فنحن نكمل الطريق التي بدأوها.

إسماعيل شموط أثر فيّ كثيراً، كما أثر في الكثير من الفنانين الفلسطينيين، وإذا ما استثنيت المطبوعات التي كنت أشاهدها له بالأسود والأبيض، فإن اللوحة الأولى التي شاهدتها لشموط كانت في معرض دمشق الدولي كانت لوحة قفط البرتقال، وأذهلتني كثيراً، وهي لوحة كبيرة وجميلة.

لا أكشف سرّاً حين أقول إنني كنت أحاول أن أقلد إسماعيل شموط، ولكنني لم أتمكن من ذلك، فهو إضافة إلى دوره الفني العظيم، ولكونه شخصاً متواضعاً، كان يتمتع بـ»روح النكتة» .. أتذكر ذات مرة حدثني عن بورتريه تمام الأكحل بلباسها الأحمر، هذا البورتريه الشهير .. كان في منزله، وكنت أداعبه بادعاء استهجاني من الإصرار على الاحتفاظ به، فأكد لي أن كثيرين كان يضغطون عليه من أجل شرائها بأي ثمن، من بينهم ثريّ خليجي ألح عليه كثيراً، لدرجة أن شموط صدمه بعبارة ساخرة خاطبه فيها «شو رأيك تاخذ مرتي وتتركلي اللوحة»، وهذا يعكس شخصيته المرحة التي من خلالها كان يربح الكثير من المعارك التي كنا نظنها خاسرة.

مراجعات وتقارير

رواية الإسرائيلية دوريت رابنيان: من لعبة التخييل إلى مأزق الإيديولوجيا

أحمد المديني

يقول مثل سائر بين الناس إن» الكتاب يقرأ من عنوانه» وفي صيغة أخرى إن» المكتوب يقرأ من عنوانه»، وأيا كانت مرتبة الصواب في هذه العبارة من ضعفها، فإنها تحيل إلى ما للعنوان مستقلا بذاته من قيمة ودلالة للنص الذي يعلن عنه، إما بدلالة تعيينية، حافة، أو إيحائية، ما جعل دارسين يولونه كل الأهمية في نطاق نظريات النص الحديث بوصفه عتبة للقراءة تتدخل في عملية التلقي والتأويل حسب مقاربات معينة، من ذلك ما يشير إليه جيرار جنيت يرى فيه مجموعة علاقات لسانية تدل على النص تحدد محتواه وتغري بقراءته(١). ما يمكن قوله بنسبة ما عن الإهداء والأقوال المأثورة مما يقدم به المؤلفون أعمالهم تدخل في تبويب العتبة بما حظيت به في التحليل النصي الحديث من أهمية قصوى(٢) .

٢ ـ أحببنا استهلال موضوعنا، وهو قراءة وتحليل لرواية قدِّر لها أن تصبح ذات شأن وصيت، بهذه الإشارة النقدية، لما نرى من قوة ارتباطها به، وتعد أحد المفاتيح الأساس للفهم والتأويل كما ينص الشرح. هي رواية الكاتبة الإسرائيلية دوريت رابنيانDORIT RABINYAN بعنوان» جدار حي»،هو العنوان الأصلي العبري الذي صدرت به قبل عامين، وبسبب ما اثارت من ردود فعل سنعرض لها وسجال في الداخل الإسرائيلي، انطلاقا من حساسية عوالمها وأشجان شخصياتها، وموضوع رهانها الأخطر، عرفت شهرة سريعة وترجمت حتى الآن إلى اثنين وعشرين لغة، منها الإنجليزية صدرت فيها بعنوان:»All the Rivers «(كل الأنهار) وإلى الفرنسية أخيرا بعنوان:»Sous la meme étoile» (تحت النجمة ذاتِها)هذه الترجمة هي عمدتنا في الحديث عنها واستقصاء ما أثارت.(٣)

٣ ـ تهدي رابنيان روايتها ل» حسن حوراني»(عاش من ١٩٧٣ إلى ٢٠٠٣)، وهو فنان تشكيلي فلسطيني من رام الله، درس في بغداد وانتقل إلى نيويورك بمنحة دراسية، عاش فيها بعض الوقت وتعرف إلى أجوائها وأنجز قسما مهما من أعماله فيها. فهو إسم علم، إلتقيت شخصيا في رام الله بمن عرفوه عن كثب، ويتذكرون بأسى نهايته المأساوية إذ لقي حتفه غرقا في بحر يافا وهو في آخر زيارة له للضفة الغربية. أما ما يبرر الإهداء، فهو سببٌ واقعيٌّ يعود إلى معرفة الكاتبة بشخص الراحل، وكونها عاشت معه فعلا علاقة حميمية في نيويورك. وهي نفسها تشهد على وجود هذه العلاقة، وتعلن في حوار لها مع الغارديان بموازاة مع صدور روايتها بالإنجليزية فتقول بعبارة صريحة:» كانت غايتي هي إحياء ذكرى هذا الرجل الذي تعرفت عليه في نيويروك، وتوفي بعد أشهر فقط من هذا التعارف». وتزيد في التعليل للكتابة قائلة كمن يبحث عن مبرر أكثر إقناعا:» شعرت وقتها[بعد موته] بمسؤولية إنسانية تجاه ذكرى تدعوني لأشهد على أيامه الأخيرة».

٤ ـ نستخلص أولا أن هذا العمل السردي الطويل وذا الطابع والعوالم التخييلية، باطنه وخلفيته، ومصدره أساسا وقائع حقيقية، ثانيا، أن مؤلفته عاشته وكتبت عنه لاحقا، بما يمنحه صفة سيرة ذاتية مقنّعة، أو بطريقة محرفة كتابة التخييل الذاتي، بما أنه جاء على منوال جنس الرواية، وتوسّل أدواتها، وخصائصها كاملةً متجليةً فيه، وأخيرا حسم المؤلف والناشر كل تأويل للمسألة الأجناسية بتوافقهما على وضع جنس رواية على غلاف الكتاب، هو الفيصل. لكن للقراءة، النقدية رأيا آخر، وهي تحتكم بدورها إلى ما يعد من خصائص الجنس الأدبي، سواء الأصلية، أو المتفرعة، وهنا نحن أمام الفرع، التخييل الذاتي، حيث يعمد المؤلف عادة إلى استبعاد ما يعرِّف به علنا ، يخفي الإسم العلم الصريح، أو ضمير المتكلم المتضمن للعلمية، زيادة على التعاقد المبرم مع القارئ باعتبار ما يقدمه سيرة ذاتية خالصة ولتقرأ في ضوئه.

٥ ـ بلورت دوريت رابنيان خطة الجنس الفرعي، بتطبيق أول شرط له، إلباس القناع على الوجه الحقيقي للشخصيات، خاصة ذات (البطولة) في القصة الواقعية. هكذا جعلت بطلها يحمل إسم (حلمي)عوض(حسن) وتسمّت هي(ليات Liat Benyamini) عوض إسمها دوريت. وهذا وحده لا يكفي إذ عمدت إلى تمويه ما من شأنه رسم خط كامل الوضوح للشخصية المركزية الثانية، محتفظة بإشارات مبعثرة تنتسب إلى سيرتها الأصلية وتدل عليها لمن عرفها حقا بشكل ما: مكان الإقامة الأول، رام الله،. الجنسية، فلسطيني. مكان الدراسة، بغداد. مكان الهجرة المؤقتة، نيويورك، وأخيرا مكان النهاية، فلسطين، عندها في إسرائيل، حسب الموقع الذي نأخذ. ليس الشكل عند الكاتب، الروائي المعتمد صيغة فنية إعتباطية، إنه خطة استراتيجية للكتابة ترتبط بداية وتنسجم مع محكي القصة ومضمونها وما تحفل به من دلالات وتولِّد من أبعاد. ولم يكن أفضل من رداء

التخييل الذاتي ثوبا ونسجا وحبكا للقصة التي بين يدي رابنيان وعاشتها نفسها كي تكتبها بالكيفية التي أنجزتها والمنظور الذي أرادت، ونقرأها من خلاله.

٦ ـ هي تريد أن تظهر ويُعلم أنها بحالتها المدنية طرفٌ في القصة متماهية معها على غرار الواقع، متى تعلق الأمر بالجمهور الإسرائيلي، والعربي، أيضا، وبموضوع الصراع الذي يمثل معضلة القصة، وقابلة للتباعد عنها في آن، وحتى الإنفصال كشخصية موضوعية تناسب المقترب الروائي في ما يخص تلقيها من جمهور أجنبي، خارج دائرة الصراع الفلسطيني والإسرائيلي، بمكوناته وأبعاده الترابية والتاريخية والهوياتية والإنسانية. وهي تختار بالتحديد هذا البعد مدخلا وتحوله إلى بؤرة تصب فيها وتلتقي جميع المكونات، تبغي منها أن تنصهر بحثا عن مصير يرتسم في خطه مجرى الحكي العام صانعا ، مرويا قصة شخصين، إمرأة ورجل، بهالتها الإنسانية، وقصة رجل وامرأة بنسغها الإشكالي الكامن في قلبها، ووجهي الصراع المتقابلين(فلسطيني/ إسرائيلية) في دائرة المصير التراجيدي العام. هيأت هذه الطريقة التي توفرها عناصر تشكل نوع التخييل الذاتي، لرابنيان، ذاتا وإنسانا علَما، أن تكون بطلة وساردة، فاعلة إلى حد أقصى وشاهدة، متورطة ومنحازة شيئا ما، فيما هي تقدم لنا عالم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني حول حق الوجود والوطن بشكل صِدامي ومتوتر وحجاجي وسجالي ومزعج لأكثر من جهة، خاصة الإسرائيلية تعيش فوبيا الهوية. تلك التي لم تخفها العلاقة الغرامية بل ألهبتها، ومثلت تهديدا للبطلة كاد يعصف بها عصفا.

٧ـ لا عجب، وبسبب هذه الفوبيا، عرفت» تحت النجمة ذاتها» صيتا قويا، ثم تبعته زوبعة سياسية إعلامية، وبعدها شهرة ربما لم تكن مؤلفتها تحلم بها. فقد كانت الرواية قد أدرجت العام الماضي في مناهج وزارة التربية والتعليم في الأقسام الثانوية، حين تعرض لها الرقيب وتم التراجع وجهت لها تهمة أنها(تشكل خطرا على الهوية اليهودية) إنطلاقا من الموضوع الذي تثيره وتشخصه، والعلاقات التي تنسجها، اعتبر وزير التعليم الإسرائيلي نفتالي بنيت في بيان إدانة الوزارة :» أن العلاقات الحميمة بين اليهود وغيرهم، وبوجود خيار قانوني يمكن من توثيق الزواج ومن ثم تكوين أسرة لهو محط رفض شديد لفئة واسعة في المجتمع، ترى في هذه الحالة تهديدا للهوية اليهودية وغير اليهودية حتى لو لم يرد ذكر هذا الأمر في الرواية فعلا» ورغم أنه حدث تراجع محدود تجاه الرواية يسمح بإمكان الإحالة إليها في بعض المناهج، فالموقف ظل ذاته من الناحية الرسمية، بالطبع جلب شهرة واسعة للكتاب.

٨ـ فما هي حكاية هذه الرواية الإسرائيلية التي أقامت دنيا سلطات إسرائيل ولم تقعدها بعد؟ رواية نقرأها من خلال تكونها وعيش ناسها وجريان أحوالها، في نهارهم وليلهم، بين بيوت وأزقة وشوارع نيويورك، إنتقالا إلى فضاءات قريبة، مشابهة ومختلفة، ومنها إلى أبعد في شرق المعمور،

الشرق الأوسط، عبر الأثير(الاتصال المستمر بتل أبيب بواسطة الهاتف كأنها حاضرة في التراب الأميركي فضلا عن امتدادها في النفوس والعقول وجدانيا وثقافيا) ومنها خصوصا في الفضاء المغلق المفتوح لشقة حلمي بين ذراعيه وفي فراشه ليات وهما في أتون العشق لا يشبعان من بعضهما إلا لمزيد احتراق،عشقهما يمحو الخرائط والعوائق. نقرأها رواية تمتد على ثلاثة فصول، كما قسمتها الكاتبة، وعبر التدرّج الفصلي تُروى قصة حلمي وليات، خصوصا هذه الأخيرة بواسطة سردها، ومن منظورها، في الكلي والجزئي.

٩ـ هي ثلاثة فصول في الطبيعة والحياة والذات: خريف؛ شتاء، وصيف. للقارئ أن يملأ بياض الفصل الناقص(الربيع) أو يعتبر حُمّى العشق المشتعل بين الشخصيتين إلى حد الذهول والتفاني ربيعا زاهيا لا يُضاهى، وإنه لكذلك من وهجه ووصفه ومشاهد ولواعج حميميته. تفتتح الرواية على ليا وهي في معترك حياتها اليومية بنيويورك، تنظف وترتب الشقة التي تقيم فيها مؤقتا تركها لها أصدقاء يهود ذهبوا في عطلة طويلة إلى تل أبيب، أي من حيث قدمت، بحصولها على منحة دراسية في خبرة ومهنة الترجمة. هنا تعيش في وسط يهودي، أو إسرائيلي أميركي، يظهر فيه هنا وهناك مكانا مشتركا لسانا وذكرياتٍ ومشاغلَ ومطبخا. وحين سيحضر، سينبثق حلمي في مسار حياتها خلال فصل الخريف سيحدث التحول تدريجيا، لا بل سريعا وعاصفا فيقلب وضعهما معا، يأتي عليهما عنيفا، كاسحا هو الحب يُعمي ويصُمّ. منذ أن التقت ليات حلمي دخلت في دورة جديدة من يوميّها وإقامتها وعملها، والشيء نفسه بالنسبة إليه، وإن بقيا يمارسان بعض أنشطتهما الخصوصية، الترجمة من جانبها، والرسم هواه وشاغله الرئيس، فيمكن القول إن حياتهما توحدت واندمجا في ذات واحدة وبها طفقا يتنقلان في نيويورك بين الأصدقاء والمعارف، ويعيدان تركيب العالم حولهما، ربما ينسيانه، لا سيما هي قد تبلبلت أفكارها بين زلزال انتماءين.

١٠ـ لا تقدم رابنيان ذاتها في علاقة بالآخر، أو بطليها فيما لو أخذنا بالصيغة الروائية الموضوعية في البداية على وجه صدامي ولا مفارق، إذ تعارفهما يتم في صدفة محض يمضي بتلقائية وسلاسة منقطعة النظير، تعرف أنه فلسطيني، وهو يتعرف على إسرائيليتها فلا يصدمان بتاتا، مردّ هذا ولا شك أن حلمي تربطه في نيويورك علاقات مع معارف يهود وإسرائيليين، ولأنها حاضرة كوسموبوليتية، سنعي لاحقا أن السبب يكمن في إيمانه أو إيديولوجيته التي لن تتكشف إلا متأخرة في مسار العلاقة الغرامية، لن تطفئ لهبها، وستفعل فعلها من ناحية التوتر الدرامي للرواية، جاعلة من بؤرة قصة عشق في الحقيقة مستحيلة.

١١ ـ من الفصل(القسم) الأول للرواية يُنسج أول خيط في نسيج (إستحالة)علاقة ليات بحلمي رغم تحققها. فهي علاقة مسروقة من الزمن، لنقل فصل(ربيع) واقع بين خريف وصيف، ما دامت

مشروطة بإقامتها بنيويورك لفترة زمنية محسوبة لا تتعدى ستة أشهر، بعدها ستعود إلى تل أبيب، تتحدث عن أرض بوصفها وطنها، هناك أمها وأبوها يتفقدان يوميا أخبارها، وحبل السّرة معهما لم ينقطع، والويل كل الويل لو علما بأنها بصحبة عربي فلسطيني فيما أملهما متى تؤسس بيتا، مع إسرائيلي طبعا، وإلا فهي ستخرب المجتمع الإسرائيلي وتدمر هويته، كم تسرد علينا مرويات إسرائيلية عن ما تعرضت له نساء منهن اقترنّ بفلسطينيين تخويفا من تبعات علاقة حميمية مشتركة بين شعبين فوق تراب واحد. وهي مستحيلة كذلك للتضارب المطلق، كما سيتبدى أخيرا بين فكرة(البطلة)عن إمكان إقامة دولتين متعايشتين، وعقيدة هذا العاشق الفنان الفلسطيني الذي يؤمن بدولة وشعب واحد من عرقين وثقافتين. والإستحالة الأخيرة لو شئنا الوقوف هنا، أن هذا الحب بعد إدانته من المجتمع، الإسرائيلي تحديدا، لا الفلسطيني الذي ستقدمه الكاتبة متسامحا تجاه العلاقة المشتركة أو أقل تعصبا ورفضا ـ عجبا كأنه بلا هوية ولا يملك الغيرة والتعصب لها شأن اليهود ـ لا يمكن أن يثمر إلا الفراق، فالفلسطيني في رام الله ممنوع من الإنتقال إلى الجهة الأخرى، التي كانت أرضه، حيث هي، ليات، وحين سيتحدى القدر ويقرر أن يذهب لقضاء فصل الصيف لزيارة أهله في رام الله، وفي الجوهر للتواصل بمحبوبته وهي في تل أبيب، سيصرّ القدر على لعبته، سيغرق حلمي في بحر يافا وحبيبته على مرمى حجر منه!

١٢ـ في حوارها مع الغارديان البريطانية تشرح رابنيان دافعها العميق من وراء وضع روايتها، تقول:» شعرت بالحاجة لأن أقول وأشهد على أن الصداقة أكثر سموا من العلاقة العاطفية، خاصة بين شخصين تقوم خلفيتهما على صراع يصل إلى حد الحياة والموت.». تنبئ هذه العبارات بالفكرة أو المعتقد الذي تصدر عنه المؤلفة، كما يجدر بكل كاتب جدي، فضلا عن أنها مفعمة بتجربة شخصية، إزدوج فيها القلب بالعقل أو العقيدة، ومن أجل ماذا، وما هو محتوى هذه العقيدة أو على ما تبنى، وكيف اشتغلت أدوات الكتابة الروائية لها؟ ندرك أن طرح هذه الأسئلة يحتاج إلى مبحث مستقل بتحليل دقيق ومسهب يرسم خريطة الرواية انطلاقا من كيفية بنائها هويةَ وعوالمَ شخصياتها، ويعنينا خصوصا موقع وهوية السارد فيها، وهو ما يطرح قضية المنظور من شأنها أن تسلط الضوء على جوهر العمل. لكننا لا نرى هذا ممكنا والرواية غير متاحة بعد بالعربية كي نتحاور معها نصيا والقارئ. لذا نكتفي بإشارات لا مناص من تسجيلها، تزيد في فائدة هذا المقال، وتبعد عنا وصمة الغفلة النقدية أو أي شبهة من الجاهز يمكن أن نُرمى بها من قِبل من هم صُمٌّ بُكمٌ لا يعقلون:

١٢ ـ١ تهيمن الكاتبة هيمنة مطلقة على السرد، وهي تحل في صوت بطلتها، وهذه فيها. كل خطاب، إحساس، مرئي، فعل، وصف، داخل، خارج، يصدر من زاويتها وبمنظورها، وشريكُها ينطق من

حنجرتها ويتكلم بشفتيها، وجودُه كله، عشقُه، بَوْحُه منها حتى إبداعه هي واصفته. هيمنةٌ تفضح فنيا الكاتبة، عقيدة تسلطها العاطفي مستمدة من تسلط سياسي واقع. ١٢ـ٢ ترسم لنا دوريت رابنيان شخصية حلمي(حوراني) على أكثر من وجه، لكنها تسرف في رسم صورة نمطية لعربي يعميه العشق، ولا يكاد يعبأ بمصير وطنه، أو كأنه يعيش ضربا من الفصام في شخصيته، وفي النهاية فعودته المرتجلة إلى رام الله لا تحمل أو تحفل بفكرة الوطن، خلافا لها تماما، كل همه التفرغ وقتا لإنجاز لوحات جديدة، وإدامة الوصل مع المحبوبة، معها. إن لعبة نوع التخييل الذاتي تصطدم هنا حقا بحدودها، بالإيديولوجيا! ١٢ـ٣ هيمنة السارد منسجمة كليا مع تصميم الكاتبة المسبق لتوكيد وترسيخ الهوية الوطنية، ما أكثر الصفحات التي تجليها، هي ذاتها ما انتفض الرقيب الإسرائيلي من أجله، فيما هما يكملان بعضهما ويصدران من نبع واحد، تقريبا. إن من المثير أن ترسم رابنيان بطلتها(أو نفسها) وهي تهيم في بحار الهوى وشهد المضاجع من غير أن تتزحزح قيد أنملة عن عقيدة أهلها الراسخة في استحالة العلاقة مع فلسطيني، أو تقدم هي تنازلا من أي نوع، إنها جاءت من إسرائيل وإليها تعود لتستأنف الحياة كما تبغي لها دولتها ومجتمعها، ويقينها، وما هذه العلاقة إلا نزوة على الفلسطيني وحده أن يكون الضحية. سواء في الواقع أو تخييل مصنوع ١٢ـ٤ ليست هذه الرواية هي أول سرد أنشأه كتاب إسرائيليون عن ما يعتمل داخل مجتمعهم حول معضلة وإشكالية التعايش وتبعاته مع الفلسطينيين، بإحساس عميق لديهم أنهم يحتلون أرضا ليست لهم، ومنهم من يذهب إلى حبكات وفرضيات للتساكن والمصالحة بوازع سلمي مزعوم، بيد أن ما غاب عن رابنيان هو أن مصالحة الشعوب لا تتم في المضاجع وحدها!

إحالات:

1- Roy ,Max . Du titre et de ses effets de lecture.

Revue Protée ;volume 3 ,hiver 2008,pp 47_56

تعرض هذه المقالة وتحلل إشكالية العنوان وتأثيراته على القارئ، من خلال أمثلة واستشهادات موسعة. وتبين كذلك كيف أن العناوين تولد أفعالا تأويلية تنشط الخيال.

2- Genette ,Gérard. Palimpsestes ,la littérature au second degré.

Ed .Seuil,1982.

وانظر كذلك: الحجمري، عبد الفتاح. عتبات النص ـ البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ١٩٩٦.

3- Rabinyan ,Dorit .Sous la meme étoile .Ed. Les Escales .Paris ;2017.

مدن بطعم البارود..
بين إيقاع الذات الساردة، وإيقاع الحرب

محمد عطية محمود

«كل قلوب الناس جنسيتي،

فلتسقطوا عني جواز السفر»

هل هي الحرب..؟

ربما كانت هذه العبارة/ التساؤل المُر الذي تردد على لسان الذات الساردة «وردة»، لرواية «مدن بطعم البارود» أحدث روايات الكاتبة الفلسطينية «بشرى أبو شرار»، انطلاقا من هذا الخطاب الروائي الذي تواجه به تلك الذات، وتتواصل مع العالم كله من خلال شاشة حاسوب، رغما عن تلك الجغرافيا البغيضة التي جعلت بين الذات والآخرين من ذات الجلدة، هذه الأسلاك والأشواك والعوائق والصراعات، وهذه الهوة السحيقة على المستويين المادي والمعنوي على حد السواء.. تلك التي تشتعل حتى تجعل هذا الجسد الكبير الذي تفرق نهبا للحرب بمسمياتها المعلنة وغير المعلنة، وكي يتحول إلى «مدن من بارود» أو مدن من نار ينفجر فتيلها في أي لحظة من اللحظات!!.. هذا التشرذم الذي أصاب الكينونة الجمعية، وجعلها دائما على محك الانفجار وعلى شفا حفرة من النار: منشغلة بهذا الأمر أم متغافلة عنه ما يضع المفارقة التي تصنعها فكرة النص الروائي متماهية مع تلك الحالة الإنسانية القائمة على خلفية حالة لا إنسانية ومن خلال فضاء سيبراني، افتراضي/ لا واقعي.. ربما وصل ما انقطع وأعاد بعض الأمور ولو قليلا إلى حلم الوحدة الإنسانية لا الجغرافية،

* كاتب وناقد مصري

لينتج هذا النوع من التواصل/ الحوارات الإنسانية التي تعيد صياغة سرد الحكاية، وتحاول لمّ ما اندثر!!

ما يؤكد على أهمية العنوان كعتبة نصية أولى محمَّلة بالدلالات المتورطة في إيقاع الحرب بكل مفرداته، كبنية نصية فاعلة بين محددات المكان في مفردة (مدن)، التي تمثل جغرافيا قائمة بذاتها تتجاور ولا تجتمع، لتصنع حالة التفرقة والتشتت التي أريد لها أن تكون سمة هذه الكتلة الجغرافية الكبيرة/ الوطن الأكبر.. والتنكير في حد ذاته في (مدن) دلالة أعمق على هذا التفرق والتبعثر واللا تحديد إيغالا في إطلاق الحالة المكانية على الكل لا التحديد.. إضافة إلى استخدام حاسة التذوق والشم الإدراكيتين المركبتين في مفردة (طعم)، التي تمثل هنا تعبيرًا مجازيا تجعل للرائحة مذاقًا تشبعا والتباسا بالحالة!!.. انتهاءً بسيميائية الحرب من خلال الدال عليها في مفردة (البارود) كآلة تدميرية تأكل كل ما تلقى أو تصوَّب عليه، ليصنع العنوان في مجمله فضاءً مجازيًا محلقًا منذرا بالأهوال والفجائع، وكبلاغة اختزال وتحديد وإحالة.. ما يربط هذا العنوان الفاعل بهذه العلاقة الوثيقة بالمتن الغارق في دوَّامات الحرب وصراعاتها ماديًا ومعنويًا على حد السواء، وهذا المد والجزر في العلاقات الإنسانية التي تتراوح بين الحضور والغياب.. والوجود والانحسار؛ ليكون المفتتح السردي المشهدي الشاهد على وقائع مادية الأبعاد.. تنقل فضاء التوتر الانفعالي الشديد إلى أعتاب النص:

"في هذا الصباح شقَّ الصوت قلب الفضاء, طائرات عابرة إلى سمائنا, توجع الروح وتخيف القلب, ما أن يصرخ الصوت حتى ترنو العيون بحثا عنه, فلا أحد.. هو الصوت في لحظات زمنية فارقة تحط على قلوبنا وتسكن أرواحنا.. صار الشارع غريبا، والوجوه شاردة.. هل هي الحرب؟.. هل تعود إلينا ونعود نجمع الأشلاء ونترقب عودة من أتعبنا فراقهم, وحكايات غارقة في دمع مالح لا يبارح الصدور.."

ضغطًا على الحواس.. يوغل الصوت المنذر أو المُحدِق على حد السواء/ صوت الحرب، كمؤثر خارجي دال بولوجه في عمق الحالة النفسية المتردية التي تعاني منها الذات الساردة.. وتنتقل من ذاك الإحساس إلى السمات الفعلية لحالة الحرب التي تتناقل آثارها على أرض الواقع، الذي يفجر السؤال.. ويجعل الأسئلة تتدافع في اتجاه تلك الحالة المستمرة من الحرب/ الخراب الذي حل ويحل..

فهل هو سؤال الذات؟.. أم سؤال الوجود الذي يلوح منذ تلك البداية المقتحمة والموغلة في مناطق الشعور ووطأة الإحساس بالاستلاب والقهر التي تعاني منها الساردة، وتسقطها على المستوى العام

لواقع مجبول على الخوف وشعور الانهزام المرير، قرعا لجرس كبير قد يصم الآذان أو ينبهها على حد السواء.. ذك الذي يتماهى مع المفتتح، وما يفتح الباب على مصراعيه لهذا العصف الشعوري الذي يتكئ عليه النص الروائي من أوله لآخره مع كل الأطياف التي يواجهها خطر الحرب وصراعاتها وفعالياتها بأشكالها المتعددة، والتي تقع تحت نيرها لتصير كل المدن دون تحديد هي مدن بطعم البارود، أو بالأحرى بطعم الحرب..

رماد الذات

"كل ما حولي ينداح إلى رماد.. توارت الحقائق خلف اللا شيء.. ماتت الحكاية.. مات اللون... غابت اللوحة.. أستقبل يومي بوحشة الصمت, هل تغلق الدائرة وتحكم الغلق حيث بداية تصير إلى نهاية؟.. في طفولتي كنت أغرق في بحر الصمت, وها أنا ذا على حافة الأفول يكبر الصمت في قلبي وروحي, يطبق على مخارج الحروف, يصير صمتي بداية لنهايات تتجدد في قلبي مع طول كل نهار جديد..

يتقاطع رماد الذات لدى الساردة مع رماد الحرب ورماد الذاكرة، حيث يتداخل بوح الذات المقهورة المنحبسة على أطلال قضية حربها من أجل وطنها المغتصب.. التي ترتد معها إلى ذكريات طفولتها البعيدة وشبابها القريب وحاضرها الأكثر تشوشا، من خلال معايير جديدة وإحداثيات جديدة للوجود وآليات التعامل معه، لتمضي حكاياتها جنبا إلى جنب مع إيقاع الحرب، تزامنا مع أنات آخرين يشاركونها الحياة تستدعيهم الذاكرة المثقلة كي تعقد جدل العلاقة بين الموت والحياة، والغياب والحضور، لتتشكل تلك العلاقات من خلال المدن البعيدة التي ترتحل إليها الساردة من خلال وعيها، ومن خلال هذا الفضاء الجديد كي تسبر غور العلاقات المبهمة، وتعيد تشكيل الحكايات، ومحاولة بعثها من جديد كي تبعث النفس من حالة الموات التي تعتريها، والتي تسقطها أيضا على الحالة العامة التي تعاني ذات الأزمة..

هي إذن إشكالية ارتباط الذاتي بالجمعي، ذلك الذي يجعل من التواصل بين تلك الذوات التي تمثل كل منها جمعًا يمثل جزءًا من الجمع الأكبر لماهية وطن أكبر هو الحالة التي يبحث عنها النص كغاية من غاياته، وكتجسيد لعامل مفتقد من عوامل الوحدة، التي ربما تحولت من وحدة جمعية إلى وحدة نفسية تجتاح الذات المفردة وتدخلها في مواتها القسري..

"ومن المدن الغائبة حيث هناك، حيث أطراف الخليج.. يكتب لي قلب لم يلوثه دخان المدن: "صباحك من نور القرنفل وبهاء الأوركيد.. دمت عطرة كعادتك.. عطرة بالنور والدفء.." قلب

يراني من مدن المنافي البعيدة.. كدتني أنا المرأة الوردة.. المرأة العطرة بالنور والدفء.. قد أكون هي، وقد تكون أنا..“

يتقاطع هذا المد الإنساني، وهذه الشبكة العريضة من التفاعلات الإنسانية التي تنتج هذا العصف سواء من خلال الذاكرة والتاريخ والتراث، أو من خلال تلك الشبكة العنكبوتية التي جعلت من العالم كله رقعة صغيرة من اليابس، وأججت هذا التشظي والتفتت الذي يسم كل شئ بالعالم برغم اكتنازه بهذه السرعة التكنولوجية القاتلة التي جعلت من المستحيل متاحا وممكنا، ولكنها تنقل تلك التوترات المتصاعدة بحدتها الجنونية الغاشمة التي تعصف بالعقل كما تعصف بالثابت، والمتغير في هذا العالم على حد السواء..

لكن الذات تبرز هنا بحسها المتفاعل الذي يمد لها اليد كي تخرج من وحدتها النفسية لتتحول في فضاء الحالة إلى حالة مجازية هي حالة التماهي مع الوردة التي ربما استقت الرواية/ الذات الساردة اسمها من معناها المعنوي قبل اللفظي لتشيع في هذا الفضاء روحا من الملل بالتعانق مع الطبيعة التي تفرض طقوس حضورها برغم حضور كل مفردات الحرب:

““إلهام” صديقتي لها أمنية وحيدة أن نلتقي بعد أن ينفك عن مدينتها الحصار, وأنا ألتقي كل يوم وجوها تطالعني بابتسامة أعرفها.. أحبها.. ولن ولم ألتق بها, فهل لي معك يا ”إلهام“ لقاء جديد حين يغيب الحصار وتشرق شمس لا تشبهها أي شمس.. شمس الانتصار..

ذلك الذي يتقاطع معه وعي الساردة بتاريخها المرتبط بطفولة تشغل الحرب مساحاتها العريضة تلك التي تستدعيها من خلال علاقة حميمية نوستالجية إلى ذكرى الوالد المناضل القديم المرتبطة بذاك المد التفاعلي لفعل الثورة على الأوضاع المتردية التي يعيشها الوطن المغتصب.. تلك الطفولة الموشومة بأجواء الحرب وآمال الانتصار، وتلك الرائحة المستقرة في الذاكرة المتخمة بصور الحرب، وتداعياتها، وسمة التوارث الإنساني كملمح يطرح تأكيدا مجددا على الحرب ببشاعتها وحسها الملتصق بالذات من خلال الآخرين:

”أذكرك يا أبي في يوميات موجعة في انفجارات على الطرقات ورائحة البارود ورصاص البنادق, أكادني أندفع لأفتح ”الجارور“ وأخرج من قلبه ذات اللاصق لأفعل ما كنت تفعله من عقود بعيدة, عاد الوقت يا أبي يلاحقني, وكأنه إرث نحمله جيلا بعد جيل, تهشم زجاج وشريط لاصق وأغطية صوفية تلفها على فتحات الشبابيك.. إنها الحرب التي تلاحقنا, أنت وأنا وأبناء من بعدنا أجيال وأجيال أذكرك يا أبي كلما صار الوقت يتوارى خلف اللا وقت“

هنا تبرز الذات ما يؤرقها، وما يعمل على تحفيزها لفعل المقاومة أو المواجهة الإيجابية لهذا الواقع

الذي يفرض طقوسه دوما كي يعيد إنتاج فكرة الوجود تحت ظلال الحرب التي تشبعت بها مراحل الكفاح الفلسطيني في أجواء محاولة استعادة الكيان العام، الذي يعيد حتما للذات المفردة/ الساردة كيانها؛ درءا لهذا الهاجس الذي يجعل لا قيمة للوقت دلالة على استنزافه/ استنزاف الروح.. تلك الروح التي تسري في متن النص الروائي لتشيع فيه روح المقاومة ربما بإحداثيات وفعاليات جديدة، ومحاولات متكررة لحلم التغلب على هذه الحالة اللانهائية من الحرب والرماد والدخان والبارود:

""حين تخون الوطن لن تجد ترابا يحن عليك.. يوم موتك ستشعر بالبرد حتى وأنت ميت.." هكذا كتب "غسان كنفاني"، وأنا أكتب: كف الصغير تقبض على الألوان, ينثرها في وجه الريح, تحلِّق في فضاء الحكاية, يرسم منها ملامح وجهه, وضحكة بريئة تزيل رماد الأرض, تطهرها من دخان بطعم البارود, يرسم ويفتش عن ما تبقى من أصحاب, قد يهزم بألوانه هدير الشر القادم نحوه.."

هكذا تتجسد دائما تلك الرغبة في التبرعم من جديد من خلال رمز الطفل الصغير الذي يقبض على الألوان، كحالة مناقضة لحالة الدخان والبارود ورائحته التي تشحن الأجواء النفسية إمعانا في استيهام الحالة الروائية، ووضعها دائما على محك العلاقة الإنسانية المترعة بالشجن.. ما يعكس الرغبة في التغيير والخروج من هذه الكبوة التي طالت حقبتها الزمنية، ويجعل هناك دائما على مرمى البصر أملا يولد يتمسك بزهوة الألوان وقدرتها على إحداث البهجة، وإزاحة الشر الذي أدخلته الساردة في حيز التعبير المجازي بالصوت/ الهدير.. لتتناغم الحالة الوجدانية السابحة مع مكونات الصوت واللون والرائحة التي تتداخل دوما كي تصنع مزيجا من التشكيل البلاغي واللغوي والبصري الذي يجعل بعض مناطق السرد تحتمي بالحلم وتلتحف به تأكيدا على تيمة الأمل في جمالية من جماليات التقابل التي تلعب عليها الذات في إيقاع سردها الذي يتناغم مع إيقاع الحرب صعودا وهبوطا، ولوجا وخروجا في أجوائها المشبعة برائحة البارود..

تقاطع المرويات مع البوح الذاتي

هي الحالة من التلبس التي تجعل الذات الساردة دوما في حالة تأهب ويقظة لالتقاط الإشارات الوامضة التي تأتيها تؤجج بها سعير حربها مع الحرب ذاتها، وهذا التوجه نحو اجترار آلام الآخرين الذين يجتمعون على ذات الألم، من خلال حكاياتهم الصاخبة/ سرودهم القائمة على أثر الحرب، والمتقاطعة بين الإخبار والنقل والتذكر في موجات متلاحقة لا تتوقف، وتشعل في الوقت ذاته رغبة في مداعبة الوقت، أو أخرى في مروره واستبقاء اللحظة النادرة، أو أخرى في إيقافه حتى يتوقف نزيف الذات/ الآخرين وهذا التوالي من حالات الاستشهاد والفقد التي تأتي في أعقاب الحرب

"تمضي قافلة الشهداء.. يلحقون بموكب الشمس.. من نور أرواحهم تتجدد فينا روح الحياة، وأنت يا "ميرابو"، وقد أخذك الغياب وأهدانا أيقونة من روحك.. أهل وأحبة على حافة الانتظار في قريتك الغافية على كتف الجبل "العنازة بانياس" نبع البطولة والتضحيات.. نرسم حروف اسمك على صفحات التاريخ, تصلنا ترنيمة من صوتك مرثية فقد أبدية.. ما أجملك يا وطناً ضم تراب "ميرابو"

من عمق الموت تتجدد الحياة.. ربما ساقت الذات الساردة حكمتها من هذا الأمل المترع به القلب، الغاص في ألم شديد على الراحلين الذين يروون بدمائهم كل أجزاء الأرض في محاولات للحفاظ عليها أو استعادتها، في معزوفة طويلة الأمد يلعب عليها الوعي الجمعي ليبدو أثرها في ترنيمات تلك الذات التي لا تكاد تعانق غفوتها حتى تصحو على صوت انفجار جديد ورائحة بارود ودخان يكتم الصدور، ما يجعل هذه الحالة الوجدانية للفقد هي حالة أبدية في وطن يزهو باحتضان رماد ورفات أبنائه، في علاقة جدلية بالغة التعقيد ربما أثارها النص الروائي من خلال ساردته ضمنيا، بالإشارة والتلميح.. ومن خلال حكايات الأبطال، وحكايات الأمهات الثكالى عنهم، والتي ربما اكتمل بها مشهد ما في تفصيلة جديدة من تفصيلات الوجع العربي:

هو ذاته شدو العصافير.. هي ذاتها ترنيمة عشق الوطن.. هي ذاتها وجوه الأمهات "أم الشهداء"، قرية "جبلة"، قرية "أم الحويث"، وسميت بهذا الاسم لكثرة ما قدمت، تروي قصص أبطالها والتي زفتهم بيدها.. حدثني ابني "فاطر": "كنا اثني عشر, كان هناك قناص يتربصنا, أصيبت يدي, لم أشعر بإصابتي, عبرت بيدي المصابة ودمائي نازفة لأنقذ رفاقي, أطلقوا علينا الغاز الكيميائي, وكل هذا لم يوقفنا عن مهمتنا المقدسة.."

تلك الحكايات التي تأتي على هذه الخلفية الشعورية الإنسانية المغرقة في واقعها المظلم ونفسيتها المتأثرة إلى حد كبير بتلك الأجواء من الحرب التي برعت الذات الساردة إلى حد كبير في تجسيدها من خلال الحواس، وبإطلاق رائحة البارود في كل اتجاه من اتجاهات الواقع التي يستلهمها النص ويلعب عليها، بالتوازي مع تلك النماذج الإنسانية التي تقف في المقاومة وفي الدفاع عن مقدرات أرضها ووطنها، موقف السنديانات الصامدة في وجه القمع والحرق والاجتثاث من على سطح الحياة.. تلك النماذج التي تجمعها الذات الساردة في وعيها الحاد:

"سلمى ديبو" كلما مرت من "عرسال" تقطع المسافات إلى "بيروت" حاملة باقة زهورها لتستنيم على قبر "غسان" في مقبرة الشهداء, تشد وردة لا تزال على عطرها تسكنها وحيدة على قبر "ماجد".. "سلمى" لا تضع صورتها على صفحة التواصل, بل هي صورة "غسان" وما تبقى من لفافة دخانه، وما تبقى لرجال لنا مازالوا تحت الشمس..

تقفز حالات الفقد دائما لتوشح الحكايات بهذا الإرث القديم للوجع ذاك الذي يفرض تقاسيم اللحن الشجي.. يعود دائما إلى ملحمية القضية الفلسطينية، أو البداية الدامية للوجع العربي على مشارف سياسة جديدة للعالم يتهجى به عنصريته البغيضة التي تخلصت أول ما تخلصت من تلك الرموز الإبداعية والإنسانية والسياسية التي تمثلها شخصيات مثل: "غسان كنفاني"، و"ماجد أبو شرار"، وتلك القصص الموجعة للوفاء التي تتقاطع بحكيها والحكي عنها دوما الذات الساردة لتذكر بتفاصيل الوجع التاريخي العظيم/ المرجعي، رمزا قائما للرجولة ورموزها التي لا تتخلف عن موقعها تحت الشمس، إحالة إلى عمل روائي خالد هو "رجال تحت الشمس" لغسان كنفاني يجسد أبعاد القضية إلى حد بعيد..

تعود الحكاية تكتب نفسها، وتعود الحروف تتشابك, تتعانق, لتعلن عن نزف أصاب جسد الحكاية: المنافي خلقت لنا. نحمل صليب الغفران لغيرنا, نحمل عنهم بلاء الحياة, النفي حياة في عمقها روح النور وروح ألم حنون. حيوات لنا صمدت بما تحمله من حزن أمام صلف الآخرين وبطش المدن ووطأة أحذية من راهنوا على إعدامنا بدم بارد وبطء القرون الطويلة"

يأتي فعل الانكتاب ليصيغ حقيقة لهذا الوجود العفوي القسري الذي يجعل المنافي معادلا لمعنى الوطن الذي صار اكتنازه وانحباسه براحا مترامي الأبعاد، لكنه لا يفي بالمعنى الحقيقي للوطن، بالرغم من تلك العلاقة الروحانية التي تشيعها الذات الساردة ربما استيعاضا واستيهاماً من سردها لروح الوطن الذي بكتسب معنى جديدا كل يوم بحسب ما اقتضت به الحاجة، نزوعا إلى أنها روح ألم، وإعدام متكرر كل يوم

في كل صبح خجول يطل على زجاج نافذتي أزيح ما ثقل على جسدي من غطاء الليل, أرنو لساعة الوقت, ألف يدي لنصف ظهري, أبحث عن خصلات شعري التي غفت عن الوقت واستنامت في سلامها الممتد, خصلات تطول مع كل شروق شمس نهار جديد, أتحسس نعومتها وأستأنس لطولها الممتد حتى نصف خاصرتي, خصلات تطول وتطول هل تعيدني لأطراف مدن غابت؟..

غالبا ما تكون العودة إلى أعطاف الذات والتقوقع عليها استراحة قصيرة جدا من وعثاء سفر دائم على أعتاب المدن المنفية برموزها الإنسانية التي تعاقر صحوها وهمومها وانزياحها إلى الهم، حتى وهي في أوج غفوتها القسرية، لتضع الذات سياجا مؤقتا تتنفس فيه صورتها، لتعود دوما إلى تلك الحالة من النوستالجيا إلى تلك المنافي البعيدة المتناثرة التي قد تجد فيها ضالتها حتى ولو عبر أثير هاتف أو شاشة حاسوب أو إطلالات عابرة لأرواح تتشابه وتتراسل بخطابات لا نهاية لها.. بآلية من آليات التعامل مع مدن الغياب.. هي الحالة التي لا توقفها هذه الانكسارات والهزائم المتوالية التي تظلل هذا الوجود، ما يحفز السؤال دائما، دالا بعمق على مأساة الغياب وتوغل ذاك الحس بالانكسار واليأس من خلال

التعبير الساخر ضمنيا عن استحالة أن تقوم تلك الخصلات/ الذاتية الطويلة بوصل ما انقطع.. ما فائدة الخصلات إذن؟.. ربما كان هو سؤال الذات في تلك اللحظة الآنية سؤالا ممهورا بالشك مجبولا عليه، متحيرا من كل الأمور التي تتصاعد وتتكاتل على الوعي الذي لا يفيق أبدا من توالى صدماته وانكساراته على المستويين الذاتي اللصيق، والجمعي الموجودة الذات من خلاله..

قطع الموزاييك

تطمح الذات الساردة عن غيرها في متن الرواية لجذب كل الحكايات التي تتجاوزكونها كحكايات مروية، لتكون كقطع الموزاييك الملتصقة، ومحاولة تضفير وجودها كجدارية متسعة الأطراف تمارس معها لعبة التركيب من خلال التجاور والتباعد مع التعاشق، في محاولة للم شمل الوجع عبر هذه الجدارية الممتدة. من خلال مقاطع يبدو منها زخم العلاقة بين تلك الرموز وذاك الوطن.. وهو ما تجد فيه الذات ضالتها، من خلال الحفر والتنقيب في تاريخ الحضارات التي ربما جلبت هذه الهجمات الحمقاء الفوضوية لتقويض دعائم جديرة بالحضور، بالرغم من محاولات الطمس والتغييب التي تترى عليها كجزء من جزء من كل يراد تفتيته:

"خالد الأسعد" عاشق لزنوبيا، عاشق للحضارات، لم يغادر مملكتها وظلالاً تحفظ تاريخ معشوقته الأبدية.. غدرهم ورايات من الأسود وظلام ليلهم صارت بعتبة داره, يقتادونه, يعذبونه, غابت عنه الروح العاشقة المتقدة بالنور والحب, رفض أن يدلهم على سر الحياة لحضارة ممتدة من قبل التاريخ, فكان ذبحه وتعليق جسده على أعمدة تدمر ليلتحق بصانعي الحضارة ومجد الإنسانية.. هكذا تكتمل مسيرة زنوبيا في آخر رجل يلحق بركبها في مجد وشموخ وإباء.."

تنزع الحكايات دوما إلى إلباسها ذاك الثوب المخملي الفضفاض، برغم مأسويتها المرتبطة بتاريخ مأساوي، حامل على الغضب والغل والحقد تجاه كل الممارسات الهمجية المناقضة لكل سمات الإنسانية وعشق الوطن من خلال موروثاته وحضارته وكنوزه العصية على التبديد، ليكتمل دوما التاريخ الأسطوري للحالة الخارجة من رحم عظمتها وأسطوريتها، ودال على أن التاريخ لا يمحى، وأن الحضارات لا تزول حتى لو زالت آثارها العينية، طالما أن هناك امتداد للبذل والعطاء.. وهو الذي يمتد في جداريات تسكن إيقاع السرد هنا لتميط اللثام عن إيقاع الحرب التي توغر الصدور وتبث الشكوى.. تؤكد على وحدة المصير، وتمتح من هذا الفيض الوجداني الذي تجابه به الذوات الأخرى هذه الحالة من المد الهمجي المنهج التي تجتاح الجسد الكبير وتعمل على تدميره، كآلية وجود باطشة تفرض هيمنتها على الوجود الإ"نساني في تلك المنطقة المشتعلة بالبغض والخلافات المذهبية والعنصرية.

"الغربي عمران" يطيِّر كلماته: "متى يرتوون من دمائنا؟!.." "تعز" تحت النار.. من لا يحب "تعز"؟!.. "تعز" أعطتكم الحياة, فتعطونها الموت, أعطتكم سلاما ومحبة, فتبادلونها هذا الحب بالقصف والتدمير.."

هي إشارة دالة على عمق المأساة.. يعمقها السؤال المرير المستنكر الساخر إلى حد بعيد.. ذلك الذي يتناقل السرد أبعاده من خلال القفز على الأحداث وجلبها كي تشكل هذا الوجود العنقودي لهذه الرغبة المدمرة والممتدة في الكيان بفعاليات وجود متجددة فيما بين الشمال في سوريا، والجنوب في اليمن وما بينهما من صراعات مريرة ومحاولات شتى لإشعال فتيل الحرب ولإطلاق رائحة البارود البغيضة

عاصفة الجنوب في "درعا" حوَّلها الجيش إلى رماد، ومنها سيحقق انتصاراته من "إدلب" حتى "الزبداني".. قريبًا سنضيء مصابيح المدن حتى وإن صارت بطعم البارود..

بحيث تبقى الرغبة دائما في تحويل كل العوائق والمدمرات إلى رماد، كي يتلاشى أثر الحرب وتقوم محلها قائمة العمران والتفتح من جديد.. يحمل به السرد لواء مجابهة الواقع الصعب بالأمل المراوغ الذي قد تضاء له مصابيح المدن مرة أخرى في حالة عارمة من التفاؤل، وإن طال أمد الاحتفاظ بطعم ورائحة البارود، بمختلف الفضاءات التي توالت عليها فعاليات الحرب، وتلك الرائحة.. ربما تأكيدا من تلك الذات الساردة على اعتياد الوجع ومتلازماته وآثاره، وتحديا لكل عوامل الانتكاس والارتداد إلى الخلف..

بتلك الرؤية التي تجمع بين الإنسانية البائسة وآليات وجودها من خلال الأيديولوجيا الحاكمة المهيمنة، والتي تفرض سطوتها على كل نقطة من نقاط النص كعنصر من عناصر الإيهام فيه، كما تفرض سطوتها على الواقع الحقيقي المعيش، الذي يعتمد له النص هنا الواقع الافتراضي من خلال عملية التواصل من خلال شبكات التواصل الاجتماعي التي أصبحت بديلا للتواصل الإنساني الحقيقي الحميم، ويتكئ عليه لإبراز كل نقاط التحول والقوة والضعف في نسيج هذه الرقعة من الأرض والتي تمتد من الخليج شرقا إلى المحيط غربا، وهذا التشرذم والتفتت الذي يسم كل شئ بها، ومحاولات التمسك بالأمل في رأب الصدع ولم الشمل في مواجهة تلك الآلة الأيديولوجية الغاشمة، مع تلك الروح للذات الساردة المغرقة في الرومانسية التي ربما كانت سلاحا وحيدا تقاوم به بطلة النص "وردة" هذا الواقع المتفسخ على المستويين: الخاص بحياتها وصراعاتها النفسية مع الواقع، والعام في دفاعها عن قضية الأرض والهوية المغتصبين.. فهل تكون الاستجابة للعودة إلى الواقع/ الأرض والالتحام به هي رهان النص الروائي، وسؤاله الأهم الذي يواجه به كل تلك المجابهات والمواجهات القمعية في ظل هذه المعيارية الجديدة للوجود؟!

«انتفاضة الحجارة» في السينما الفلسطينية .. استعادة مميزة حديثاً ولا أفلام روائية

يوسف الشايب

قبل العام ٢٠١٤ كان يمكن القول بأن ثمة نوع من الإهمال على مستوى السينما الفلسطينية التي باتت عالمية، وإن بجهود فردية، لتوثيق حقبة غنية وثرية من تاريخ الشعب الذي لا يزال يناضل من أجل تحرره، ألا وهي سنوات «انتفاضة الحجارة»، أو «الانتفاضة الأولى» التي اندلعت في العام ١٩٨٧.

في العام ٢٠١٤، أطلق المخرج الفلسطيني الشاب عامر شوملي أول أفلامه «المطلوبون الـ١٨»، بمشاركة المخرج الكندي بول كاون، معيداً الاعتبار لاستخدام الرسوم المتحركة، وما يعرف بتقنية الـ«ستوب موشين»، إضافة إلى تقنيات الفيلم التسجيلي التقليدية إلى حكاية مثيرة، يكاد كل من يسمعها لا يصدقها، وتعود إلى سنيّ الانتفاضة الأولى، حين قرر قائد في جيش الاحتلال مطاردة ١٨ بقرة في بيت ساحور، والقبض عليها حيّة أو ميتة، لكونها تشكل خطراً على أمن إسرائيل!

الحكاية في أساسها تعود إلى فكرة لبعض أهالي بيت ساحور بمعاقبة الاحتلال على جرائمه اليومية بحق أبناء الشعب الفلسطيني في الانتفاضة الأولى، عبر بوابة الاقتصاد، وبالتحديد بمقاطعة منتجات شركة «تنوفا» الإسرائيلية الشهيرة من الحليب ومشتقاته، باقتناء ١٨ بقرة من إحدى المستوطنات، عبر وسيط إسرائيلي يساري، باتت مع الوقت تحقق اكتفاء ذاتياً بإنتاجها «حليب الانتفاضة»، ما سبب خسائر كبيرة للشركة الإسرائيلية، عبر مزرعة أبقار باتت فلسطينية، تنتج الحليب ومشتقاته.

بعد أيام قليلة من بدء إنتاج الحليب، هاجمت قوات من جيش الاحتلال مزرعة الأبقار واعتقلت ناشطين، وعممت أمراً بإغلاق المزرعة.. حينها قرر سكان المنطقة إخراج الأبقار من المزرعة

وإخفاءها في بيوتهم بعيداً عن أعين جيش الاحتلال، ليبدأ هذا الجيش فيما بعد بحملة تفتيش واسعة استمرت أربع سنوات، طارد خلالها ١٨ بقرة بهدف اغتيالها، وهي البقرات التي استطاع شوملي بعبقرية أنسنتها بتحويلها إلى شخصيات كارتونية لكل منها صفاتها، فهناك الحكيمة، وهناك المؤمنة بالسلام، والمعادية للفلسطينيين، والمتكبرة المتعجرفة، ليقدم في مشاهد موازية للحكاية الحقيقية، رصداً متخيلاً لما في دواخل البقرات، والتحولات التي طرأت على «شخصياتهن» بتحولهن إلى بقرات «فلسطينيات مناضلات مطلوبات لجيش الاحتلال».

خمس سنوات حتى تمكن شوملي من إنجاز فيلمه، وخمسة وعشرين عاماً انتظرت هذه الحكاية التي تبدو خيالية لتروى، وتصل إلى العالم، وهي واحدة من حكايات كثيرة قد يكون بعضها أشد غرابة في سنيّ الانتفاضة الأولى، وقبلها، وبعدها، فالضابط في جيش الاحتلال يعترف مؤكداً جدية القرار المثير للجدل، ومعمقاً حالة السخرية التي يمكن أن توحي بسذاجة الاحتلال، أو عنصريته المبالغ فيها، في ذات الوقت، حين يقول هذا الضابط الاحتلالي إن «البقرات تشكل خطراً على أمن إسرائيل»!

وعامر شوملي فنان فلسطيني من موالد الكويت العام ١٩٨١، وهو مقيم في رام الله، درس هندسة العمارة وحصل لاحقاً على شهادة ماجستير في الفنون الجميلة، تخصص رسوم متحركة من بريطانيا، وسبق له أن استخدم الرسوم المتحركة والكاريكاتير بالإضافة إلى الملصقات للتفاعل مع المحيط السياسي والاجتماعي الفلسطيني اليومي.. له كتاب منشورات وقصص أطفال بطريقة الـ«كومكس»، أي القصة المصورة، كما أسس لبرنامج دبلوم الرسوم المتحركة في جامعة بيرزيت، وكان أحد مؤسسي «زان ستوديو» في رام الله.

خلال سنوات المطاردة، وتهريب البقرات من منزل إلى آخر، إلى مخزن، إلى صالة، وغيرها من الجغرافيات، تنقل بقية البقرات اللواتي لا يزلن على قيد الحياة عبر شاحنة للذبح بعد إلقاء القبض عليها، إلا أن إحداهن تدفع بابنتها الفلسطينية الخالصة إلى خارج الشاحنة، لتهرول ثم تعدو بعيداً عن موتها المحقق، وكأنها ترمز لشعب بأكمله يرفض الاستسلام للمحتل، ما دفع أهالي المنطقة لنسج روايات عدة حول البقرة الناجية، منها أنها استقرت في جبال ليست بعيدة عن بيت ساحور، وأنها بيضاء، وفي هذا رمزيات عدة ليس الاستسلام بطبيعة الحال من بينها، وهنا تعود كاميرا شوملي وشريكه الكندي إلى حيث جبال بيت ساحور لهاثاً وراء البقرة الأمل، التي لا يعرف ما إذا كانت هي مصدر الصوت في كهف بأحد الجبال، كما أكد شاب في المنطقة، أم لا، تاركاً العنان للمخيلة، أو القدر، وكأنه المستقبل المجهول للفلسطيني القوي القادر على تحدي الصعاب، مستلهماً على مدار خمس وسبعين دقيقة روح «انتفاضة الحجارة»، تلك الروح التي لربما لن تتكرر.

وأسس المخرج الفلسطيني الشاب لما يمكن وصفه سينمائياً بـ»الديكو أنيميشن»، أو «الوثائقي المتحرك»، إن جاز التعبير، فغالبية الأفلام التي تستعين بالرسوم المتحركة وإن كانت وثائقية، تكون متحركة بالكامل، وإن كان هذا لا يعني أن تكون هناك تجارب تمزج ما بين الرسوم المتحركة والوثائقي، كما فعل شوملي في «المطلوبون الـ١٨»، دون صراخ، أو شعاراتية مجانية، وبأسلوب جاذب جعله يحصد عن استحقاق العديد من الجوائز العالمية.

الأفلام الأولى

وبالعودة إلى الأفلام الأولى حول الانتفاضة، وكانت بسيطة تسجيلية أقرب إلى تقارير تلفزيونية مطولة، على اختلاف مستوياتها فنياً، يمكن القول، وفق العديد من المراجع، أن فيلم «انتفاضة الحجارة» في العام ١٩٨٨ للثنائي جورج خليفي وزياد الفاهوم فيلم أطفال الحجارة، أول فيلم فلسطيني يتناول انتفاضة العام ١٩٨٧، من خلال رصد مجموعة من الأطفال الفلسطينيين تحت وطأة الاحتلال والظروف الخاصة في الانتفاضة، كما ظهر في العام ذاته فيلم لمحمد سوالمة بعنوان «الانتفاضة»، يرصد فيه تأثيرات أحداثها على الناس.

في فيلم "أطفال الحجارة"، يتتبع جورج خليفي مع زياد الفاهوم المخرج المشارك معه، مجموعة من أطفال مخيم الشاطئ في قطاع غزة، ليرصد معاني الانتفاضة بالنسبة للأطفال الفلسطينيين، حيث الفرح بالانطلاق، والمواجهة، والقدرة على الوقوف أمام جنود الاحتلال المدججين بالسلاح.

في ذات الوقت تبرز الصور التي تترسخ في ذاكرة الطفل الفلسطيني، كمشاهد العنف والقمع، وجنازات الشهداء اليومية وتعرض الآباء للاعتقالات، والأطفال أنفسهم للضرب، فمحور الفيلم الطفل في خضم الانتفاضة، هذا الطفل الذي لا ينسى أن يتأمل في أحلامه وأمانيه وواقعه، مصطدماً بالاحتلال وممارساته البشعة، كما في المستقبل وأسئلته.

وفي العام ١٩٨٨ أيضاً، قدم ناظم الشريدي (مسلسل صيف فلسطيني حار) وذلك لمجموعة سينما الحقيقة، بالتعاون مع التلفزيون التشيكوسلوفاكي، ويتألف هذا العمل من ثلاثة أفلام تسجيلية وثائقية طويلة أولها عن الانتفاضة بعنوان "غيتو الدهيشة"، ومدته (٥٧) دقيقة، يرصد فيه واقع مخيم الدهيشة الذي حوله الاحتلال إلى معتقل كبير محاط بالأسلاك الشائكة، حيث تتجول الكاميرا في المخيم لتسجل يومياته وصمود سكانه، فضلاً عن معاناتهم مع عصابات المستوطنين وجنود الاحتلال، علماً أن مخيم الدهيشة كان أحد أهم معاقل الانتفاضة.

نشيد الحجر

وقدم المخرج ميشيل خليفي، بعد ذلك، فيلمه "نشيد الحجر" في العام ١٩٩٠، وفيه تم تناول الواقع الفلسطيني على نحو يمازج بين الروائية والتسجيلية، خلال الانتفاضة التي اشتعلت العام ١٩٨٧، واستمرت سنوات عديدة.

ورصد خليفي، في هذا الفيلم روائياً، امرأة فلسطينية وعلاقتها بحبيبها الذي دخل السجن لأسباب نضالية، لانتظامه في صفوف الثورة، ومن ثم خروجه من السجن مشروخ الأحلام والطموحات، ليكشف من خلال هذين النموذجين أي المرأة وحبيبها، جيلاً محدداً من أجيال الشعب الفلسطيني بموازاة الجيل الجديد الذي يشكّل وقود الانتفاضة (أطفال الحجارة)، والذي يبرز في الفيلم تسجيلياً فيوضح منطقه المختلف وطموحاته المتصاعدة.

تبدأ القصة في فيلم "نشيد الحجر" عملياً عند أوائل السبعينات من القرن الماضي، حول قصة حب بين رجل وامرأة في سن النضج، وتدوم قصة الحب أياماً معدودات لتنتهي باعتقال الرجل بسبب "نشاطه المعادي للاحتلال"، وجملة نشاطه المعادي إنما تعني في الواقع ثورية هذا الرجل.

يدخل الرجل السجن، فتهاجر المرأة إلى الولايات المتحدة الأميركية، لكن الانتفاضة التي اشتعلت في الوطن المحتل، فيما بعد تجدد ذلك الحب بعد انقضاء ١٨ عاماً، حيث تعود المرأة إلى القدس لتجري بحثاً حول مفهوم التضحية في المجتمع الفلسطيني، فتلتقي حبيبها الذي خرج من السجن بعد أن أمضى فيه ١٥ عاماً، إثر عملية تبادل أسرى حصلت في العام ١٩٨٥، وهو بعد إطلاق سراحه يعمل في إحدى مؤسسات الإغاثة الزراعية.

الحب يتجدد في الفيلم مرة أخرى على خلفية الواقع الجديد الذي مثلته الانتفاضة .. في الفيلم نجد أنفسنا امام جيلين فلسطينيين: الجيل الأول محبط منكسر مهادن، والجيل الثاني ناهض رافض للانكسار، يقاوم حتى بالحجر، لنستمر بملاحظة هذه الخصوصية التي يشكلها السينمائي ميشيل خليفي، على الأقل، بأفكار جريئة.

ورأى بعض النقاد أن ما هو تسجيلي في الفيلم أكثر تعبيراً، وربما عفوية، مما هو روائي، فجاءت المشاهد التسجيلية كوثيقة وشاهد، على الفعاليات اليومية للانتفاضة المجيدة.

وفي حوار حديث معه، شدد خليفي على ان السينما الفلسطينية، ومنذ ثمانينات القرن الماضي، ابتعدت إلى حد كبير عن النمطية والتنميط، وانتصرت لصورة الفلسطيني الإنسان، مشيراً إلى أن السينما الفلسطينية في ستينات القرن الماضي وحتى نهاية سبعيناته كانت سينما نضالية، ومرتبطة إلى حد كبيرة بالحركات والمنظمات السياسية كحركة فتح، والجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية

بالدرجة الأولى، وحاولت أن توثق العمل النضالي الفلسطيني ما قبل انتشار التلفزيون، وأعتقد أن انتشار التلفزيون، وطواقم التلفزيونات العالمية، وما ملكته من إمكانيات، وقدرتها على التصوير في فلسطين، ونقل الواقع الفلسطيني، عوامل كلها ساهمت، إلى جانب التحولات السياسية، في تلاشي حقبة السينما النضالية بالتدريج.

أطفال جبل النار

وفي ذات العام تقدم المخرجة مي المصري فيلمها "أطفال جبل النار"، وهو الفيلم الذي يحكي تجربة اطفال الانتفاضة الاولى، حيث يصور الفيلم حكاياتهم، وأحلامهم، ومعاناتهم، وتطلعاتهم، وبيئتهم وتجاربهم في الحياة وأملهم في مستقبل أفضل.

وقالت مي المصري: أطفال جبل النار صُوّر خلال الانتفاضة الأولى، وتزامن مع عودتي إلى فلسطين .. كانت هذه العودة الأولى بعد خروجي من فلسطين، وكنت أشعر برهبة كبيرة كونها المرة الأولى التي أدخل فيها فلسطين بعدما كبرت .. لم يكن هناك سيناريو معداً سلفاً، فقط أفكار لم أتمكن من تحقيقها بادئ الأمر، ولذلك عمدت إلى اعتماد فكرة أن تكون ظروف التصوير هي القصة في النهاية، بمعنى أن الفيلم يأخذ شكل التجربة نفسها، لأن الأفكار كانت تتغير كل يوم.

وأضافت: عندما صوّرت القدس وصورت مدناً مثل يافا وعكا وحيفا شعرت لأول مرة إن هذه المدن باتت تخصني، وأنني حققت العودة من خلال الصورة .. كنت قد ضيعت هذه الجغرافيا الفلسطينية، واستعدت هذا الجزء الفلسطيني مني بتصويره .. نابلس هي مدينتي التي تعرف باسم جبل النار، وأطفالها هم عنوان الفيلم .. هي عنوان طفولتي، وتعنيني كثيراً كما مخيم شاتيلا التي اكتشفت من خلاله فلسطين في لبنان.. صورت أكثر من فيلم عن الأطفال الفلسطينيين، ومنهم هذا الفيلم عن أطفال الحجارة .. هم يتميزون بعفوية وصدق لا يضاهيان، يفرحون ويحزنون في ذات الوقت، ويبحثون عما يشغلهم من أحلام رغم الحرمان، ورغم الاحتلال.

وفي العام ١٩٩١، أنجز المخرج زياد درويش فيلمه «انتفاضة شعب»، كوثيقة بصرية على أحداث الانتفاضة الأولى، محاولاً تبيان كيف بدأت، وما هي أسبابها، وما هي القطاعات الفلسطينية التي شاركت فيها، فضلاً عن حوارات مع قيادات فلسطينية، من داخل الأراضي المحتلة وخارجها، حيث تم بناء الفيلم بالاستناد إلى صور التقطت بشكل مباشر من أرض الواقع، كذلك اعتماداً على مشاهد من أرشيف الوكالات العالمية.

حتى إشعار آخر

واعتبر الناقد السينمائي المصري الراحل حديثاً سمير فريد، فيلم «حتى إشعار آخر» لرشيد مشهراوي (١٩٩٤)، أول فيلم فلسطيني، لأنه أنتج في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وبواسطة طاقم فلسطيني.

ويتحدث فيلم «حتى إشعار آخر»، الذي أُنتج بداية تحت عنوان «منع تجول»، عن ممارسات الاحتلال، وبالتحديد سياسة فرض منع تجوّل، أو حظر تجوّل على الفلسطينيين، بحيث يمنعون من ممارسة شؤون حياتهم اليومية بشكل اعتيادي «حتى إشعار آخر».. وهي جملة متكرِرة يعرفها الفلسطينيون، ولا يزالون، إذ لطالما انهالت عليهم من مكبرات الصوت، بألفاظ عربية «متكسرة»، أو سليمة أحياناً، معلنة بداية فصل من المعاناة، لا يدرك أحد منهم متى ينتهي.

وتدور أحداث الفيلم في مدينة غزة، وبالتحديد في أحد مخيماتها، مطلع التسعينات، وتحديداً العام ١٩٩٣، أي خلال الفصول الأخيرة من عمر الانتفاضة الأولى، أو انتفاضة الحجارة، على اختلاف التسميات، والتي انطلقت العام ١٩٨٧.

وفي الفيلم يتمحور الحديث بالصوت والصورة حول أسرة أبو راجي، وهو حلاق فلسطيني شبه مقعد، إذ يعاني من آلام عاتية في الظهر، أدّت إلى عطب أصاب عموده الفقري (ديسك)، ولهذا فهو يمضي طيلة الفيلم تقريباً بلباس النوم (البيجاما)، بحركته المحدودة المتوجِّعة، ويعيش في أحد مخيمات غزة مع عائلته المكوَّنة منه وزوجته وخمسة أبناء أبرزهم، في الفيلم، هو الفتى الصغير المسمى «رادار»، والذي يمارس حقيقة دور «الرادار»، فهو من يراقب جنود الاحتلال، وينقل الرسائل للفدائيين وأهل المخيم، ويتسلق الجدران، ويعتلي الأسطح، وهو أيضاً الذي يعرف أنواع الطلقات من صوتها، وينفذ المهمات السرية، فضلاً عن محاولاته قراءة رسائل أخيه للأسرة، مرّة تلو الأخرى.

في بداية الفيلم يتسلَّم الفتى «رادار» رسالة قادمة من أخيه الغائب في ألمانيا لداعي الدراسة .. هذه الرسالة ستتحوّل في الفيلم إلى رمز التواصل، سواء مع الغائب، أو مع عالم الحرية، التي يتنعّم بها بعيداً عن وطأة المحتل الإسرائيلي، وكأنها نافذة لعالم الخلاص من هذا المحتل، والشروع ببناء المستقبل الباهر، المستند على التحصيل العلمي.

والفيلم يرسم عمق التلاحم بين أهالي المخيم، في صورة تواصل وتشارك فريدة، أسست لتلك القدرة الهائلة التي امتلكها الفلسطينيون على الثبات والصمود، ما أعجز القوة العاتية وكسر عنجهية جيش الاحتلال، ويظهر السرّ العميق في تلك القوة التي يمتلكها المخيم الفلسطيني في وجه الاحتلال.

ويذهب الفيلم نحو غايات مضمونية عليا، حيث استطاع المخرج بذكاء وتحركات فنية لافتة،

بالنظر إلى ظروف الفيلم وشروطه، أن يجعل فيلمه هذا معبِّراً عن القضية الفلسطينية، والإنسان الفلسطيني، ومدى بشاعة الاحتلال، دون اللجوء أبداً إلى المباشرة في الخطاب، أو الشعارات في التناول، بل عبر دفق التفاصيل الصغيرة والمعبِّرة، والشخصيات في إطارها الحياتي اليومي.

ونجح في تقديم فيلم ذكي مبدع، من خلال استخدامه الكثير من الوسائل والأساليب الفنية المعبرة والدالة، سواء بالموسيقى المرافقة، وأغاني فرقة صابرين بصوت الفنانة الفلسطينية المتميزة كاميليا جبران، أو عبر توظيف الإضاءة بشكل لافت بنجاحه ودلالاته، أو من خلال تتالي الأحداث والتحولات الدرامية، أو تناوب الشخصيات، كل بدورها، على أخذ مكان الصدارة في أحداث الفيلم، أو عبر الدوران في زوايا المكان، وتفصيلاته، من الباحة الخارجية (الحوش) إلى غرفة راجي وزوجته، وغرفة أكرم و»الرادار»، إلى غرفة الصبية سلمى، والإطلالة عبر طاقة المطبخ، أو تسلق الجدار، لنطلّ على الحارة، أو بيت الجيران.

وهنا ننقل رأي الناقد بشار إبراهيم في الفيلم، كما هو، حيث قال «رغم أن الفيلم يدور في مكان ضيق ومحدود، وأن مدته لا تتجاوز (٧١ دقيقة) إلاّ أنه وبلغة سينمائية رفيعة، وتكثيف عالٍ، واقتراحات ذكية، استطاع المخرج مشهراوي فتح بيت أبو راجي، ليطلَّ على المخيم، وليفضح ممارسات جيش الاحتلال، سواء عبر النافذة المفتوحة على نافذة صديقة طفولة رادار، أو الطاقة المفتوحة على بيت الجار خليل، أو من فوق الحيط الفاصل، والمفتوح في آن واحد، على بيت الجارة، أو على الشارع».

وحول الفيلم قال مشهراوي: في «حتى إشعار آخر»، كان هناك واقع فرض نفسه على الفيلم، حيث ان كوني ذا تجربة كبيرة في منع التجول وحياة الفلسطينيين خلال منع التجول، جعلني قريباً جداً من المواد التي اشتغل عليها، فبدت الامور وأنني احقق فيلماً في بيتي، وعن أهلي واسرتي، وعن نفسي أيضاً.. كان التوجه هناك على شكل اعادة رسم للواقع والقاء الضوء على التفاصيل الانسانية الصغيرة، والتعامل معها والتعامل مع الانسان كإنسان وسط وضع معين، عليه ان يدبر حياته فيه بشكل يومي وسط الاختناق والاحتلال والمآسي المضادة التي ينسى الناس ان الفلسطيني يمكن ان يعيشها ايضاً.

دار ودور

فيلم «دار ودور» الذي أخرجه مشهراوي، وأنتجه المخرج هاني أبو أسعد، وكان أنتج حينها، فيلماً وثائقياً خرج في فترة حرب الخليج والانتفاضة الأولى .. في الوقت الذي عرض فيه الفيلم هوجم وحورب في بريطانيا، رغم ذلك عرض في الصالات وحصد العديد من الجوائز، وأصبحت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في العالم تملك الفيلم، وتعرضه، لإحساسهم بأهمية اللغة التي تناولها.

والفيلم يروي قصة الفلسطيني محمد، الذي يعيش في مخيم الشاطئ للاجئين قرب غزة، وهو في الأربعين من عمره، متزوج وله سبعة أطفال .. يسافر محمد كل أسبوع ليعمل في تل أبيب، إلى أن جلبت حرب الخليج عواقب سيئة على الفلسطينيين، فأصبح من الصعب الحصول على عمل، فتعاظمت التوترات العائلية .. ويتتبع الفيلم محمد وعائلته في غزة وفي تل أبيب أثناء الانتفاضة وحرب الخليج، ويظهر التضحيات التي عليه تقديمها لكي يستمر في الحياة.

فيلم «دار ودور» الوثائقي الطويل، كان يناقش فترة حظر التجوال في قطاع غزة في فترة حرب الخليج، والشعب الفلسطيني كان يبكي آنذاك من قلة وجود الطعام، وكان مشهراوي «شاهد عيان على تلك الفترة، وقد استطاع الهرب من قطاع غزة إلى تونس».

وفيلم «دار ودور»، أول إنتاجات هاني أبو أسعد، من إخراج رشيد مشهراوي، الذي قال عنه مرة «تواجدت في يافا المدينة التي لجأ منها أجدادي، وتواجدت يافا في أفلامي، ومنها دار ودور». وقال عنه أيضاً: الفلسطيني صار يبكي كما في فيلمي «دار ودور» مثلاً، وهو فيلم كان بمثابة نقطة تحول بالفيلم الوثائقي الفلسطيني، فإذا ما قدر لك أن تترجم معاني الأفلام فستستوحي منها أن الفلسطيني بالطرح الجديد مثله مثل أي إنسان، ويمكن له أن يبكي بسهولة، وأن يكون سيئاً، أو أن يكون عميلاً ويضرب زوجته، وهو في الوقت نفسه المقاتل والمحامي وصاحب القضية. لا أريد أن أتحدث عن أشياء بديهية، أنا يمكن لي أن أشاهد ثلاث دقائق يعرف فيها الفلسطيني كضحية.. ومن ثم أتساءل فقد فهمت أنه ضحية، وما الذي يفعله حتى لا يظل ضحية، وحتى أتمكن من مساعدته، وأتعرف إليه، وأنت ستكتشف أنه جاء من مكان مهم جداً في هذا العالم اسمه فلسطين، ولديه فيها خصوصيات رائعة، ولديه لهجته ولون إيقاعه، ولك أن تتذوق فيه الفنان أو المخرج أو الراقص.

وأضاف: مفهوم فيلم «دار ودور» كان غير الأفلام الفلسطينية التي عملوها في الثورة الفلسطينية في لبنان وخارج لبنان .. مفهومنا للقوة مختلف، ويقوم على أنه لو تجسدنا كشعب وحضارة وتاريخ، وكنا موضوعيين، وبتنا حالة كاملة، وخاصة أننا نملك المكان فنحن أقوياء .. وبالتالي من الصعب على أحد احتلالنا أو أن يستمر في احتلالنا، لأن وجودنا عال وراسخ على أرضنا، ففي هذا الفيلم نحن نرسم، ونرقص، ونحكي النكات ... جدي كان يحب جدتي في يافا قبل وجود دولة إسرائيل .. لم يكن هناك شيء اسمه دولة إسرائيل .. ما حاولنا أن نوصله من خلال الفيلم، أن لنا حكايات في يافا، حكايات أناس تنبت في الأرض شامخة كشجر الزيتون.. «أنا الذي في يافا بفيلم دار ودور».

وكشف مشهراوي: صنعت فيلم دار ودور، وهذا الفيلم ازعج الاحتلال بشدة لانه رصد وقائع وحقائق يستحيل تكذيبها، وحاولوا نفيها بكل السبل ولكنهم فشلوا، للدرجة التي جعلتهم يقومون

بمنع بطل الفيلم الرئيسي من الخروج من منزله لثلاث سنوات كاملة.

ومن الجدير بالذكر أن رشيد مشهراوي غادر قطاع غزة إلى هولندا، حيث أقام ثلاث سنوات، وأسس مع هاني أبو أسعد، شركة أيلول للإنتاج الفني، التي أنتجت العديد من الأفلام بالتعاون مع شركة أفلام اركوس الهولندية، كنوع من المأسسة لتعاونهما مشهراوي كمخرج وأبو أسعد كمنتج بعد فيلمي «دار ودور»، و»أيام طويلة في غزة».

ولكن هناك روايات تشير إلى أن شركة أيلول للإنتاج الفني، هي المنتجة لفيلم «دار ودور»، بالتعاون مع القناة الرابعة البريطانية، بمعني أنه إنتاج فلسطيني بريطاني مشترك يقع في ٥٢ دقيقة، عن سيناريو رشيد مشهراوي، وتصوير كلاوس يوليوسبرغ وجورج غوريفيتز، في حين لم يكن هاني أبو أسعد منتجاً فحسب، بل مساعد مخرج في هذا الفيلم، حيث تأسست الشركة في غزة، ومن ثم حملت الاسم نفسه في هولندا.

أيام طويلة في غزة

أما فيلم «أيام طويلة في غزة» (٣٠ دقيقة)، فهو من إنتاج هاني أبو أسعد، وريتشارد الوين، لصالح التلفزيون البريطاني، وعبر شركة أيلول للإنتاج السينمائي في غزة والتلفزيون البريطاني (بي.بي.سي)، عن سيناريو رشيد مشهراوي، ومن إخراجه، وتصوير كلاوس يوليوسبرغ، حيث ينقل الفيلم تأثيرات حرب الخليج على المجتمع الفلسطيني، وخصوصاً العمال منهم، وذلك من خلال ثلاثة نماذج تعبر عن آرائها في السياسة، وفي المجتمع، وفي الانتفاضة، وفي حرب الخليج، وعن رؤيتها للمستقبل في ضوء ذلك.

«جمعة الذي يعمل في أحد مطاعم تل أبيب ويصبح عاطلاً عن العمل، وإبراهيم الذي يرفض التعايش بين الفلسطينيين والإسرائيليين من حيث المبدأ، ومن ثم يرفض العمل في تل أبيب، ويجد عملاً له في غزة على الرغم من الحرب وظروفها، أما مصطفى الذي يبقى دائماً في تل أبيب ويستمر في العمل، سيجد أنه مرفوض في تل أبيب كما هو مرفوض في غزة».

حظر تجول

وفاز فيلم «حظر تجول» من إنتاج هاني أبو أسعد عبر شركة أيلول للإنتاج السينمائي، وإخراج رشيد مشهراوي، بجائزة في مهرجان كان السينمائي العام ١٩٩٤ .. والفيلم هو أول فيلم روائي طويل لمشهراوي، وحصد جائزة «اليونسكو» في مهرجان كان السينمائي الدولي، كما حصد عدة جوائز في

مهرجانات سينمائية دولية في روما، وبرشلونة، والقدس، والقاهرة، وتونس، وهو الفيلم الذي قالت مصادر أخرى أنه باكورة إنتاجات هاني أبو أسعد!

ويقول الناقد عدنان مدانات إن فيلم «منع التجول» أو «حظر تجوال» صنع داخل بيت لعائلة فلسطينية في فترة منع التجول، وعبر هذا المنزل وعبر حياة الأسرة والجيران القادرين على التسلل إلى هذا المنزل يقدم مشهراوي واقع الحياة الفلسطينية عن طريق السهل الممتنع.

بيت من ورق

ويرى البعض أن العام ١٩٩١، حيث كانت الإنتفاضة الأولى في أوجها، كانت ولادة المخرج هاني أبو أسعد، عندما قدم عمله الأول «لمن يهمه الأمر»، وفي العام ١٩٩٢، خرج أبو أسعد بفيلمه الروائي الأول «بيت من ورق»، وهو فيلم روائي قصير (٢٨ دقيقة)، عن سيناريو هاني أبو أسعد نفسه، وإنتاج «أيلول للإنتاج السينمائي»، وشاركه في الإخراج حنا إلياس، وهو الفيلم الذي حصد جائزة أحسن فيلم قصير في بينالي السينما العربية في معهد العالم العربي في باريس العام ١٩٩٤، وهو من بطولة: سلوى نقارة حداد، وسليم ضو، وطارق قبطي، وسامية بكري، ورامي كزبري، ويونس يونس، وروحي عيادي.

ويروي الفيلم قصة حلم خالد (١٣ عاماً) ببناء منزله الخاص في موازاة خلفية قاسية عن تدمير منزله الأبوي الحقيقي، حيث يقرر خالد، أثناء لعبه مع أخيه أمير وأصدقائه، بناء بيت ورقي، وبالفعل يبدأ مهتمه مع أصدقائه، ويحصل على المواد اللازمة من أماكن متعددة.. وهو الفيلم الذي وجد فيه بعض النقاد «تحليلاً ذكياً لتفتت البنية الاجتماعية والنفسية للشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في ظل غياب الوعي الصائب لدى قياداته»، بينما وجد آخرون أن «هاني أبو أسعد اختار الطفولة الفلسطينية بوابة للدخول إلى ميدان الحديث عن الانتفاضة في فيلمه بيت من ورق (١٩٩٢)، فعندما يهدم المحتل بيت أهل الفتى، يقوم ببناء بيت من ورق، ويتعاون هو وأصدقاؤه لتوفير المواد اللازمة لبناء هذا البيت.

رصد وأمنيات

وما بين رصد وأمنيات، نختم بأنه من الصعب بمكان رصد كافة الأفلام الوثائقية التي تناولت «انتفاضة الحجارة»، وخاصة القصيرة منها، فأية دراسة مقتضبة نسبياً لا يمكنها بأي حال التعاطي

مع هذه الأفلام وفق تقنية «الببلوغرافيا»، في حين أن الأمنيات لا تزال ليس فقط بمزيد من الاستعادات السينمائية المميزة وثائقياً أو تسجيلياً كما فعل عامر شوملي في «المطلوبون الـ١٨»، بل بالاتكاء على حكايات تلك الحقبة الغنية والثرية بإنتاجات فائقة الجودة، وعلى مختلف المستويات، في مجال الأفلام الروائية، وليس الاكتفاء بتوثيق حكايات الانتفاضة الأولى عبر وثائقيات، مهما كانت مغايرة، ومتطورة.

المصادر

١. قيس الزبيدي، فلسطين في السينما، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت ، أيار ٢٠٠٦.
٢. بشار إبراهيم، نظرة على السينما الفلسطينية في القرن العشرين، دار الطريق للأبحاث، دمشق، العام ٢٠٠٠.
٣. أسماء الغول، تقرير بعنوان «رشيد مشهراوي: السينما الفلسطينية حققت وطناً لم يحققه السياسيون»، جريدة الأيام اليومية الفلسطينية، ٦ آذار ٢٠٠٧.
٤. تقرير بعنوان «رشيد مشهراوي في انتظار «الانتظار»، لنحاول تحرير السينما الفلسطينية من الاحتلال»، جريدة الحياة اللندنية، ٤ حزيران ٢٠١٤.
٥. فاطمة عطفة، تقرير بعنوان «رشيد مشهراوي: الأم تشكل دقات قلب المخيم في حالة الحصار والمقاومة»، جريدة القدس العربي، ٢٩ كانون الأول، ١ محرم ١٤٣٠ هجرية.
٦. موقع النفيس الالكتروني، «السينما الفلسطينية مسيسة وغير موضوعية»، ٣ آذار ٢٠١٥.
٧. منة عصام، تقرير بعنوان «رشيد مشهراوي: حياة الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال هي قضيتي وشغلي الشاغل»، جريدة الشروق المصرية، ٤ آذار ٢٠١٥.
٨. نوريث غيرتس، جورج خليفي، منظر في الضباب (٢٠٠٥) بالإنكليزية.
٩. تقرير بعنوان «الأفلام الفلسطينية تحصد الجوائز الدولية»، وكالة الأنباء الألمانية (د.ب.أ)، ٧ أيار ٢٠٠٩.
١٠. تقرير بعنوان «فيلم رشيد مشهراوي في السرايا يافا»، موقع العرب الالكتروني التابع لأسبوعية كل العرب، الناصرة، ١٨ أيار ٢٠١٢.
١١. تقرير بعنوان «هاني أبو أسعد في مهرجان ترايبيكا السينمائي ٢٠١٠»، جريدة الوسط البحرينية، ١ تموز ٢٠١٠.
١٢. أحمد فضل شبلول، تقرير بعنوان «يوم فلسطيني في عيد ميلاد ليلى»، موقع الجبهة الالكتروني، حيفا، ١٧ تشرين الأول ٢٠٠٨.
١٣. حسام فتحي أبو جبارة، مقال بعنوان «هاني أبو أسعد ينصر القضية الفلسطينية سينمائياً»، جريدة القدس العربي، ١١ تشرين الثاني ٢٠٠٩.
١٤. محمد عبيدو، مقال بعنوان «هاني أبو أسعد: سينما فلسطينية حيوية ومتميزة فنياً»، موقع سينما الشعر الالكتروني، ٦ آذار ٢٠١٥.
١٥. مجدي أحمد علي، مقال بعنوان «السينما الفلسطينية والانتفاضة»، موقع مؤسسة القدس للثقافة والتراث، ٢٩ تموز ٢٠١٠.

١٦. أمجد صادق، تقرير بعنوان «هاني أبو أسعد: هزمنا إسرائيل سينمائياً»، مجلة الأهرام العربي، ١ كانون الثاني ٢٠٠٣.
١٧. المخرج السينمائي ميشيل خليفي، برنامج «بلا قيود»، فضائية «بي.بي.سي» العربية، تشرين الأول ٢٠١٥.
١٨. حوار في جريدة الأيام الفلسطينية، مع ميشيل خليفي، أجراه يوسف الشايب، أيلول ٢٠٠٤.
١٩. موقع السينما دوت كوم، رشيد مشهراي.
٢٠. حوار في جريدة الأيام الفلسطينية، مع رشيد مشهراوي، أجراه يوسف الشايب، نيسان ٢٠٠١.
٢١. مقال بعنوان رشيد مشهراوي .. «حتى إشعار آخر»، بشار إبراهيم، الجزيرة نت، تشرين الأول ٢٠١٢.
٢٢. رشيد مشهراوي لـ»الوسط»: بطلي فكرة حالمة تحاول طرح الأفكار الشائكة، حوار مع مجلة الوسط اللندنية، موقع جريدة الحياة الدولية، تشرين الأول ١٩٩٥.
٢٣. رشيد مشهراوي .. سينما فلسطينية، الجزيرة نت، تشرين الأول ١٩٩٨.
٢٤. مي المصري .. الوطن عبر السينما، قناة الجزيرة، ١٦ آذار ٢٠٠٦.

أوراق المؤسسة

ندوة: "الإدارة الأميركية الجديدة التحديات عربياً وفلسطينياً"

نظمت مؤسسة ياسر عرفات، في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) ٢٠١٧، في القاهرة، ندوة بعنوان «الإدارة الأميركية الجديدة: التحديات عربياً ودولياً»، بمشاركة نخبة من الساسة والأكاديميين من فلسطين ومصر، وبإدارة عمر موسى، رئيس مجلس أمناء المؤسسة، والأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، وذلك ضمن فعاليات ملتقى الحوار الثالث للمؤسسة.

كانت بداية الحديث لأحمد الطيبي، رئيس لجنة المتابعة العربية داخل الخط الأخضر، الذي قال: لا أحد يمكنه القول بأنه يمكنه أن يفهم طبيعة السياسة الأميركية الجديدة تجاه القضية الفلسطينية .. ليس صدفة أن الرئيس الأميركي المنتخب ترامب خرج عن طوره ليعطي انطباعاً بأن استقباله لبنيامين نتنياهو جاء دافئاً حاراً، خارجاً عن البروتوكول المألوف، ولكن في القضايا الإسرائيلية ما رشح يمكن تفسيره بعدة طرق، وغالباً في الاتجاه السلبي وليس الإيجابي.

وبدأ الطيبي «من النقطة التي أثارت الجميع، وما زالت، وتتعلق بشكل الحل الذي تتبناه الإدارة الأميركية الجديدة: هل هو حل الدولتين؟، أو رؤية حل الدولتين كما تصفها الإدارة الأميركية في السنوات الأخيرة، أم حل الدولة الواحدة؟، أم هو شيء آخر؟ ..وتابع: عندنا قال ترامب: دولتين .. دولة واحدة .. لا يهم، ثارت هذه الأسئلة عن حق، لأن هذه التصريحات لا تعبر عن الموقف الأميركي الرسمي الذي تبنى بشكل واضح فكرة حل الدولتين، ولكنني هنا لأقول «لاحظت حالة من خيبة الأمل سادت، وكأن الإدارات الأميركية السابقة سعت بحق وبقوة لإقامة دولتين، وهي ليست كذلك.

وأضاف: الحقيقة أن عنوان إدارة الرئيس الأميركي الأسبق باراك أوباما كان يتمحور حول حل الدولتين، لكنها فشلت في تطبيق هذا الحل أولاً، وثانياً لم تسع بشكل جاد لفرض هذا الحل عبر

وقف الاستيطان مثلاً، وفشلت عندما تحدثت عن وجوب وقف الاستيطان عن فرض ذلك، بل إن من تراجع هنا هو باراك أوباما وليس نتنياهو .. واستمر الاستيطان، ولذلك كان في كل يوم ولا يزال مع بناء وحدات استيطانية جديدة كان حل الدولتين يتهاوى، فمن ناحية عملية، الأرض التي ستقام عليها الدولة الفلسطينية تقضم يوماً بعد يوم، ولذلك أستطيع القول بأن الإدارة الأميركية السابقة فشلت فشلاً ذريعاً في تطبيق حل الدولتين، وكانت عملياً أقرب إلى التكيف مع الموقف الإسرائيلي، على الرغم من الاحتكاكات الشخصية بين أوباما ونتنياهو.

وعن موقف الرئيس الأميركي ترامب، قال الطيبي: يأتي ما قاله الرئيس ترامب في المؤتمر الصحفي حول الاستيطان، حيث خاطب نتنياهو بما معناه التمني بتخفيف وتيرة الاستيطان، لكن دون تأثير على الأرض .. الاستيطان هو ليس فقط عقبة أمام تحقيق السلام، كما يحلو للغربيين القول، بل هو مخالفة للقانون الدولي، وهو جريمة حرب، وأبرز العقبات أمام إقامة الدولة الفلسطينية.. الخطاب بين ترامب ونتنياهو يبدو لي كشخص يحدث صديقه سارق البنوك، ويطلب منه عدم سرقة بنك كل يوم، أو السماح بالاستيطان في القدس، أو ما تصطلح عليه إسرائيل، وتتبناه أميركا، بـ"الكتل الإستيطانية"، وهو اصطلاح ناتج عن مفاوضات بين إسرائيليين .. بحق لم يسمع هذا المصطلح من أي مسؤول فلسطيني .. حين سئلت ليفني عن معنى "الكتل الاستيطانية" أجابت بأنها تعني المستوطنات المتاخمة للخط الأخضر، وكل مستوطنة لها بلدية، وكل مستوطنتين متجاورتين، كل هذه تعني "الكتل الاستيطانية"، وهذا يعني كل المستوطنات.

وشدد الطيبي: لا يوجد فلسطيني يمكن أن يقبل بذلك، بل هناك دول أوروبية لا يمكن أن تقبل بذلك، ولكن هناك توافق إسرائيلي على موضوع «الكتل الاستيطانية» بين الحكومة والمعارضة، والأحزاب اليمينية واليسارية، وهو ما عكس البرنامج الذي قدمه مؤخراً هيرتسوغ، وكأنه أمر مفروغ منه، لكن هذا الاتفاق هو بين الإسرائيليين أنفسهم، أو بين نتنياهو والإدارة الأميركية.

وحول شكل الدولة الفلسطينية، أكد الطيبي: أنا من أنصار حل الدولتين، ولا نزال نناضل من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي على الأراضي التي احتلها منذ العام ١٩٦٧، وهو برأيي الحل البراغماتي العملي أكثر من غيره من الحلول .. أذكر هنا ما قاله ذات مرة صديقي الراحل محمود درويش بأن حل الدولتين هو الحل الممكن، بينما حل الدولة الواحدة هو الحل العادل.

وتابع: ذات مرة تحدّيت نتنياهو بالحديث عن دولة فلسطينية مستقلة، أو دولة فلسطينية ذات سيادة، وهو على الدوام يرفض ذلك .. ما يقوله دائماً «دولة فلسطينية منزوعة السيادة»، وفي سابقة قال «دولة فلسطينية ناقصة»، وهنا أقول بأن الشعب الفلسطيني لم يقدم كل هذه التضحيات من

أجل دولة فلسطينية ناقصة، فالحل الواضح هو دولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة على ٢٢٪ من الوطن، ولذلك عندما ذكر الرئيس الأميركي ترامب خيار الدولة الواحدة من بين عدة خيارات، قلنا إن خيار الدولة الواحدة يمكن أن يكون إما دولة لكل مواطنيها، بمعنى فيها مواطنين عرب ويهود متساوي الحقوق، وما، وهو مفروض، الدولة اليهودية (دولة الأبارتهايد العنصري)، وفي الحالة الأولى الجميع يدرك أن الغلبة للفلسطينيين ديموغرافيا، فلو ترشحنا مقابل نتنياهو سنهزمه ديمقراطياً، وهذا كابوس بالنسبة للسياسة الإسرائيلية، لأنهم يدركون، أو جزءاً منهم ما معنى ذلك.

وأكد الطيبي: الحلول الممكنة إما دولتين أساسها إنهاء الاحتلال، أو دولة الأبارتهايد، أو دولة ديمقراطية أساسها المساواة لجميع مواطنيها من عرب ويهود .. لا يوجد حل آخر .. كل الاقتراحات والإيحاءات التي طرحت في المؤتمر الصحفي بين ترامب ونتنياهو حول الحل الإقليمي، مجرد أكذوبة لا يمكن لأي فلسطيني أن يقبلها، ولا يمكن لأي عربي أن يقبلها، ويجب على الجميع رفضها .. إذاً، ما يريده بنيامين نتنياهو هو قلب المبادرة العربية للسلام، بمعنى تطبيق التطبيع الكامل مع العالم العربي، ومن ثم تحل القضية الفلسطينية .. لم تنجح هكذا محاولات في الماضي، ولا يمكن أن تنجح في المستقبل، ولذلك يجب أن يفهم بأن هذا ليس حلاً، خاصة أن القضية الفلسطينية أساسية في وجدان الجميع، وإن تراجعت إعلامياً نظراً للنكبات التي تحل في العالم العربي، وظهور داعش، لكن تبقى القضية الفلسطينية، مع ضعف الاهتمام بها عربياً ودولياً هي الأساس في المنطقة.

وكشف الطيبي: إسرائيل تدير ثلاث أنظمة للحكم، أولها ديمقراطية لثمانين بالمائة من مواطنيها اليهود، ولذلك هي ديمقراطية أثنية، والثاني هو نظام الديمقراطية العنصرية ضد عشرين بالمائة من مواطنيها، وهم فلسطينيي الداخل (نحن)، والثالث هو الاحتلال والابارتهايد ضد الشعب الفلسطيني، ولا يمكن استيعاب تسويق دولة محتلة على أنها دولة ديمقراطية.

وتطرق الطيبي عن تعريف إسرائيل لذاتها، ونقاش «يهودية الدولة»، التي تطلب من منظمة التحرير الفلسطينية والشعب الفلسطيني الاعتراف بها في هذه الصيغة، ووفقاً للقوانين الأساسية في إسرائيل، فهي معرفة أصلاً كيهودية وكديمقراطية في ذات الوقت، وقيمة اليهودية تسبق قيمة الديمقراطية لديهم، وهذا التعريف هو الشيء ونقيضه.. إسرائيل هي دولة ديمقراطية تجاه اليهود، ويهودية تجاه العرب.

وختم الطيبي مداخلته بتأكيده مجدداً على إيمانه بحل الدولتين «بالرغم من صعوبته»، لا زلنا متمسكين فيه، لكننا كفلسطينيين ننشد العدل والسلام لا يمكن أن نخشى مناقشة فكرة الدولة الواحدة، بل يجب أن تطرح على الإدارة الأميركية الجديدة، خاصة أن الرئيس ترامب عرضها علناً

ضمن حديثه عن خيارات الحل للقضية الفلسطينية، مطالباً الزعماء العرب ممن تربطهم علاقات جيدة بالإدارة الأميركية بإسناد الموقف الفلسطيني في تعاطيه مع إدارة تتسم بـ»الإسلاموفوبيا».

ثلاثة تطورات رئيسية

بدوره أشار د. غسان الخطيب، نائب رئيس جامعة بيرزيت، إلى أن انتخاب ترامب لا يمكن عزله عن تغيرات ومعطيات وتطورات جديدة في المنطقة تشكل مع وصول ترامب إلى قمة هرم السياسة الأميركية بيئة سياسية جديدة تتحرك فيها القضية الفلسطينية .. «بيئة من الصعب التعامل معها بذات الأدوات، والسياسات، وآليات العمل التي كنا نعمل بها في سياق البيئة السياسية السابقة».

وقال الخطيب: ربما الحديث يتعلق بثلاثة تطورات رئيسية، أولها الظروف الصعبة التي يعيشها العالم العربي، وثانيها التغيرات الجذرية التي يجب أن نلحظها في إسرائيل، والثالث انتخاب الرئيس الأميركي الجديد للولايات المتحدة.. كفلسطينيين، وكمعنيين بالشأن الفلسطيني لا نستطيع أن نتجاهل الأهمية القصوى للظروف التي يعيشها العالم العربي، والتي تحد إلى حد بعيد من استمرار تقديم البعد العربي من نفس مستويات الدعم السياسي، والدعم بأنواعه المختلفة للقضية الفلسطينية، فالشعوب العربية، وفي كثير من الأحيان الحكومات العربية، التي شكلت خاضنة داعمة للنضال الفلسطيني في محطاته المختلفة .. لا شك أن تراجع إمكانية الأمة العربية عن دعم القضية الفلسطينية نظراً لظروفها الحالية سيترك أثراً سلبياً.

وبخصوص التغيرات الحاصلة في إسرائيل، أشار الخطيب إلى أن "إسرائيل التي نحن بإزائها اليوم هي ليست ذاتها إسرائيل التي تفاوضنا معها كفلسطينيين، وتفاوضت معها أنظمة عربية أخرى قبل خمسة وعشرين عاماً .. إسرائيل اليوم تغيرت من الناحية الاجتماعية والسياسية والديموغرافية، فلم يعد في المجتمع الإسرائيلي، ولا لدى النخبة الإسرائيلية الحاكمة أقلية وأكثرية، والحكومة الإسرائيلية الحالية غير مستعدة للتعايش سياسياً مع حل الدولتين،لأنها غير مستعدة للتخلي عن الوجود الإسرائيلي، والسيطرة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية».

واقتبس الخطيب من رئيس اللجنة الدستورية في الكنيست الإسرائيلية، قوله رداً على وصف رئيس كتلة حزب العمل بأن مشروع قانون تشريع الاستيطان عمل غير أخلاقي .. "انتبه، لا يمكنك قول ذلك، لأن الطريقة التي سيمكنا هذا القانون فيها من بناء مدينة عمونة (يعني مستوطنة عمونة)، هي نفس الطريقة التي بنينا من خلالها تل أبيب على أراضي الشيخ موّنس» .. وبالتالي، هذه العقلية تفترض أن المشروع الصهيوني في الضفة الغربية هو استكمال للمشروع الأول الذي بدأ في فلسطين التاريخية في العام ١٩٤٨ .. وعليه، نحن إزاء عقلية استعمارية تسعى بشكل تدريجي لاستكمال

السيطرة الإسرائيلية على ما تبقى من فلسطين التاريخية.

وبخصوص الموضوع الرئيس المتعلق بالتغير في البيئة السياسية التي «نعيش ونعمل فيها»، والناتجة عن انتخاب ترامب، قال الخطيب: علينا ألا نغفل حقيقة أن كافة الإدارات الأميركية السابقة كانت تتسابق لتقديم أقصى ما تستطيعه من دعم لإسرائيل، وبالتالي حديثنا عن الدعم من قبل ترامب لإسرائيل يجب أن لا يغفل حقيقة أن كل الإدارات الأميركية السابقة كانت داعمة لإسرائيل بالحد الأقصى الممكن، ولكن هذه الإدارة الأميركية اليمينية الجديدة سوف تكون في حالة وفاق استثنائي مع إسرائيل، بمعنى أن الولايات المتحدة الجديدة ستكون أكثر قدرة على التوافق مع إسرائيل الجديدة، الأمر الذي يعني تحديات إضافية بالنسبة للشعب الفلسطيني وللعرب عموماً.

وأضاف: ثلاثة تغيرات أساسية في الموقف الأميركي، كما ظهرت في ذلك المؤتمر الصحفي الشهير، أولها تراجع الولايات المتحدة عن اعتبار أن حل الدولتين هو الحل المفضل بالنسبة لها، ذلك أن هذا الحل كان هو الحل المفضل للولايات المتحدة، التي حين أصدرت بياناً تبرر فيه امتناعها عن التصويت على قرار مجلس الأمن (٢٣٣٤)، أشارت إلى أن الاستيطان الإسرائيلي من شأنه أن يحد من إمكانية تحقيق حل الدولتين الذي تراه الولايات المتحدة حلاً مفضلاً.

والتغير الثاني وفق الخطيب، أن الولايات المتحدة تترك الحل لما يتم التوافق عليه بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، وهذا يعني أنها تترك الأمور للجانب الأقوى هنا، وهو إسرائيل .. أما «التغيير الثالث، وهو برأيي الرئيسي، فهو تفهم الإدارة الأميركية لأول مرة بشكل واضح، ومن خلال كلام رئيسها، للاتجاه الاستراتيجي الإسرائيلي الجديد الذي يسميه نتنياهو الملف الإقليمي، وتسميه الصحافة الإسرائيلية المسار الإقليمي، ويتلخص هذه المسار بتحول ١٨٠ درجة عن الاتجاه الإسرائيلي والأميركي السابق الذي كان يفترض بأن اتفاق سلام فلسطيني إسرائيلي من شأنه أن يهيئ ظروف أفضل تمكن من توسيع هذا الاتفاق ليشمل سلاماً إقليمياً مع الدول العربية .. الآن المسار الإقليمي الجديد الذي يروج له نتنياهو يقوم على فكرة أن التهديد المشترك لإسرائيل وبعض الدول العربية الأخرى من قبل إيران، يفسح المجال لتقدم في العلاقات الإسرائيلية مع بعض الدول العربية، وبالتالي إمكانيات إقامة نوع من التفاهمات الإقليمية تمكن إسرائيل من العودة باتجاه صفقة ما مع الجانب الفلسطيني».

وأضاف: بالرغم من عدم وجود أي دلائل حتى الآن تزكّي مثل هذه الدعايات الإسرائيلية، إلا أن الصمت العربي تجاه هذه الإدعاءات الإسرائيلية التي تفهمتها الولايات المتحدة في هذا المؤتمر الصحفي الأول الذي جمع ترامب بنتنياهو، يعطي اليمين الإسرائيلي حيزاً إضافياً للمناورة، حبذا لو

تمكنا من إغلاقه عبر مواقف عربية واضحة .. لابد من موقف عربي واضح من هذه المسألة.

وفي ذات الإطار، قال: رب ضارة نافعة، فهذه النظرة الإسرائيلية والمقولة الأميركية ربما تشكل حجة جديدة حول ضرورة التنسيق العربي العربي، والعربي الفلسطيني فيما يتعلق بالتعاون والعلاقة مع هذا المنحى الاستراتيجي الجديد .. نحن لسنا بحاجة إلى أسلحة جديدة للتصدي له، لأن المبادرة العربية تشكل السلاح الأفضل لمواجهة مثل هذا التوجه الإسرائيلي، كونها تتميز بالربط البناء بين مسار التفاوض الإسرائيلي الفلسطيني من جهة، وبين مستقبل العلاقات العربية الإسرائيلية من جهة أخرى.

وشدد الخطيب: هذا المسار الجديد، وهذه البيئة الجديدة، يفضي إلى استنتاجات محددة، ويملي واجبات وسياسات محددة .. الاستنتاج الأساسي هنا هو عدم إمكانية الوصول إلى حل يتضمن إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وقيام الدولة الفلسطينية عن طريق المفاوضات الثنائية، وأن الأمر الواقع الذي نعيشه والذي صنعته إسرائيل عبر سنوات عن طريقي المفاوضات من ناحية، وصناعة الأمر الواقع بالسياسات أحادية الجانب من ناحية أخرى سيستمر لفترة ليست بالقليلة، وهذا، من وجهة نظري، يملي علينا نوعين من المقاربات: واحدة تتعلق بالسياسات الفلسطينية والعربية الخارجية المتعلقة بالقضية الفلسطينية، والثانية تتعلق بالسياسات الداخلية.

وأضاف: على المستوى الخارجي لم يعد بالإمكان المراهنة على المفاوضات الثنائية، وبالتالي يجب الانتقال للمراهنة على العمل السياسي الدولي، بمعنى اعتبار المؤسسات الدولية هي حلبات الصراع الجديدة، واعتبار القانون الدولي هو السلاح الأمثل والأفضل لمقارعة إسرائيل على مستوى العالم .. وختى تكون هذه المقاربة أكثر فعالية، علينا في الوقت نفسه أن نضمن تكاملاً ما بين هذه الدبلوماسية الدولية من ناحية، وبين الدبلوماسية الشعبية الآخذة بالتوسع، والتي تسعى على المستوى الدولي الشعبي إلى مقاطعة إسرائيل وفرض العقوبات عليها وسحب الاستثمارات منها .. هذه الحركة الدبلوماسية الشعبية التي تسمى بـ (BDS)، باتت بحاجة إلى أن تكون في حالة تكامل بينها وبين السياسة الرسمية الفلسطينية على المستوى الدولي، فإذا ضمّنا سياسة مزدوجة وتكاملا بين سياسة تستند إلى القانون الدولي، والأساليب السلمية الحضارية، فإنها ستقدم للسياسة الفلسطينية الرسمية متسعاً للعمل، ويمنح الجهات الفلسطينية والنشطاء متسعاً للعمل أيضاً.

أما على مستوى السياسة الداخلية، وبما أن الاستنتاج الأساسي هو أن لا إمكانية للخروج من الأمر الواقع الذي نعيشه الآن، والحديث للخطيب، أضاف نائب رئيس جامعة بيرزيت:يجب أن تكون سياستنا الداخلية ذات نفس طويل .. سياسة تركز أكثر مما هو الأمر عليه الآن على تقوية

العوامل الذاتية الفلسطينية من خلال تعزيز الوحدة الوطنية وإنهاء الإنقسام، أو من خلال الاهتمام بالخدمات وبناء جيل جديد فلسطيني متعلم أكثر، ويعيش ظروفاً تمكنه من التسلح بكل ما يساعده على الفرص التي سوف تتاح له مستقبلاً، فمن وجهة نظري، القيادة السياسية الفلسطينية لا تولي متطلبات السياسة الداخلية ذات البعد الخدماتي التي تتعلق بضمان أوضاع صحية أفضل، وفرص عمل أكبر، وتعليم أفضل، باعتبار أن الأولوية الأساسية هي للعمل السياسي والدبلوماسي .. إذا اقتنعنا بأن علينا تحصين مجتمعنا، والأجيال الجديدة لتكون قادرة على مواجهة التحديات، يجب الاهتمام أكثر بمتطلبات المجتمع الداخلية، بما يساهم في تمتين البناء المؤسساتي، من حيث تعزيز إمكانيات الصمود لدى أبناء شعبنا الفلسطيني، ومن حيث زيادة قدرة الجيل الفلسطيني الجديد على مواجهة مثل هذه التحديات، وتحقيق إمكانيات ونتائج أفضل في ظروف مستقبلية.

أميركا والعرب وفلسطين

السفير حسام زكي، الأمين المساعد لجامعة الدول العربية، بدأ حديثه بالقول: ارجو المعذرة لو تحدثت ببعض التحفظ، لكون الجلسة واسعة الحضور، ومغطاة من قبل الإعلام، لكنني سأتطرق لأمور مطروحة للبحث فيما يتعلق بالولايات المتحدة، والعرب، وفلسطين، مضيفاً: هناك قدر من الاضطراب في الوضع الأميركي، كما رصد كثيرون، وهناك قدر من عدم وضوح الرؤية على مستوى القيادة، فربما في مستويات أقل لا تزال المحاولات جارية بالعمل وفق ما كان في السابق، حتى يحدث تغيير آخر .. أقصد أن هذا التغيير لم يأخذ حيزه حتى الآن، وأعني ما يتعلق بالموضوع الفلسطيني .. طبعاً هناك تغييرات، لكن التغيير الكبير الذي لا عودة عنه لم يحدث بعد .. المؤتمر الصحفي وغيره من التصريحات أمور قد تشي بأن هناك تغيير ما في الموقف الأميركي، ولكن إذا دققنا الاستماع والنظر نجد أنها لا تعدو كونها حالة من حالات محاولات الاستقرار على موقف جديد.

وتابع زكي: ربما تحاول إدارة ترامب أن تتباين على الإدارات السابقة، فتسعى لأن تجد لنفسها مكاناً جديداً في عالم يبدو من الصعب لها أن تجد فيه مربعاً فارغاً لم يتم التطرق إليه من قبل، فكون الرئيس الأميركي يتحدث عن «ربما دولة، وربما دولتين، مثلما تريدون»، وهو كلام لا يرقى إلى الموقف، لكن ربما كان تحضيراً أو إعداداً لموقف ما.

وشدد زكي على ضرورة الاطلاع، والنظر، ولو بشكل مقتضب، إلى ما خلفته الإدارة الأميركية السابقة في المنطقة، وقال: هناك تعاملات للإدارة الأميركية السابقة في قضايا هامة، كموضوع إيران على سبيل المثال، فنهج إدارة أوباما مع إيران خلف قدراً كبيراً من التغول الإيراني في الوضع العربي

بأشكال متعددة، وفي أكثر من دولة عربية .. هذا الواقع سوف تواجهه الإدارة الجديدة بموقف آخر، وهنا علينا أن ننتظر كيف سيتعامل معه النظام الإيراني، لأنه، وللأسف، كثير من الأوراق التي تمسك بها إيران هي أوراق عربية، وينبغي أن ندرك أن هذه الأوراق العربية تؤثر على بعضها البعض، وتتأثر ببعضها البعض.. إذا، يجب توقع ردة فعل لما حدث من تعامل أميركي مع إيران في السنوات الماضية، عبر سياسة أميركية جديدة، وبالتالي ردة فعل إيرانية للوضع الجديد.

وأشار زكي إلى أن «ثمة ما يتعلق بالتعامل مع الإسلام كدين، والإسلام السياسي، والإسلام الراديكالي الذي يتخذ من الإرهاب الذي يتمسح بالدين الإسلامي منهجاً له .. واضح أن إدارة ترامب سيكون لها موقف ربما يكون أكثر شدة، وأكثر قسوة من الإدارة السابقة، وبالتالي من المتوقع أن يكون هناك ردّات فعل لهذا الموضوع من الجماعات التي تعمل في هذا المجال، سواء العاملة في المجال السياسي، أو في مجال العنف والإرهاب».. "هذه الأمور لها ارتباط وثيق بالقضية الفلسطينية".

وتحدث زكي عن العلاقات ما بين واشنطن وموسكو، و»ما يمكن أن ينتج عن هذه العلاقة من إما تهدئة، وإما تفعيل للأزمات، أو حتى تصعيد لها، كما في الوضع في سورية، حيث كان للتدخل الروسي آثاراً كبيرة جداً، سواء أحببناها أم كرهناها .. إذا قررت موسكو أن تزيد من تدخلاتها في المنطقة، فمن المتوقع أن يكون هناك احتمالات كبيرة لوضع جديد في المنطقة لابد أن نتنبه إليه.

وشدد: انطلاقاً من هذه النقاط في محاولة فهم الكيفية التي يمكن أن ترسم بها الإدارة الأميركية الجديدة طريقها، سواء فيما يتعلق بالموضوعات العربية، أو ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، أعتقد أنه من المهم أن نحاول الوصول إلى بعض الخلاصات، أولها أن هناك قناعة عامة بأن ما تريده الإدارة الأميركية تفعله، والأمر ينطبق على إسرائيل، وأن ما يرسم من مخططات لا سبيل لمواجهتها .. أعتقد أنه من حق أي طرف أن يخطط، أو يأمل، أو يتطلع، لكن إذا كان هناك إرادة عربية حقيقية، فإنه يتوجب علينا تفعيلها بشكل جماعي لمواجهة هذه الأفكار أو المخططات، أو الرؤى التي ترسم للمنطقة خلافاً للمصلحة العربية.

وتابع زكي: نحن نواجه واقعاً عربياً يعاني الكثير من الانقسامات، والأطراف الإسرائيلية وبعض الأطراف الأميركية كانت «تلعب على نقطة التناقضات بين المصالح الثنائية مع الدول العربية والقضية الفلسطينية، وكانت دائماً تطالب الدول العربية، وبالذات المعنية بالقضية الفلسطينية أن تعلي بشأن علاقاتها الثنائية على حساب اهتمامها بالقضية الفلسطينية، وهذا الأمر يجب، قدر الإمكان، تجاوزه بتحقيق قدر من التوازن في التعاملات مع واشنطن، فالتعاطي مع القضية

الفلسطينية مصلحة عربية بقدر كبير .. فإذا ما تم التوصل لتسوية عادلة، وبالتالي استقرار في الوضع الفلسطيني، فإن الأمر يمثل مصلحة لكل الدول العربية، والتحدي يكمن في إعادة الوضع الفلسطيني إلى موقع الصدارة، بعد أن لم يعد أولوية لا دولياً ولا إقليمياً، فالحديث عادة ما يكون عن سورية، والعراق، وليبيا، والعلاقات مع إيران، وربما بعدها يأتي الحديث عن القضية الفلسطينية، وهذا أمر يحتاج إلى جهد كبير، وإن لم يتحقق ستبقى القضية قابعة في موقع لا يخدمها .. إن لم يستطع أبناء هذه القضية، وكل من يساندهم، الدفع بها إلى موقع الصدارة إقليمياً ودولياً ستتوارى، وسينتج عن هذا التواري استمرار الجانب الإسرائيلي في الممارسات التي يقوم بها.

وشدد: أنا من أنصار أن القضية الفلسطينية هي من القضايا المضادة، لأنها على الدوام تفرض نفسها، ولها تداعياتها على المنطقة، لكن أحياناً كثيرة ينجح الطرف الإسرائيلي في تحجيم كل العناصر، وبالتالي نجد أنفسنا أمام حالة من الجمود، يصعب على السياسيين تحريكه إلى الأمام.

وتابع زكي مداخلته، بالقول: من المهم أن نحاول وضع القضية الفلسطينية ضمن حزمة من الموضوعات الإقليمية التي تثير اهتمام الجانب الأميركي، لأنه كما يكتب عن الإدارة الأميركية الجديدة، فإنها لا تتحدث عن رغبة في تجاهل الموضوع، بل عن رغبة بالوصول إلى تسوية، لكنها تسوية بمنطق غير مقبول عربياً .. يجب علينا أن نشرح الموقف، وأن لا نمل من شرحه، بسبب حالة من الجهل علينا مواجهتها .. على مواقفنا أن تتحلى بالمرونة، وأن لا ندخل في المواقف المتصلبة التي لن تضيف لنا أي شيء .. المرونة التي أعنيها، هي تلك المبنية على مواقف مدروسة، ولا تعني تقديم التنازلات غير المدروسة، وذلك كي لا نتهم بأننا نعرقل الوصول إلى حل.

وأكد زكي أن المواقف العربية واضحة، وهي ترفض أية محاولات لتجزئة المبادرة العربية للسلام، أو إعادة ترتيب أولويات المبادرة، أو وضع نهايتها قبل مقدمتها .. وقال: كل هذه الأفكار، وهي موضوعة قبل عدة سنوات لن تفلح في زحزحة الموقف العربي، وهو موقف عربي صلب استمر دون تغيير منذ العام ٢٠٠٢، عام اعتماد هذه المبادرة.

وختم زكي: بتقدير شخصي، وبالشكل الذي تابعناه للرئيس الأميركي، وحديثه عن رغبته بالتوصل إلى تسوية وحل، لكونه يشعر بأن ثمة فرصة ما كونه يتعاطى مع الأمر على أنه قضية أراضي، وهو تاجر أراض وعقارات، فربما لديه خبرة أكثر من غيره في التوصل لتسوية لهذا الموضوع الذي يراه عقارياً للأسف الشديد، لكن هذه الرغبة، في اعتقادي الشخصي، سوف تصطدم، إن عاجلاً أم آجلاً، بالمواقف الإسرائيلية المتصلبة، وبشكل أقرب مما نتخيل، قد تحدث حالة من الافتراق بين الجانبين، قد لا تصل إلى الحالة التي وصلت إليها علاقة الرئيس الأميركي السابق برئيس الحكومة

الإسرائيلية، ولكن قد تصل إلى وضع يشعر معه الرئيس الأميركي بأن الجانب الإسرائيلي لا يرغب ولا يستطيع أن يتماشى معه في أي طرح للتسوية، وعلينا أن نقود الطرفين إلى هذه الخلاصة، وهذه النتيجة.

العرب ليسوا أولوية

وبدأ د. صائب عريقات، أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، كبير المفاوضين حديثه بالقول: اليوم (في تاريخ الندوة نهاية آذار) لم يمر على الرئيس الأميركي ترامب في السلطة إلا ٣٣ يوماً، وبالتالي قد يكون من السابق لأوانه إطلاق الأحكام، لكن المقاربة في تحديد السياسة الخارجية الأميركية تبدأ بخطاب التنصيب، وإذا ما أخذنا خطابات التنصيب للرؤساء ترومان، وأيزنهاور، وكنيدي، ونيكسون، وجونسون، وفورد، وكارتر، وريغان، وبوش الأب، وكلينتون، وبوش الابن، وأوباما، نجد أن العامل المشترك بين محددات السياسة الأميركية، لوجدنا أن جميع هذه الخطابات ارتكزت على موضوع الحرية، حيث الحديث عن العالم الحر، والتجارة الحرة، والدفاع المشترك، والتي شكلت نقاط ارتكاز في السياسة الخارجية الأميركية منذ إنشاء إسرائيل في العام ١٩٤٨ في فترة حكم ترومان إلى نهاية عهد أوباما.

وأضاف: هناك فرق شاسع، فنقطة الارتكاز في خطاب الرئيس ترامب كانت «النظرية صفر»، الحديث عن «أميركا أولاً»، و»إما أن نربح أو نخسر»، و»أميركا ستعود عظيمة مرة أخرى»، مقتبساً مما قاله ترامب في خطاب تنصيبه «لعقود طويلة بنينا صناعات الدول الأجنبية على حساب الصناعات الأميركية، ولعقود طويلة عززنا جيوش العالم على حساب تعزيز قدرات الجيش الأميركي .. ثراء الطبقة الوسطى في أميركا نقلناه من غرف نوم هذه الفئة ووزعناه على العالم أجمع».

وشدد عريقات: لم يأت ترامب على أي تفريق بين صديق وعدو في خطابه، ولم يتحدث عن الحرية بأي شكل من اشكالها، لكنه قال «....من الآن ستكون الأوضاع فقط أميركا أولاً»، لافتاً إلى أن «أميركا أولاً» اسم منظمة تأسست في العام ١٩٣٩ لمنح الرئيس روزفلت صلاحيات ما في فترة الحرب العالمية الثانية، وسقطت هذه المنظمة في العام ١٩٤١، بعد اعتداء اليابان على بيرل هاربرد، وهي تعبير عن سياسة الانعزال.

وأضاف: قد يقول البعض إن ترامب يطرح أرضية تفاوض على الآخرين التعاطي معها، حيث الحديث عن إدارة جديدة وتاريخ جديد، وما إلى ذلك من المصطلحات القادمة من واشنطن، وهذه الرؤية الجديدة إن جاز التعبير تفرض آلية تعاطي جديدة وفق مبدأ «أميركا أولاً»، وهنا نتساءل عن خطة الخريطة العربية للتخاطب والتعامل مع ترامب، بمعنى أين لغة المصالح التي سنتحدث

فيها مع ترامب .. إذا كان ترامب سيتعاطى مع الميزان التجاري للدول، سيجد في الشرق الأوسط أن السعودية هي رقم ٢٣ في التبادل التجاري مع أميركا، ورقم ٢٦ الإمارات العربية المتحدة، وهنا يجد أن الصين هي على رأس القائمة في الميزان التجاري للدول، فصادرتها لأميركا في العام ٢٠١٦ بلغت ٤٨٢ بليون دولار، وارداتها من الولايات المتحدة ١١٦ بليون دولار، بالتالي العجز ٣٣٦ بليون دولار، وبالتالي ستكون أولوية ترامب هي تقليل هذا العجز في الميزان التجاري مع الصين، أما فيما يتعلق بالاتحاد الأوروبي فإنه رفض السفير الذي رشحه ترامب لديه، تيد مالوك، بعد أن صرح بأنه كان ضمن الفريق الذي ساهم في تمزيق الاتحاد السوفياتي.

وحذر عريقات من استغلال نتنياهو لتنامي اليمين في العالم وبناء شراكات حول العالم ضد ما يسميه خطر إرهاب العرب والمسلمين، كما لفت إلى أن إشكاليات حدثت بين الولايات المتحدة وكندا والسويد والمكسيك وسبع دول عربية وإسلامية في الشهر الأول لحكم ترامب، مع أن المكسيك شريك هائل على صعيد الميزان التجاري، وتأتي بعد الصين .. وقال: ترامب تعنيه الأرقام، وليس الشعارات، والتقارب مع روسيا لا علاقة له في سورية، فنحن نعلم أن موسكو في دمشق، وواشنطن في دمشق، ولندن وبرلين وروما وغيرهم جميعاً في دمشق، مع أن علاقات الميزان التجاري بينهما ليست متقدمة، فالتحالف مع روسيا يأتي بالأساس لتفتيت أوروبا.